جواباتُ قصـــرِ الدوبـــارةِ

عنوان الكتاب: جواباتُ قصرِ الدوبارةِ

الموضوع: رواية

التأليف: عبدالرحمن عباس

مراجعة لغوية: محمد الشعار

الإخراج الفنيّ: عمرو وسالم سواح

تصميم الغلاف: دينا فتحي /فارس

رقم الإيداع: ١٦٦٦٧ /٢٠١٩

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٥-١٣٧-٨

الناشر : زحمة كتاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع

Facebook Page: اسكرايب للنشر والتوزيع

Email:scribe20199@gmail.com

Tel: 00201005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار
اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

جواباتُ قصـرِ الدوبــارةِ

رواية

عبدالرحمن عباس

إهداء

➢ إلى من أنصفتهم الأديانُ وظلمتهم العاداتُ والتقاليدُ

➢ إلى أحمدَ ونجوى وعبير (التحويشة)

➢ إلى ملك..هدية ٢٠١٩

➢وإلى الذين اتهمونا بأننا لا نصلح لشيءٍ سوى الكتابة..شكرًا

كلُّ الأنفسِ المتضايقةِ أعطها يا ربِّ رحمةً، أعطها راحةً،

أعطها نعمةً، أعطها معونةً، أعطها خلاصًا

(صاحبةُ الشعرِ الكيرلي)

عقاربُ الساعةِ تشيرإلى الرابعةِ عصرًا، وقتَ انتهاءِ العملِ.. أتأكدُ أنَّ كلَّ شيءٍ مطلوباً تمَّ تنفيذه، الدفعةُ الأخيرةُ من المحبوسين تم تدوينُ بياناتِهم، وتقريرُ الزيارةِ الأخيرةِ لسجن طرةَ.. تم رفعُه على موقعِ المنظمةِ، ١٠ إيميلات حصيلةُ أسئلةِ اليومِ عن غيابِ أفرادٍ لم يُعرفْ لهم طريقٌ حتى الآنَ، لم أستطع الردَّ عليهم، كتبتُ في الورقةِ المجاورةِ لجهازِالكمبيوتر:

- خالد في إيميلات جت رد عليها .

هكذا تركت ملاحظتي قبل أنْ أغادرَالمكتبَ الكائنَ في "جاردن سيتي" مقرِّعملي لمدةِ ثلاثِ سنواتٍ حتى الآن .

أسيرفي الطرقاتِ التي أحفظ معالمَها مرتديةً البلوزةَ البيضاءَ- تُعطيني أريحيةً في الحركة- بجانبِ لونِها الباعثِ على النقاء، أُحبُّ الألوانَ التي لا تحملُ شرًا وأكره التي تتغيرُمع الضوء،فهي تُذكرني دومًا بالمنافقين، أنا غيرُمقتنعةٍ باختراعِ"البدي"فهو مُكمّمٌ للجسد.

أبدأُ السيرَمن "ميدان التحرير" إلى ميدانِ"طلعت حرب" لا أتعجل..لا يثيراهتمامي أحدٌ، فكلُّ شيءٍ في تلك المنطقةِ أصبح مألوفًا،الأكشاكُ المنتشرةُ خلف العماراتِ القديمة، متسوِّلوا المنطقةِ، عباراتُهم التي لا تنقطع، أُمٌّ تحملُ ابنتَها تريد أنْ تطعمَه، تصيح أخرى: ابني تعبان وبغسله كلى كل شهر- أعرف أنهم كاذبون- كم أحتقرُهم وأرفقُ بهم في آنٍ واحدٍ، أشعر أنه ما من مخلوقٍ يستطيع أنْ يلومَهم ربما لاقتناعي أنهم يملكون مئاتِ الأسبابِ؛ فما من إنسانٍ يريدُ أنْ يُعرِّضَ نفسَه للمهانة، أُكمل خُطواتي دونَ أن أُبديَ كثيرًا من الاهتمامِ سوي بالقربِ من ميدانِ"طلعت حرب".

هنا أخلع نظارتي السوداءِ مُتوجّهةً بعيني إلى أعلى.. إلى تلك العقاراتِ التي اكتسبت رونقاً جديداً بعد تجديدِها، أبتسم وأُردّدُ في نفسي: مازال هناك شيءٌ جميلٌ، أُحبُّ تلك العقاراتِ كثيرًا.. أرى أنها قويةً ثبتت أمامَ الأيامِ وقهرتْ كلَّ حاكمٍ فكَّرَفي تغييرِها، هكذا هي منذ أنْ تمَّ بناؤها.. لا تحتاج سوي بعضِ التجديدِ البسيطِ لتعودَ كما هي..! ربما هذا هو سرُّ حبي لكلِّ شيءٍ قديمٍ أعني قدرتَه على الوقوفِ أمامَ الزمنِ الذي يقهركلَّ شيءٍ - لذلك أحبُّ الأهراماتِ والمتاحفَ والعقاراتِ وشوارعَ القاهرةِ

القديمة، القوةُ الحقيقةُ لا تكمن سوى في الثباتِ وعدمِ التغيير.. لذلك أيضًا أحبُ المسيحَ لأني أراه منتصرًا على الزمانِ.. مازال يحتفظُ بصورتِه كشابٍّ رغم مرورِقرونٍ على ميلادِه.. استطاع أن يحتفظَ بنفسِه ويخرجَ لسانَه لمن صلبوه.. لم يتغيروفي حياتي المليئةِ بالمتغيرين والمتحولين بين عشيةٍ وضحاها تصبح تلك المباني هي الأجملَ، لذلك أعشق أيضًا "الخديوي إسماعيل" و"الفاطميين" و"الفراعنة" و"شركة المقاولون العرب" التي تقوم بترميم تلك المباني..!.

"أنا لحبيبي وحبيبي إلي" يهتزُّ هاتفي المحمولُ، و يعلو صوتُ"فيروز" ثانيةً بعدَ أخرى.."فيروز" ليستِ امرأةً بل قديسةٌ وكلُّ ما تقولُه عبارةٌ عن ترانيمَ، أتذكَّرُ ذلك اليومَ الذي حلمتُ فيه بموتِها.. لم أُصدق نفسي فأنا أرى أنها أكبرُ من الموت، "فيروز" سببُ الحياةِ لا يمكن أن يُواريَها الترابُ.

يعلو اسمُ"خالد" على شاشةِ الهاتفِ؛فأنظر إلى الاسمِ باشمئزازٍ قائلةً:

- لعنةُ اللهِ على العملِ.. لا ينقطع . أردُّ بكلماتٍ مقتضبةٍ:

- أيوا رفعت الأسماء على الموقع .. أعيدُ الهاتفَ بشيءٍ من العصبيةِ وأُعيدُ نظارتي إليّ مرةً أخري .

خطوتين ويلوحُ الصليبُ في الأفقِ كلما شاهدته تذكرتُ مقولةَ "الملكِ فاروق" وهو يأمر ببناءِ مبنىً كبيراً أمام الكنيسةِ حتي لا يظهرَ الصليبُ من بعيدٍ،حتي تم خلعُه ونفيُه إلي "إيطاليا" أتذكر أيضًا مقولةَ القسِّ"سعيد":

- خشي أن يرى صليباً فأذهبه اللهُ إلى مكانٍ لا يرى فيه إلا صلبانًا.

هل كان هناك رابطٌ بيني وبين كنسيةِ "قصرِ الدوبارة" فأنا أرثوذكسيةٌ وهي كنيسةٌ إنجيليةٌ،لكني أحفظ تاريخَها عن ظهرِ قلبٍ منذ أن قررَ"مجمعُ الدلتا" الإنجيليُّ تأسيسَ كنيسةٍ جديدةٍ في القاهرةِ في يناير ١٩٤٠، وقتها تم إنشاءُ الكنيسةِ مكانَ القاعةِ المملوكةِ لدارِ تحريرِ إرساليةِ النيلِ، ذلك قبل شراءِ قصرِ الدوبارةِ أو مقرِّ السفارةِ البريطانيةِ ليكونَ في النهايةِ ذلك المزيجُ الرائعُ .

المكانُ الوحيدُ الذي يُشعرني بروحِ المسيحِ تُحيطُ بي..! لا أعرف لماذا..؟ هل لأنَّ بقاءَ الكنيسةِ بمبانيها العاليةِ وصلبانِها الرافضةِ أن تتواري دلَّ على رفضِها محاولةَ أيِّ تغييرٍ أو طمسِ هويةٍ..؟.

خطوتين تفصلاني عن البابِ الرئيسيِّ.. هنا مكانُ راحتي، هذا المبنى بقبَّتِه وأبوابِه وبينَ جدرانه، هنا الربُّ ينتظر دعواتِ الثكالي ودموعَ الأبرياءِ وصرخةَ المظلومين،وهمومَ المكلُومين، وأسرارَ القلوب، هنا أجيءُ حين يكون كلُّ شيءٍ قابَ قوسينِ أو أدنى من الانفجارِ.

بهوُ الكنيسةِ يبعثُ على الراحةِ والصفاء، "شفت" داخلي يحدث أتوماتيكيًا بمجردِ خُفوتِ صوتِ الزحامِ وسماعِ رنينِ الأجراس.. الهدوءُ ممزوجٌ بالعظمةِ والرهبةِ في آنٍ واحدٍ.. اللهُ لا يقبل أنْ يُزعِجَ عبدَه أحدٌ وهو في محرابِه..اللهُ لا يُعطي لك فرصةً في الكذبِ وأنت قادمٌ إليه تطلب منه العونَ.. شيءٌ ما في داخلِك يُجبرك على أنْ لا تواري في الحديثِ، ربما لأنك تُدرك أنه يعلمُ ما تُخفي الصدورُ، أو ربما لأنك تعلمُ أنه الوحيدُ المُنجي المُخلِّصُ من ذلك، الكنيسة تحترمُ تلك الخصوصيةَ . ينظر إليَّ القسُّ"بولا" بشيءٍ من البسمةِ ليتركَني وحدي، كم يُحيِّرُه قدومي وهو يراني لا أُرتِّلُ إلا مزموراً واحداً في كلِّ مرةٍ، لكنه كان لديه الأدبُ الكافي لِئلَّا يسألَ رغم نظراتِ عينيه المُلحَّةِ بالسؤالِ المتمثلةِ في قولِه:

- ربنا يساعدك.

أترك كلَّ هذا وأقفُ بالقربِ من المنبرِ..

- ارحمني يا الله كعظيمِ رحمتِك، ومثلَ كثرةِ رأفتِك تمحو إثمي.. اغسلني كثيرًا من إثمي ومن خطيَّتي طهرني، لأني أنا عارفٌ بإثمي وخطيَّتي أمامي في كلِّ حينٍ.. لك وحدك أخطأتُ، والشرُّ قدامك صنعتُ.. لكي تتبرر في أقوالك، وتغلب إذا حوكمتُ، لأني هاأنا ذا بالإثم حُبِلَ بي، وبالخطايا ولدتني أمي، لأنك هكذا قد أحببتَ الحقَّ، إذ أوضحتَ لي غوامضَ حكمتِك ومستوراتها تنضح عليَّ بزوفاك فأطهُرُ.. تغسلني فأبيَضُّ أكثرَ من الثلج.. تسمعني سرورًا وفرحًا، فتبتهجُ عظامي المنسحقةُ.. اصرف وجهك عن خطاياي، وامحُ كلَّ آثامي.. قلبًا نقيًّا اخلق فيَّ يا اللهروحًا مستقيمًا جدده في أحشائي.. لا تطرحني من قُدَّامِ وجهِك وروحِك القدوسِ لا تنزعه منى.. امنحني بهجةَ خلاصِك، وبروحٍ رئاسيٍّ عضدني؛ فأعْلِمْ الأثمةَ طُرُقَكَ، والمنافقون إليك يرجعون، نجني من الدماءِ يا الله إله خلاصي .

نصفُ دقيقةٍ تمرُّ.. ألتقط فيها الأنفاس.. أمنح إحساسَ الصفاءِ بعضًا من الوقتِ كي يسري في جسدي وأنا مُغمَضةُ العينين قبل أنْ أستعدَّ للمغادرة.

- غادة.

- أيوه.

- في جواب علشانك.

- من مين؟

- مش عارف.. حد سهولك وقالي لما تيجي ادهولك.

نظراتٌ مليئةٌ بالإعجابِ والبسمةِ ظهرت على القسِّ"بولا" وهو يعطيني الجوابَ.. شعرَ أنَّ هناك شيئًا ما يحدث لي، أو لأنه شعرَ في لحظةٍ تمكُّنَه من معرفة ما وراءَ تلك الأُنثي التي تُحيرُه .

حالةُ القلقِ التي انتابتني بمجردِ لمسِ الورقةِ أفقدتني نظرةَ الخجلِ التي كان ينتظرها القسُّ"بولا" ليستشفَّ وجودَ قصةٍ ما.. خاب ظنُّه بمجردِ أنْ نظرَ اليَّ ولم تكن لي قدرةٌ على القراءةِ؛ فعقلي يفكر:ترُى مَن هو صاحبُ الجوابِ..؟! ما هو مضمونُه، ومن ذا الذي يُرسل جواباتٍ في سنواتِ الفضاءِ الألكتروني، ولماذا لم يترك اسمَه، وكيف يُحِقُّ لنفسِه أنْ يُقلقَني كلَّ هذا القلقِ دونَ سابقِ معرفةٍ..؟! إنه أمرٌ خارجُ إطار الذوق..!

يعلو رنينُ الهاتفِ مرةً أخري باسم "ندى" فأدسُّ الجوابَ في حقيبتي وأتأكد أنه في مكانٍ بعيدٍ عن الأعينِ؛ حتي لو فكَّرَ أحدٌأن يفتحَ حقيبتي لم يجد شيئًا، وكأنه جريمةٌ اردتُ إخفاءَها.. وكانَ هذا قبل أنْ أُمسِكَ بالهاتف لأردَّ:

- أنا جاية في الطريق .

- الجوابُ ومن الرجلُ..؟! ظل يُراودُني بذلكَ هاجسي في طريقي إلي "ندى" فلم أستطع التخلُّصَ منه وإن كنتُ استطعتُ تأجيلَه خشيةَ أنْ تفضحَني صديقتي التي تعرفُني من نظرةِ عينٍ واحدةٍ.. لطالما سألتُها هذا السؤالَ:

- كيف تعرفين أنَّ هناك أمراً ما بمجردِ النظرِ إليَّ..؟

ودومًا يأتي جوابُها:

- لأنَّ عينيكِ لا تُجيدانِ الكذبَ.

لم تكن "ندى" مجردَ صديقةٍ..! بل هي أختي بكلِّ ما تحويه الكلمةُ من معني، حتَّى إني في بعضِ الأحيانِ أبحثُ عن مرادفٍ أقوى؛فهي أولُ من استقبلَني في قاهرةِ المعزِّ..أولُ رفيقةٍ استضافتني في شقتِهابِ"بولاق"هي الأُخرى مغتربةً تعملُ في القاهرةِ منذ ثلاثِ سنواتٍ .

درستْ في جامعةِ القاهرةِ أربعَ سنواتٍ لكنني لا أعرفها؛ فقط أحضرُ أيامَ الامتحاناتِ.. هذا شرطُ أُمِّي لكي تقبلَ أنْ أترك "المنيا" فكنتُ أُسافر يوميًا في أيام الامتحاناتِ، لذلك أعتبر أنَّ بدايتي الحقيقيةَ يومَ جئتُ للعمل واستقبلتني "ندى"وكان أولَ مكانٍ ذهبتُ إليه هو "وسطُ البلد" أُطالع مبانيها التي تُدهشني دومًا.

أستعيدُ ذكرياتِ ذلك اليومِ حينَ اتَّصلتُ بِ"أبانوب" رفيقِ الطفولةِ لأخبرَه أني قادمةٌ إلى القاهرة اليوم،وأطلب منه تدبيرَ مكانٍ خلالَ ثمانِ ساعاتٍ على الأكثرِ.. هي مدةُ قدومي واستلامي العملَ الذي وفَّره لي فجأةً في إحدى المنظماتِ الحقوقيةِ.. ولم يكن أمامه وقتَها سوى"ندى" تلك الناشطةُ المهتمةُ بأحوالِ المرأةِ ليخبرَها بالأمرِ، وعلى الفورِ وافقت بضحكتِها المعهودة .

أمامَ مقهى بشارعِ"جواد حسني" لا يحمل أيَّ عنوانٍ كراسيُّه قديمةٌ، ولكنها مرتبةٌ جلستُ بعد أنْ خلعت عن كتِفي حقيبتي ووضعتُ سجائري التي أُفضِّلُها من نوع "وينستون" أمامي.. لم تمهلني "ندى" أيَّ فرصةٍ.. فالتقطت السجائرَ ساحبةً إحداها وأشعلتها في أقلِّ من نصفِ ثانيةٍ:

- مش هتبطلي تسرقي السجاير؟
- لا مش هبطل.
- طب على الأقل اشربيها بدل ما انتي بتشربي نصها.
- وانتي مالك.. المهم انت تشتري زي ما انت عاوزة هتسافري إمتي..؟
- كمان ساعتين.
- وهتقعدي قد ايه؟
- يدوبك أسبوع واجي.
- غادة.
- نعم.

- مالك؟

- مليش.

- متأكدة؟

- هكدب عليكي؟

- اممم طيب.

- سيبك مني و قوليلي عملتي إيه مع إحمد حددتوا معاد الخطوبة؟

- لسه.

- ليه ده المفروض كان يتم من شهرين؟

- البيه لسه مقررش هيقدر يعمل الشيفت ده ويتحول من حبيب لخاطب ولا لا، البيه لسه بيجرب هيبقي محترم ولا مش هيعرف.

- وانتي ساكته عليه ليه؟ ما انت عارفه انه كل يوم ماشي مع واحدة.

- مش هكدب عليكي واقولك اني مبحبوش ولا نظرة عينه ليا المختلفة عن أي حد، ولا حتي هقولك اني فرصته انه يشيل مسئولية، أحمد طيب وكويس عينيه زايغة ماشي، لكن بيقدّر قيمتي والنوع ده لازم كل خطوة بشويش مش من الباب للنار.

- يا سلام وانتي بقي صابرة عليه كل ده؟

- مش بقولك بحبه.

- ولو خلع؟

- يبقي يخلع دنا واخده إذن من امه وابوه هيبقي نهاره ازرق معايا.

- والله انتوا مجانين.

- وأنا عمري قلتلك إني عاقلة.

- على رأيك ربنا يجحمكوا بجاز.

- آمين يارب.

ذهبتُ وأشعلتُ سيجارتي.. الشيءُ الوحيدُ الذى من حقِّه أنْ يُلامسَ شفتيَّ.. أنْ أضمَّها وأُطبِقَ عليها بين خطَّينِ من نارٍ لأُعطيها قبلةَ الحياةِ ويشتعلُ كلُّ ما فيها لِتُخرجَ دُخانَها من هذا الوهجِ، أنظر إلى "ندى" الطائشةِ هاويةِ الضحك بدونِ أسبابٍ.. المنتصرةِ دومًا على الحياة.. انتصارُها أن تُخرِجَ لسانَها لكلِّ موقفٍ يُؤلمُها وتقولُ كلمتَها المفضلةَ:

- ابو أم اللي يزعلني..! كم أتمني أنْ أصبحَ مثلَها.. أنْ أُعاندَ كلَّ شيءٍ.. أن لا أستسلمَ أبدًا.. أن أملكَ تلك الضحكةَ، حتى خطيبها "أحمد" الذي تعشقُه منذ سنواتٍ تعرفتْ عليه وعلى أُمِّه وأبيه حتي أصبحت جزءاً من العائلةِ وكان "أحمد" وحيدًا فاتَّخذتْها أُمُّه بنتًا لها.. هكذا بضحكتها المعهودةِ أستطاعت "ندى" أن تتسلَّلَ إلى هذا القلب.

مازلتُ أُحدِّثُ نفسي بينَ الآنِ والآخرِ مُتعجِّبةً:

- كيف صبرت على أحمد كل هذا الوقت وكيف تتعاملُ مع الأمرِ ببساطةٍ حدَّ الاستفزازِ.. حتى إنها ضبطته مع امرأةٍ أخرى يجلسانِ فى مقهىً؛ فما كان منها إلا أن قالت: متآمر وأهبل طب اخرج معاها في مكان مبروحوش..!وقتها أتذكر كيف أنَّ الأمرَانتهى بسلاسةٍ وأكملت هي الجلسةَ معه بعد أنْ ذهبت صديقتُه.

سألتها ذات مرةٍ:

- كيف تُدافعين عن حقوقِ المرأةِ وأنتِ هكذا تغفرين خيانةَ الرجلِ..؟! ردت:

- خيانةُ الرجلِ..! هل تدركين كِبَرَ تلك الكلمةِ..؟ نعم كبيرةٌ حدَّ الموتِ.. أنْ نُساوي بينَ نزوةٍ وبين علاقةٍ كاملةٍ.. أن تكونَ اللمسةُ كالقبلةِ..أنَّ يتعرّى رجُلُكِ أمام امرأةٍ أخرى.. أن لَّا نغفرَ زلاتِ رجلٍ استهوته امرأةٌ.. أن ننسى كلَّ شيءٍ لمجردِ حماقةٍ، نحن نستطيع تأديبَهم وتربيتَهم؛بل وأن نُريهم النجومَ فى قيظِ الظهيرةِ لكن ليس أكثرَ..! لا نُصبحُ معتدين، ثم هناك أمرٌ آخرُ: ألا تخونُ المرأةُ أيضًا.. ألم يعجبنا نحن رجالٌ نتمنَّى أنْ ننامَ في أحضانهم ساعةً واحدةً ولكن ما يمنعُنا هو أننا نخافُ من العيونِ.. نخافُ أن يلمحَنا أحدٌ ونحنُ نجلسُ مع رجلٍ مثلما يفعلون هم .

أنا لا أُفرِّطُ في كرامتي ولا أُهينها..! فقط أرفضُ أن نُقيمَ الدنيا ولا نُقعدُها دون سببٍ.. هل تدركين كم رأيتُ من حالاتِ طلاقٍ بسببِ شكٍّ، أو كم تربَّى ولدٌ خارجَ أحضانِ أمِّه وأبيه بسببِ نظرةٍ لم

تتقبلها امرأةٌ، تعتبرُ النساءُ هذا أسمى معاني الكبرياءِ،ولكنهم ينظرون من الجهةِ الضيقةِ،ولو فكرنَ دقيقةً فيما اقولُ لكانَ الأمرُاختلف..! هكذا تعلمتُ وبدأتُ أنصحُ النساءَ بدلًا من المناداةِ بحقهنَّ في المحافلِ الدولية.. صحيحٌ إني أنادي بحقهنَّ في أن يتوليْنَ كافةَ المناصب، وأن يتم اعتبارُهنَّ إنسانًا في مجتمعٍ تغلب عليه النزعةُ الذكوريةُ..ولكنَّ هذا لم يكن مبرراً لي لأن أُشجعهُنَّ أيضًا على إخراجِ كلِّ هذا في أزواجهنَّ.. كثيرٌ من النساء يُخرِجنَ الكبتَ في أزواجهنَّ كأنهم سببٌ في كلِّ شيءٍ.. أنا أغفرلِ"أحمد" لا لإني أخونه ولكنني أتفهَّمُ ظروفَه أعرف أنه لو خيروه بين الدنيا وبيني سيختارني..! فقط هي سخافاتٌ يرتكبُها ويجب أن تمرَّولكنني لأ أخفيكِ سرًا: إنني أعشقُه وهو يقفُ أمامي كطفلٍ يطلبُ المغفرةَ..فقد صدق "نزار":"كيف من صغارها تنتقم الطيور".

هم أطفالٌ يا غادة.. أطفالٌ مهما علَوا. مهما جلسوا يُحدثونكِ عن حِكمتِهم، أحلامِهم، حتى لو رأيتِ الرجلَ منهم يضربُ ألفًا، جربي أنْ تضعي يديكِ على خدِّه، أن تُقبِّليه وتقولي له أُحبُّكَ.. سينسَى كلَّ شيءٍ، سيضحكُ، وربما يحملُكِ فرحًا، حتى لو كانَ كلامُك كذبًا! أوقاتٍ كثيرةً أشترى لأحمدَ لُعبةً وأُهديها له.. يضحكُ هو كثيرًا لأنني أراه طفلًا..!ويقول لي بسخريةٍ: حاضر يا ماما ومع هذا أُدركُأنه يطيرُ فرحًا من داخله..!

يقاطع تفكيري صوتُ عاملِ المقهى وهو يطلبُ شاي ع بوسطة ينبِّهني دون أن يقصدَ: أنَّ الساعةَ قاربت على الخامسةِ مساءً، بقيتْ ساعةٌ واحدةٌ تفصلُني عن انطلاقِ القطارِ الذي سيُقِلُّني إلى "المنيا" بعد غيابِ أكثرَ من شهرٍ لم يكن من عادتي أن أقضيَ كلَّ تلك المدةِ دونَ رؤيةِ أمِّي وأبي وأختي الصغيرةِ"سالي" وكنيسة العذراء التي أحبُّ الصلاةَ فيها..هناكَ شيءٌ بداخلي جعلني لا أُريدُ العودةَ تلك المرةَ سريعاً.. صوتٌ يقول لي اجلسي أكثرَ في القاهرةِ بعيدًا عن ضجيجِ الأهلِ الذين لا يفعلون شيئًا سوى مطالبتي بالجلوسِ في البيتِ أو على الأقلِّ العملَ بِ"المنيا" رغم إقناعي لهم أن "المنيا" خاليةٌ من أيِّ مراكزَ بحثيةٍ.

أحاول أنْ أبتعد عن ذلك كلِّه بأنْ أجلسَ ولا أعودَ أصلًا، ولكني آثرتُ السلامةَ خشيةَ أنْ يُفتَحَ بابٌ آخرُ لا أستطيع إغلاقَه.. بابُ الشك.. قالت لي أمِّي يومًا بعد أنْ غبتُ فترةً في القاهرةِ بسببِ عملي:

- اوعي تكوني اتجوزتي من ورانا..؟!

لم تتورَّعَ أُمِّي التي يملؤها القلقُ دومًا على ابنتِها أنْ تقولَ تلك الكلمةَ، فعرفتُ وقتها أنَّ خيالَها لا مدى له ولم يكن أبي أفضلَ حالًا فقد عارض مرارًا فكرةَ عملي بالقاهرةِ وحدي.

أفكارٌ كثيرةٌ دارت في رأسِي قبل أنْ أستقلَّ تاكسي إلى محطةِ مصرَ أو كما أُطلقَ عليها"بوابة مصر الداخلية" هكذا كتبتُ عنها في أولِ يومٍ جئت فيه إلى القاهرة.حين وطأتُ بقدمَيَّ تلك الأرضَ وأنا أحتضنُ حقيبتي إلى صدري مُمسكةً باليدِ الأخرى حقيبةَ ملابسي، وقلبي يخفق بسرعةٍ مضطربة .

اعتدتُ السفرَ طوالَ دراستي بالميكروباص، وتلكَ هي المرةُ الأولَى التي أركب فيها قطاراً، أتجول بعينَيَّ في هذا العالمِ.. نظراتٌ سريعةٌ أسرقُها..أخشى أن يضبطَني أحدهم..أنظرُ إلى كلِّ شيءٍ، فاجأني ضيقُ نفَسِ"المصاروة" كما نُطلقُ عليهم في الصعيد، لا فرصةَ هنا لأحدٍ..الباعةُ الجائلون صوتُهم يملأُ المكانَ بضجيجٍ فاق صافرةَ القطار.. تعبيراتُ وجوهِهم تُخيفُني وتراصُّهم على رصيفِ المحطةِ كلٌّ منهم يبيع سلعةً ما بين الجرائدِ والمشروباتِ يُدهشني.. يبيعون حتى التحفَ الخشبية، أما المسافرون فبعضُهم افترش الأرضَ والآخرون غطُّوا في نومٍ عميقٍ على الأرضِ و خلفهم لافتةُ كافتيريا المحطة.. لم يخرجني من هذا المشهدِ السينمائيِّ سوي هذا الصوتُ المرتفعُ من أحدِ الباعةِ الجائلين لامرأةٍ طاعنةٍ في السنِّ:

- يا ست مفيش ترجيع.
- يا ابني فلوسي وقعت بعد ما مشيت من عندك مفيش معايا فلوس ابقي مفلسة واشتري تحف.
- يا ست أنا مالي قدامك البوليس اشتكيله يجبلك اللي سرقك لكن الحاجة هنا مبترجعش.
- يا أبني أنا زي أمك علشان خاطر النبي لسه مشواري طويل.
- ياست اتكلي على الله ميبقاش اصطباحتك زفت.

أفزعني الأمرُ..هذا الأُسلوبُ الذي تكلَّمَ به البائعُ، حملقت في تعبيراتِ وجهِه.. لم تنُمَّ عن نظرةِ عطفٍ.. لم يظهر فيها بادرةُ رحمةٍ، ملامحُه التي أصبحت مثلَ العربةِ المقلوبةِ لم يرَ أنها أُمًّاً كبيرةً تستعطفُه..لم يحنَّ قلبُه في لحظة.. لم يصدق أنها قد تكون في محنةٍ، ثم ماذا يُضيرُه..؟ بضاعتُه وستردُّ إليه.؟! و لماذا يضحك أُمناءُ الشرطةِ الجالسون على بُعد عشرةِ أمتارٍ كلٌّ منهم يحملُ جهازاً لاسلكيّاً

أسودَ من أجلِ تأمينِ المحطة..؟! لماذا يضحكون، ولماذا لم يتحركوا ليأمروا البائعَ بقبولِ استرجاعِ البضاعة..؟! ومَن سمح لهؤلاء الباعةِ بالتصرفِ في المحطةِ وكأنها إرث لهم..؟

فكرت في لحظةٍ أن أذهبَ إليهم لعلَّهم يشعرون بالحرجِ،ولكني أدركتُ أنَّ تلك الأنواعَ من البشرِ لا يُحرجُها كلمةٌ؛ فكيفَ وهم لم تُحرجهم دموعُ أمٍّ كبيرةٍ،فهل سيؤثِّرُ فيهم شيءٌ كالذي أعتزُ أنا فِعلُه..؟ مشهدٌ مقززٌ أردتُ أنْ أنهيَه؛ فذهبتُ إلى المرأةِ التي لم تتمالك دموعَها بمجردِ اقترابي:

- خلاص يا أمي.. كلنا ولادك هي التحف بكام؟

- بعشرين جنيه.

- طب خدي العشرين جنيه والتحفة كمان متزعليش.

لم يكترثِ البائعُ وهو يراني أُخرجِ المالَ..أشاح بوجهِه الناحيةَ الأخرى واستمرَّأُمناءُ الشرطةِ في الحديث.. أتذكرُ ذلك كلَّه و أسخرُ من نفسي كلما تذكرت كيف كنتُ أنتظر النشال الذي سيسرقني في المحطة على طريقةِ فيلم "العتبة الخضرا" أو "البيه البواب" الأمرُ اختلف تمامًا وأصبح للسرقةِ نوعٌ آخرُ لا يحتاج أنْ أقبضَ على حقيبتي سأخرج أموالي عن طيبِ خاطرٍ، أدركت ذلك بعد أنْ عرفت في ثاني زيارةٍ لي للقاهرةِ أنَّ المرأةَ الكبيرةَ تعمل مع البائعِ وتقوم بتلك المسرحيةِ من أجلِ أن يعطفَ أحدُ المسافرين عليها، في نوعٍ جديدٍ من أنواعِ النصبِ يحتاج قدرةً تمثيليةً لم تصدقها عينايَ وأنا أرى الأمرَ يتكررُ في زيارتي الثانيةِ وقتَها لم أمنع حتى الضحيةَ من أن يقعَ في نفسِ الفخِّ،بل ذهبت إلى المرأة مباشرة

-مش انت كنت هنا من شهر وحصل نفس الموضوع:

- انتي مين يا بنتي انا معرفكيش؟

- نعم لا ده نصب بقى.

عيون المرأة تحاول أن تهرب مني قبل أن يقاطعها صوت نفس البائع:

- في ايه يا آنسة؟ متسيبي الست في حالها ايه التلاقيح ديه.

صمت ولم أجد سوى أمين شرطة كان يراقب المشهد ليقترب مني.

- يا آنسة كله بياكل عيش أنا عارف انك كنتي هنا الشهر اللى فات وادتيها فلوس، غيرك كتير بيعمل نفس الخير، جزاءك عند ربنا والست اهي بتلاقي حاجة آخر اليوم جنيه أوعشرين أي حاجة والواد صاحب الفرشة بيلاقي اللى يسد بيه بق عياله هو في حد بيشترى تحف في البلد ديه.

- بس ده يبقى نصب ما تشحت احسن.

- ماهو ده نوع من الشحاته برضه بس بطريقة مختلفة زي اللى بتشحت علشان تعالج ابنها وزي اللى بتقولك بجري على ٣ عيال واهو كله بيشحت.

- وانتوا ساكتين ليه؟

- يا آنسة البلد ديه لو مشحتتش تموت من الجوع والناس لو معملتش كده هياكلوا كل حاجة في وشهم خلينا ممشينها كده لحد ما ربنا يكتبلنا مخرج واهو عيان بيسند على ميت.

في مقعدي بالدرجةِ الثانيةِ جلست وأنا تراودني ذكرياتُ ثلاثِ سنواتٍ مضت حتى الآن،عمرٌ جديدٌ إن لَّم يكن هو عمري الحقيقي. شاهدت فيه الكثيرَ عرفت "ندى" واقتربت أكثرَ من "أبانوب" شعرت فيه الصدقَ.. عشقت كنيسةَ الدوبارة، وحاولَ"خالد" لمسَ مُؤخِّرتي ذاتَ يومٍ في المكتبِ قبلَ أن أصفعَه في صمتٍ فخرج إلى الحجرةِ الأخرى وأكمل يومَه بطريقةٍ عاديةٍ وكأنَّ شيئاً لم يكن.. لا أريد أنْ أقضيَ ساعاتِ القطارِ في الذكرياتِ التي تُحزِنُني.. أخرجت كتاباً اعطته لي "ندى"هديةً بعد أن عرفَتْ أني أعشقُ"غسان كنفاني" فجاءت لي برسائله إلى "غادة السمان".

تُهت بين سطورِ الكتابِ، إحساسُ"غسان" لم يكن يُقاومُ على الإطلاقِ حتى لو كانت الحبيبةُ هي "غادة السمان".

تعجبتُ من أوَّلِ رسالةٍ بل في الحقيقةِ لم ترُقْ لي.. قرأتُ عن "غسان" وقرأتُ له وعرفت نضالَه وقصةَ حبِّه لكنني لم أقرأ تفاصيلَ تلك القصةِ.. لم أعرف ماذا كتب هذا الرجلُ حينما عشقَ..! لذلك صدمني أن تكونَ أولَ رسائله:" إنني أحبك إلى حدٍّ أستطيع أنْ أغيبَ فيه بالصورةِ التي تشائين إذا كنتِ تعتقدين أنَّ هذا الغيابَ سيجعلُك أكثرَ سعادةً".. ما هذا الهراءُ؟.. كيف يكون الغيابُ سبباً للسعادة؟.. أرفض تلك المبرراتِ.. ذكَّرني بـ"نزار" حين قال: "أسألُك الرحيلَ لخيرِ هذا الحبِّ..!" وأي خيرٍ

في الرحيلِ وكيف يمكن أن تكونَ السعادةُ في عدمِ رؤيةِ من نحبهم.. عدمِ لمسِ أيديهم والشعورِ بسخونةِ شفاهِهم ودفءِ أحضانهم، ثم أيُّ غيابٍ هذا الذي يمكن أن يرتضيه أحدٌ..؟!

أمرٌ آخرُ استفزني في مقدمةِ "غادة السمان" وهي تقول:"كان أحبَّ رجالي إليَّ وأحدَ الأنقياءِ بينهم..!" وكيف يمكنُ أن تقولَ ذلك..ولكن تشفعلها صراحتَها ويقبِّحُها ما قالته، فَ"غسان" الذي أفنى عمرَه يحبها قالت: إنه ضمنُ رجالِها حتى ولو أشادت به لكنها لم تذكره وحدَه..بل كتبت أيضًا أن هناك رجالًا آخرين جمعت بين أسامِيهم واسمه.

مازالت الورقةُ التي أرسلها الرجلُ المجهولُ تعبثُ بعقلي بطريقةٍ أشبهَ بالسحر، ماذا سيحدث إذ لم أقرأ الجواب..؟! لن يحدثَ شيءٌ،إذن: لماذا احتفظتُ به..؟ ثم أعاود الكرَّةَ.. وماذا يضيرُني إن قرأتُه..؟ لم أشعر بنفسي إلا والجوابُ في يدي..! وقبلَ أن أقرأَه شممتُ الورقَ مازالَ العطرُ باقياً، رجلٌ يفهم في الذوقِ ويعلم أنَّ الجوابَ بدونِ عطرٍ حرامٌ، ترك لي شيئاً من أثرِه؛فإن ذهبت كلماتُه بقى عطره، بدأتُ بعد ذلك في قراءةِ الجوابِ الذي كُتبَ على ورقٍ أبيضَ دونَ أسطرٍ تُقاطعُ لونَ الحبرِ.

- أيتها العزيزةُ الغاليةُ صاحبةُ الشعرِ الكيرلي.

أكتبُ اليكِ بعد أنْ ادَّخرتُ كلماتي تلك لسنواتٍ طويلةٍ.. أُهديكِ إياهامكتوبةً على الورق، الورقة يا صديقتي طاهرةٌ بيضاءُ وأمينةٌ نرسم عليها مشاعرَنا لننقلَها لمن نحبُّ، فتنقلُها بكلِّ إخلاصٍ محتفظةً بكلِّ شيءٍ، لذلك لم أخُنْها أبدًا ، ظللتُ محتفظاً بها لكي أُهديَها لمن يستحقُّها..! وأنتِ تستحقين ذلك.. أنتِ التي هبطتِ عليّ كما هبط الناموسُ على "عيسي ابن مريم" وقتَها فقط أدركتُ أنه لا مناصَ وأنك تستحقين الكتابةَ وطهارةَ الورقةِ وإخلاصَ كاتبِها؛فلم أتردد ولم أشغل نفسي بمن تكوني..! فقط اكتفيتُ بتلك الصورةِ التي رأيتُك فيها .

لا أعرف من أين أبدأ حديثي وأيُّ حقٍّ هذا الذي جلبتُه لنفسِي وأنا أخطُّ سطورَ هذا الجوابِ لامرأةٍ لا أعرفها، أدرك أنكِ الآن لا تفكرين في شيءٍ سوي: مَن هذا الرجلُ الذي يكتب، ولماذا، وهل هناك أحدٌ يكتب الجواباتِ، وهل هناكَ مَن لم يزل يُجيدُ كتابتَها..؟! دعكِ من كلِّ تلك الأسئلةِ.. ماذا يُضيرُكِ اسمي، لا تفكري في شكلي..فربما أُخيّبُ ظنَّكِ إن رأيتُكِ يومًا ما..! واعلمي أنَّ من كتب لكِ تلك الكلماتِ هو إنسانٌ عاديٌّ يأكلُ ويمرض ويموت، أقول ذلك تحسُّبًا أن تضعيني في صورةِ المسيحِ، لن

أكونَ مراوغًا معكِ وسأجيبُك على كلِّ شيءٍ، كلُّ ما في الأمرِ أنني ما رأيت أحداً مثلك قط، أنا أعي ما أقول..!وأُدركُه جيدًا ولا أعرفُ تبعاتِه وهذا سرُّ كتابتي للجواب.

رأيتُك الأسبوعَ الماضي جالسةً في حضرةِ اللهِ، وشفتاكِ تتحركانِ.. تعلو وتهبطُ هامسةً تطلبين عفوه.. أضواءُ الكنيسةِ تحاوطُكِ وفمُكِ يعزفُ مُعلنًا بدايةَ كلمةٍ جديدةٍ، كلُّ شيءٍ في تلك الساعةِ جعلك امرأةً مختلفةً في لحظةٍ استثنائيةٍ حتي أنني شككت:إن كنتِ تقربين للسيدة "مريم"أو أنكِ تربطُكِ بها صلةٌ، أنتِ لا تُعقلِين.. مستعصيةٌ على فهمِ بشرٍ مثلي، شعرُك المتناثرُ حول رأسكِ يُخفي أعينَك عن الناسِ ويُخفي الناسَ عنك هو أمرٌ اشبهُ بلوحةٍ في زمنٍ رومانيٍّ، وقتَها لم أتمالك سوى الحملقةِ فيكِ، فتحِ الفمِ وتثبيتِ العينين، لم أرَسوى بلوزتك البيضاءِ حتى قمتِ وخرجتِ من المكان .

رأيتُك فوجدتُ أنّه من العارِ أن لّا أستخدمَ الورقَ، ومن قلةِ الذوقِ أن أبخلَ به عليكِ وأنتِ..أنتِ التي ما رأيتُ مثلها، لذلك قمتُ بتلك المخاطرةِ، فلستُ قليلَ الذوقِ أو بخيلًا، بل كتبتُ لك الجوابَ واحتفظتُ بكلِّ القواعدِ؛ فهو معطَّرٌإذا شممتِ رائحتَه مزيَّلٌ ببيتِ شعرٍ كما ستقرئين .

ماذا أريدُ..؟لا أريد شيئًا.. فقط أُخبرِكِ أنكِ تستحقينَ كلَّ شيءٍ أفضلَ، وإنَّ قلبي ربما خفق لكِ فمازالت آلامُ نبضاتِه التي تسارعت بمجردِ رؤيتِكِ تُؤلمُني حتى الآن.

قرأتُ الجوابَ مرةً ثانيةً وكأني أُلقي عليه النظرةَ الأخيرةَ، بعضُ الكلماتِ استوقفتني، العزيزةُ الغاليةِ، الشعرُ الكيرلي، أضواءُ الكنيسةِ.. كيف له أن يتذكرَ كلَّ ذلك في بضعِ لحظاتٍ ويستطيعَ أن يصفَ هذا المشهدَ وكيف لم ألاحظه..؟ فلسفتُه عن الورقةِ وطهارتها أشياءُ كثيرةٌ لم أستطع التخلصَ منها حتي لو أغلقت الجوابَ مرةً أخرى دون اكتراثٍ ووضعته في حقيبتي، لا أعي لماذا لم أمزقْه، فهل أصابني سهمُ ذلك الرجلِ المجهولِ أم أردت أن أحتفظَ بكلماته فقط، فالمرأةُ لا تفرِّطُ في كلماتِ عشقٍ حتى ولو خرجت من رجلٍ كاذبٍ..؟

تعلن صافرةُ القطارِ أقترابَ الوصولِ إلى مدينةِ "أبو قرقاص" تبدوا بغيطانها الممتدةِ ونخلاتها العاليةِ من بعيد، نسمتُها الباردةُ في الليل تسللت إليّ، أبدأ في لملمةِ أشيائي..أُخرج سيجارةً قبلَ أن يتوقفَ القطارُ بعشرِ دقائق..لا مجال لأنثي تُدخنُ علنًا حتى لو كان الجميعُ يعرف، تقاليدُ اعتدتُ أن أتقبلها دون أن أفكرَ فيها، أشعلت السيجارةَ بعد أنْ رنَّ هاتفي.. والدي يخبرني أنه في انتظاري، نظرت

إلى علبةِ السجائر فلم يتبقَّي سوي سيجارتين أخفيتُهما داخلَ علبة المكياج .أبي كما هو بجلبابه الأسمرِ وشاربِه المهذبِ الذي غلبه اللونُ الأبيضُ، احتضنني بمجردِ أن رآني.. كم أعشقُ ذلك الحضنَ.. إحساسُ أنَّ هناك من يقدر على منحك الأمانَ، وبطريقةٍ اعتياديةٍ حمل حقيبةَ سفري .

علاقتي مع الحاج "عبداللاه" كما أحب أنْ أُطلقَ عليه مختلفةٌ. فأنا أكبر أبنائه،حلمُه الذي حلِمَه يومَ أنْ كان أعزبَ وسببُ زواجِه الرئيسيّ، هكذا قال لي لم أتزوج أُمَّكِ لأني أُحبها، بل تزوجتُها لأنجبَك فأنتِ حلميَ المنشودُ، رغم ذلك أراه يعشقُ أُمي العصبيةُ ولا يُغضبُها أبدًا ولو تكلَّف الأمرُ أن يقولَ لها أنا آسفٌ، أما معي فطفلٌ صغيرٌأُحبُّه وأُحبُّ وساطتَه دومًا بيني وبين أمي .

-أخيرًا إيه الغيبة ديه؟

- معلش يا بابا كان عندنا شغل كتير.

- وإيه لزمتها الشحططة يا بنتي؟

- هنرجع نعيده تاني.

- ربيع ابن عمتك سأل عليكي أكتر من مرة وعمتك بدأت تلقح بالكلام وتقول مش تقعد بدل الغربة اللى مش عارفين عنها حاجة.

- يا بابا ما أنت عارف عمتى مبتشبعش تلقيح ، دي لقحت على اخوها بعد ما مات.

- قولي بس أخبار ربيع إيه؟

- لسه خارج من الحبس امبارح.

- ليه عمل ايه؟

- مفيش كان بيأيد الجماعة إياهم بتوع الإخوان.

- ربيع المسيحي بيأيد الإخوان ثم يا حاج ده اشتراكي ودايما كان بينزل مظاهرات وأضّرب كتير جدًا والظباط عارفين كده.

- منا قلت للظابط كده أول ما، قلتله عمل إيه قالي بيأيد الإخوان قلت يا فندم ده انتوا عارفينه مسيحي وهيأيد الإخوان وهو كمان مع العيال بتوع الاشتراكية دول، راح قايلي إن الجماعة بتوع الاشتراكيين دول هما والإخوان واحد وكانوا بيمثلوا دور المعارضة واهي تمثيليه.

- وأنت عملت ايه؟

- قلت خلاص هما هيحققوا معاه ولو مفيش حاجة هيطلع يعني هما هيموتوه ثم يا بنتي دول اللي بيحمونا هيكدبوا ليه هيستفيدوا إيه يعني، ثم لو كان بيأيدهم يستاهل الحبس دول بيحاربونا يا بنتي بيحاربوا الشعب أنتي عارفة أم جرجس اللي جنبينا عملت إيه لما ابنها مات في سيناء زغردت وقالت في الجنة صحيح الضنا غالي بس هي البلد أهم.

أتعجب من تفكيرِ أبي الرافضِ لأيِّ شيءٍ يمسُّ الشرطةَ،فقد كان على استعدادٍ أن يقدِّمَ جميعَ أولادِه شهداءَ، ولا يقبل أن يتكلَّمَ أحدٌبكلمةِ غيرِ لائقةٍ في حقِّ الشرطةِ، لم يكن طالبَ شهرةٍ أومن هؤلاء المنافقين.. كنت عذرته لو كان منهم، ولكنَّ لإحساسه بالمسئولية ولحبِّه للبلد ونظرته الساذجةِ إلى هؤلاء الذين يظنُّ فيهم أنهم لا يخطئون طرفةَ عينٍ.. قال لي يوماً:

- دول يا بنتي اللي حامينا وقت الجد محدش هينفعنا ولا ابني اللى جمبي ده !

-المهم دلوقتي هنعمل ايه مع امك؟

- مالها؟

- مضايقة وحالفة تقعدي ومتسافريش تاني.

- والحل؟

- مش عارف بقى دي مشكلتك بصي أدخلي عليها بكلام حلو ووحشتيني وبلاش ضربة البوز واستحملي كلامها وبينلها انك كمان زهقانة من الغربة وإن الرجوع قريب صحيح هتبقى عارفة إنك كدابة لكن مش هتقدر تزعل منك.

تقودني خطايَ إلى البيتِ القديم..ذكريات تخرج فجأةً بمجرد أن ظهر من بعيدٍ.. تغير كثيرًا بعد أن قام أبي بتجديدِه بعد جمعيةٍ استمرت عشرةَ أشهرٍ.. لكنه يبقى كما هو شاهدًا عليّ.. سنين عمري التي قضيتُها بين تلك الجدرانِ.. خطواتٌ تفصلني عن بابِ البيتِ.. نظرتُ إلى أبي وضحكت فضحكَ هو الآخرُ..ضحكُنَا له مغزى..!فبعد أن رفض أن يصلحَ الدرجةَ الثانيةَ من سُلَّمِ البيت.. الدرجةُ التي جعلتني أذهبُ إلى المشفى وأمكثُ ٢٠ يومًا في البيت بعد أن تم تجبيسُ قدمي وأنا في سنِّ الرابعةِ بعد سقوطي بسببِها .

قال "عبداللاه" مازحًا:

- علشان دايمًا تفتكريها ، ورغم الذكرى السيئة إلا إني أحب تلك الدرجة .. أول درس لي في الحياة أن لا آمن لأحد حتى لو كان سلم بيتي!

لم تعطني أُمِّي فرصةَ أنْ أطرقَ البابَ حتى فتحته بمجردِ أن شعرت بنا بنظراتٍ متحفِّظةٍ وعينٍ تشتاقُ وقلبٍ اطمأنَّ للتوِّ..جسدٌ نحيلٌ داخلَ جلبابِ أحمرَ ترتديه"رابحة" التي اشتقت إليها،التقت العينانِ وكلانا يحمل حنيناً جارفاً لم أستطع مقاومتَه؛ فارتميتُ في حضنها وكأني أدركت أني أشتاقُ لذلك الحضنِ، صمتت أمي في حضرةِ تلك اللحظةِ النادرةِ وإن لَّم يخلُ الأمرُ من شكٍّ، لم أدعْ لها الفرصة حتى بادرتُها:

- وحشتيني يا امي.

- وانتي كمان طمنيني عليك.

- بخير الحمد لله طول ما انتوا كويسين.

- ولحد امتي وجع القلب ده؟

- هانت يا ماما.

تعجبتْ الردَّ..كم مرةٍ قالت تلك الكلمةَ وكان ردِّي أني أُحققُ حلمي في القاهرة..! اليومَ فقط قلتُ لها هانت، هل كنتُ أقصد الكلمةَ فعلًا أم انها جزءٌ من الخطةِ مع أبي لتهدأَ روعةُ تلك المرأةِ المتوترةِ دائمًا.. قطع هذا العتابَ صوتُ أخي "مالك" كبِرَ كثيرًا عن آخرِ مرةٍ.. هكذا همُ الأولادُ في سنِّ المراهقةِ..اليومُ يفرقُ عن الآخر، لاحظت ملامحَ شاربٍ يرتسم على وجهِه وصوتَه بدأ في الإخشوشان..! "مالك" الذي كنت أحمله صغيرًا وأُغيِّرُ ملابسَه كبِرَ الآن..! بل أصبح يأبَى أن يحتضنَ أُختَه لولا قولي:

- هتعمل راجل عليا يا واد ده انا شيلتك وانت لسه عيل.

أفرح به كثيرًا، فهو سندٌ لأبي ورجلٌ لأمي في غيابه بجانبِ"سالي" أختي الصغيرةُ صاحبةُ العشرين عامًا المهووسةُ بمشاهيرِ الفنِّ وبالقاهرةِ التي تريد أن تزورَ كلَّ سينما ومول ونايت كلب فيها.. لهذا السببِ رفضت أن أصطحِبَها معي، ولكنها كالعادة دخلت عليّ وهي مبتسمةٌ تُحدِثُ ضجيجها المعتادَ بصوتِها

العالي، وتشدُّني: تعالَي هوريكي الفستان اللى جبته» ثم تهمس في أذني «وجبتلك قميص نوم تحفة والمسيح هتتهبلي اصلًا».

- يا بنتي سيبي أختك جاية من السفر تعبانة.

- يا ماما وحشاني هقعد معاها شوية بس.

لم تقدر أمي على "سالي".. في الحقيقةِ لا أحدَ يقدرُ عليها حتي أنا..فاستسلمتُ وجلستُ معها خمسَ دقائقَ كانت كافيةً أن أستأذنَ لأنام، ألحَّتْ أُمي أن أتناولَ أيَّ طعامٍ،ولكن لم يعد في الصحةِ بقيةٌلهذا اليوم، دخلت حجرتي دون أن أُقرِئَها السلامَ،واستلقيتُ على سريري ونمت.

❋ ❋ ❋

" أولئك الذين أتوا من بعيد كي يعيشوا، فماتوا من فرط ما تاقوا للعيش "

غسان كنفاني

(الأمانُ المفقود)

غادة دومًا هكذا.. على استعدادٍ أن تُقيمَ الدنيا ولا تُقعِدُها على أيِّ شيءٍ بسيطٍ..أعتبره قلةَ خبرةٍ ليس أكثرَ.. ربما سيأتي اليومُ الذي تُدركُ فيه أنه لا أحدَ يستحقُّ أن تُقومَ الدنيا من أجلِه.. الدنيا أصلًا لا تستحق أنْ نعطيها أكثرَ من حجمِها.. إنها رخيصةٌ جدًا لولا أنَّ الإنسانَ يعشقُ اللهثَ وراء اللاقيمةِ، لا أقولُ ذلك من بابِ الزهدِ..! لكنها الحقيقةُ التي لا يدركُها أحدٌ أو ربما لا يريدُ أحدٌ أن يدركَها.

الإنسانُ نفسُه بلا قيمة حقيقيةٍ، أسألُ نفسي هل هذا أحسنُ تقويمٍ..! أقرأ القرآنَ وأُومنُ به وأصدِّقُ كلامَ اللهِ ولكنَّ تلك النقطةَ بالتحديدِ كثيراً ما أقفُ عندها "أحسن تقويم" كلُّ المنافقين والكذابين والقتلةِ والمُتاجرين بالأرواحِ ومغتصبي الأطفالِ هم إنسٌ، ربما يقصد اللهُ أناساً آخرين..! يعود فكري إلى أنَّ أوَّلاثنين من جنسِ البشرِأحدُهما قاتلٌ، يتوه فكرى فأترك كلَّ هذا ورائي مقتنعةً أنَّ هناك حلقةً مفقودةً دومًا .

منذ ثلاثِ سنواتٍ جاءني "أبانوب" يطلب مني مكاناً لإحدى معارفَه في البلد، كنت للتوِّ حصلتُ على شقةٍ صغيرةٍ - أوضة وصالة - في"بولاق الدكرور" اعتدتُ على العيشِ وحدي،ولكنَّ نظراتِ"أبانوب" الذي لا تربطني به علاقةٌ قويةٌ -فقط عرفتَه لأننا في المجالِ الحقوقي معًا-ما جعلني أدركُ أنَّ هناك أزمةً لو رفضتُ..ولذلك قبلتُ..! البشرُأصنافُهم كثيرةٌ..التجربةُ وحدها هي من تكشفُهم.. منذ جئتُ إلى القاهرةِعرفت فتياتٍ كثيرةً ورأيتُ أنواعَاً أكثرَ، كبناتِ الأقاليمِ اللائي جِئنَ باحِثاتٍ عن أحلامهنَّ في العمل، وآخرياتٍ جاءوا من أجلِ الشهرةِ.. إذ تبدوا العاصمةُ صكَّ النجاحِ في بلدٍ مركزيٍّ، رأيتُ مَن تكذبُ على أُمِّها وأبيها، ومَن أصبح الليلُ هو موعدَ نزولِها من البيت.. بعضُهنَّ يُغلقُ البابَ منذ الثامنةِ مساءً خوفًا من اللصوصِ.. الصادقاتُ والكاذباتُ.. الخائناتُ والساذجاتُ.. المشهدُ يبدو لي بُؤسًا ليس أكثرَ، لا واحدةَ فيهنَّ تعيش كما هي.. لا واحدةَ فيهنَّ لها قِيَمٌ خاصةٌ تحافظُ عليها.. جميعُهنَّ في انتظارِ فعلِ كلِّ ما هو سيءٌ بعيدًا عن الأعينِ.. ذكَّرني هذا بالإنسانِ العربيِّ حين تطأُ قدمُه أرضَ دولةٍ غربيةٍ يبحث فورًا عن الخمرِ والنساءِ كأن اللهَ لن يراه..سخفاءُ هم البشر.

غادة.. رأيتُها مختلفةً.. هي قويةٌ أنْ تفعلَ ما تريدُ دونَ أن تُخطيءَ، صريحةٌ مع أهلِها ربما يعودُ الفضلُ إلى الحاجّ"عبداللاه" الذي حكت لي كثيرًا عنه، كيف هورائعٌ نموذجاً لأبٍ..تعجبتُ أنَّ هناك في الصعيدِ مَن هو مثلُه، سمعت قصصَ قبل ذلك: أنهم يمنعون بناتِهم من التحدثِ حتى مع أقاربِهم وبعلاقتِها مع"ربيع" ابن عمِها.. أدركتُ أنه أبٌ يملك رحمةَ المسيحِ وحنانَ"البتول"..!

حين التقيتُها أولَ مرةٍ كان يبدوا عليها خوفٌ شديدٌ دارته بقوةٍ وعنفٍ ظهرفي عينيها.. سلوكٌ طبيعيٌّ لبنتٍ قادمةٍ من صعيدِ مصرَرغم أنها درست في جامعةِ القاهرةِ،ولكنْ لا يبدوا ذلك أمرًا مؤثرًا فيها، زاد الأمرُ أنها أرملةٌ يعني أنَّ أيَّ حركةٍ محسوبةٌ.. لا تُفضِّلُ غادةُ أنْ تتحدثَ كونَها أرملةً أو آنسةً فقط اسمُها ليس أكثرَ.. قليليون من يعرفون أنها كانت متزوجةً، شعرتُأني المسئولةُ عنها من أولِ لحظة.

منذ أن انفصل أبي عن أمي وأنا في الإعدادية تعلمتُ الكثيرَ من الأشياء، أمي لم تكن بالمرأةِ الضعيفة، اسكندرانيةٌ قويةٌ جدًا، استمرت في عملِها في التدريسِ ترفع رأسَها وتسهرفي بعضِ الأوقاتِ إن كان هناك مناسباتٌ، ضربتْ بكلِّ التعاليمِ عرضَ الحائطِ وعلمتني أنَّ أعظمَ نعمةٍ هي أن أعيشَ كما أنا بذنوبي وسيئآتي دون النظرِإلى الناسِ الذين سيتحدثون في كافةِ الأحوال.

درست علمَ الاجتماعِ بكليةِ الآدابِ وعملت في أكثرَمن مكانٍ بدايةً من مقدمةِ مشروباتٍ في كافيه بِ"سيدي بشر" إلى تصميمِ بوستراتٍ في شركةِ ديزاين، ووسط ذلك كلِّه انخرط في المظاهراتِ بعد "ثورة يناير" وأصبحت متواجدةً في كلِّ حدثٍ في الجامعةِ، ذلك سببُ ترشيحي للعملِ في مجالِ الدفاعِ عن حقوقِ المرأةِ التي لم أعرف عنها شيئًا حين عملتُ فيها، فقط كنت أُطبقُ ما قالته أُمي أعيش كما أنا، وهكذا أصبحت "ندى" صديقة "غادة".

خبرةُ العملِ والمظاهراتُ زادتني ثقةً وثباتًا ، لم أعد أتعجبُ من أيِّ شيءٍ تعرضتُ لسخافاتِ الرجالِ كثيرًا، حتى إنَّ "خالد" حاول التحرشَ بي أثناءَ زيارتي إلى "غادة" كعادته لمس مؤخرتي أثناءَ خروجي من حجرتِها، التفتُّ إليه..ووجهت له الضربةَ بينَ رجليه؛ فخرَّ أمامي لِأُكمِلَ عليه ببصقةٍ وأكملتُ جلستي مع غادة التي اندهشت من هذا.

يتكررهذا من حينٍ لآخرَ مع أشكالٍ مختلفةٍ ما أغضبني؛فقد فعل ذلك مع "غادة" التي رغم أنها صفعته لكنها هي من شعرت بالحرج، تصبَّبَ عرقُها وعلا الدمُ فاحمرَّ وجهُها حتى بعد ساعاتٍ حين حكت لي الموقفَ في ليلِ هذا اليوم .

أنا مسئولةٌ عن غادة.. عن إقناعِها أنَّ الأمانَ ليس الحبَّ الذي تبحثُ عنه فقط.. أن تكونَ قويةً، كنتُ أُعلِمُها كلَّ يومٍ ويؤسفُني أنني لم أُحقق نجاحًا ملحوظًا .

الآن.. هي ذاهبةٌ إلى "المنيا" أوقاتِ إجازتِها.. أشعر بفراغٍ رغم أنه لا يُزعجُني،لكنني أشعر بمدى افتقادي لها.. جاءتني اليومَ بوجهٍ غيرِ الوجهِ الذي اعتدته.. أعرفُها حين تُخفي شيئًا لكنَّه شيءٌ جيدٌ..بدأ ذلك من خلالِ غمازتِها التي ظهرت قليلًا، فقد كانت مقياسَ فرحتِها..ظهورُها يعني أنَّ قلبَها يُغنِّي..!

❋ ❋ ❋

أن تصحو فتجد أنك لم تفعل شيئاً وأن ليس ما تستطيع أن
تفعله.

غسان كنفاني

(هل يُعاقبني بريكليس. . ؟)

- بعتلها جواب ليه؟
- مش عارف حسيت إنها تستحق.
- تستحق إيه يا يوسف؟
- تستحق جوابي.
- فوق هو أنت يوسف إدريس وأنا مش واخد بالي، آدي دقني لو مقلتش عليك عيل مراهق.
- مش مهم أبقى حاجة المهم إني حسيت إني عاوز أكتبلها.
- موضوع الجوابات ده مرض يا ابني مش زي ما أنت فاكر.
- يا آخي أنت ربنا خلقك هادم لأي لذة.
- طيب تمارا اللي أنت معلقها.
- ودي عاوزه إيه كمان؟
- مفيش بقالك كام مبتكلمهاش وهي زعلانة.
- هو أنا قلتلها بحبك؟
- يوسف أنت عارف هي متعلقة بيك قد ايه فحتى لو مش هتكملوا يبقي بالذوق بلاش السخافة واللامبالاة بتوعك ثم مالها تمارا مش أول ما جيت كنت بتقول فيها شعر.
- مش عارف يا نادر ، كل الحكاية إني ببقى فعلا شايفهم من بره حلوين باب أول ما بفتحه مبلاقيش اللى انا عاوزه.
- حلاوة الناس عمرها ما كانت بالتجربة يعني أشوف ده هينفع أو لا ، حلاوتهم لما تقبلهم زي ما هما وقتها بس بتلاقي الحلاوة في ضحكة ليك مش لحد تاني، في سر ائتمنوك عليه، في نظرة عين فيها حنية الدنيا كلها هي دي الحلاوة اللى بجد.
- ماشي، بس أنت قلقان ليه دي في بلد وأنا في بلد تانية؟
- منا عارفك مش هتهدى إلا لما تروحلها ، انا هقوم انام.

- ماتنام هنا الأوضة واسعة، ولا خايف من كوابيسي؟

- بالظبط خايف من كواليسك.

يتركني "نادر" آوي إلى فراشي بعد أن أغلقَ اللاب توب، كعادتي أتركُ الإضاءةَ، لأغطَّ في نومٍ ينقطع بعد أولِ ساعةٍ، نفسُ المشهدِ يراودني من حينٍ لآخرَ، أمواجٌ تتلاطمُ وشفاهٌ تُتَمتم بالشهادتين، شابٌّ يصيح: انجديني يا عدرا..وآخر يصرخ:

- انقذني يا مسيح..

وثالثٌ يبدوا عليه الاستسلامُ بعينين مُستعدتان للرحيلِ بعد مشوارٍ قصيرٍ سائمةً، حتى إنه قرر الموتَ في أولِ فرصةٍ، وكان من الممكن أن يختصرَ المشهدَ على هذا قبلَ أن يستنجدَ بي "أحمد" ذو الوجهِ البشوش والملابسِ الرثّةِ:

- الحقني يا يوسف مبعرفش أعوم..

فأهّمُّ بمساعدتِه قبل أن تقذفَه موجةٌ تسحبُه بعيدًا وهو يصرخ:

- أبويا يا يوسف متنساش..

أنا لن أنسي أبا أحمد ولا وجهَه..هو الذي رافقْتُه طوالَ خمسَ عشرةَ ساعة.

مشكلتُهم الموتُ ومشكلتي الحياةُ..أستطيع أنْ أواجهَ تلك الأمواجَ، بل في الحقيقةِ إنها لُعبتِي المفضلةُ منذ الصغرِ أُلاعبُها..أتحداها..وأغوص في أعماقها، داعبتُ كلَّ الشواطيءِ حين كنتُ فتىً لم أبلغِ العشرين، في البحرِ الأحمرِ كنت سأغرقُ وفي البحرِ الأبيضِ أخرجوني مرتين قبل أنْ أُفارقَ الحياةَ، ولكنَّ تلك المرةَ لا أُريد أنْ أواجه، أردت أن أترك يدي لعلِّي أنجو من موتٍ ما بعدَ الحياةِ، ولكني فشِلتُ في ألَّا أموتَ.. أن تسبح يدي رغمًا عني ليلتقطني رجلٌ أشقرُ فأستلقي على ذراعِه وأنقطعُ عن العالم .

أستيقظ مفزوعًا أُتمتمُ باسمِ المسيحِ، صوتُ فزعتي تلك المرةَعالٍ.. تسببت في قلقِ نادرٍ..فتح البابَ ورمقني بنظرةٍ عرفَ من خلالِها أنه نفسُ الكابوسِ قبل أن يُغلقَ البابَ دون أن ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ.

ثلاثُ سنواتٍ منذ جاءني ذلك الكابوس لأولِ مرةٍ في حجرةٍ تغطيها الستائرُ البيضاءُ في إحدى مستشفياتِ"اليونان" التي لم أعرف اسمها، ممرضةٌ تجوبُ الحجرةَ ذهابًا وإيابًا ترتبها..اتَّضحت صورتُها

بعد ثوانٍ وأزعجها صوتُ حركتي فانتبهت لي تعلو وجهَها إبتسامةٌ رسميةٌ قبل أنْ أنطِقَ بصوتٍ متحشرجٍ:

- كم واحد مات ؟

- أدركت في لحظة من لكنتي إنني مصري فردت : نشكر الرب أنك لسه حي.

رمقتها بنظرة فهمت مغزاها فاستطردت:

- داليا أصلي مصري وأتولدت في اليونان لكن بزور أسكندرية كل سنة وبكلم عربي كويس.

ملامح وجهي لم تتغير سوى بنظرة سخرية أخمد اعتزازها بتلك اللغة:

- بس أنت مقلتش يعني أول ما صحيت أنت فين؟

- واحد كان هيموت وصحى في اوضة فيها سرير وواحدة لابسه أبيض هيكون فين يعني ، كام واحد مات.

- ٧٠ ماتوا و٤٠ لسه في المستشفيات والباقي مش عارفين هما فين هو ده اللي اتنشر في الجرايد.

- واحمد..احمد عبدالحفيظ مات؟

- معرفش بس أشمعنى ..في ناس كتير ماتت ، دلوقتي هيدخل البوليس يحقق معاك لو حسيت أنك تعبان قول وهما هيوقفوا التحقيق، دي السفارة المصرية مقلوبة علشانكم.

- ما هي بتتقلب دايما لما بنموت غير كده كله عادي ، وهيحققوا معانا ليه؟

- طبعا لازم يحققوا ازاي جيتو ومين اللى جابكم – وقتها أنقبض قلبي غير أن في ناس هيتحروا عنكم لا تكونوا مطلوبين دوليًا بس متقلقش محدش هيتحرى عنك المسيح هيحميك!

- آنسة ...

- داليا.

- هو بعد كده إيه اللى هيحصل؟

- لو مفيش حاجة هتترحل متقلقش.

- اترحل ! بس انا مش عاوز ارجع.

- قد كده العيشة صعبة، طبعا ما اللي يرمي نفسه في الموت أكيد شاف الويل.

- لم اشأ أن أخبرها أن كل ذلك كذب..أني أعيش في قصر في مصر، فضلت أن تكون تلك صورتي لعلي أنجو بمساعدتها.

- تقدري تساعديني؟

- إزاي؟

- تهربيني من هنا.

لم يستغرقِ الأمرُ لحظاتٍ حتى وافقت..

- بخلص شغل الساعة ١٢ هجبلك لبس عادي تلبسه ونخرج كأننا بنتمشي وبعديها هتنط سور صغير هتقدر؟

- هقدر بس غريبة انك حافظة الخطة أنت عملتها قبل كده؟

- مع شباب كتير كانوا مكانك.

- ومفيش أي ضرر عليكي؟

- ضرر أيه المستشفي هنا بتعتبركم تهمة عاوزين يخلصوا منكم.

قطع حديثَنا طرقُ البابِ قبلَ أن يدخلَ أحدُ المحققين ومعه أحدُ موظَّفِي السفارةِ المصرية، أسئلةٌ روتينيةٌ ومرت دقيقتانِ كذبت فيها في كلِّ أجوبتي قبل أنْ أشعرَ بالتعبِ وأضغطَ على الزرِّ.. تدخل "داليا" وتطلب من المحققين المغادَرةَ لعدمِ استعدادِ المريضِ للتحقيقِ، فخرجوا وكانت وراءَهم.

أُريح رأسي على الوسادةِ لأخذِ قسطٍ من النومِ بعد أن شعرت بالمرضِ فعلًا لا ادِّعاءً كما ظنَّت "داليا" فلم أُفكِّر كثيرًا في الكابوس.. وجهُ "أحمد" وهو يناديني أن لَّا أنسى أباه..هي هلاوسُ لا أكثرَ أو ربما لفظاعةِ الحدثِ، لم أفكر حتى: ماذا سأفعلُ.. طردتُ كلَّ الأفكارِ من رأسي قبل أنْ أشعرَ بوخزةٍ بسيطةٍ من "داليا".

ثمان ساعاتٍ مرت منذ غادرت الحجرةَ.. أحضرت لي الملابسَ وسرنا معًا.. ملامحُها المطمئنةُ وخطواتُها الواثقةُ وابتسامتُها للجميعِ كلُّ ذلك يُثير الشكَّ لديَّ..! كيف جاءت بتلك البرودةِ وهي تقومِ بتهريبِ مريضٍ..؟! لم أخُض في أسئلةٍ لا تنفعُني في شيءٍ..فبعد دقائقَ سأتركُها إن نجحت خطتُها.. وصلنا

إلى البابِ، عند البوابةِ الرئيسيةِ.. تكلم الحارسُ فردت عليه..لغةٌ لم أفقه فيها شيئًا لذلك لم أُعِر الأمرَ انتباهًا قبل أنْ تأخذَني إلى حديقةٍ مظلمةٍ أمام سورٍ.. أُدرك جيدًا أنها الخطوةُ الأخيرةُ..!

-شكرًا يا داليا معروفك في رقبتي.

- ملهوش لزوم الكلام ده شكلك ابن ناس مش حمل بهدلة ناوي على ايه؟

- مش عارف.

- طب عموما حاول متقعدش في البلد دي كتير من غير أي هوية هنا مشددين على الموضوع ده يعني لازم تسيب اليونان في اقرب وقت.

- حاضر.

- دول ١٠٠ دولار يمكن ينفعوك.

بتردد أخذت المال منها..

- القادم مجهول ولا مكان للخجل في تلك الأوقات.

تركتُها دون أنْ أجدَ ما يكفي من الشكر، خرجتُ إلى الشوارعِ.. اليونانُ تنام ليلًا.. هادئةً إلا من الأنوارِ، عرفتُ بعد أن خرجتُ أني في "أثينا" العاصمة، سخرتُ من نفسي وأنا أحلمُ بزيارةِ تلك المدينةِ ودخولِ معابدِها الإغريقيةِ.. حلُمتُ أن أدخلَها سائحًا لا ميتًا، لم يمنعني من التأخيرِ سوى أني أحببت "أسبانيا" أكثر فزرتُها أولًا، ثم "إيطاليا" وهكذا حتى أصبحتِ "اليونان" آخرَ اهتماماتي، أتوقُ إلي زيارتها وأُأجِّلُها دائمًا، لكنني زرتها رغمًا عني في الوقتِ الذي حدَّدَتْه هي وبالطريقةِ التي أرادتها.. هل كانت "اليونان" غاضبةً مني لتلك الدرجةِ..؟!هل أمرَهم "بريكليس" أن يأتوا بهذا المتكبِّرِ حيًا حتى يعلمَ أنَّ "اليونانَ" تُنتظَرُ ولا تَنتظِرُ..!

ثلاثُ ساعاتٍ وأنا أتجوَّلُ في شوارعِ المدينةِ العتيقةِ.. تماثيلُها تُحيطُني من كلِّ ناحيةٍ.. المَحالُّ مغلقةٌ ماعدا محِلَّاً صغيراً في شارعٍ خلفيٍّ، ذهبت إليه بعد أنْ قرصتني معدتي من الجوعِ، طلبتُ ساندوتش لم أذكر نوعَه ولم أتفوَّه بكلمةٍ.. فقط أشرتُ لِمَا أريد، واحترم البائعُ صمتي بعد أن أعطيتُه ثمنَه لأُكمِلَ رحلتي أُفكرُ فيما حدث، حتى الآن لم أواجه نفسه.. لم أفتح البابَ الذي أريد أنْ أفتحَه، يُباغتُني كلَّ

دقيقةٍ لكني أحاولُ إسكاتَ عقلي رغم مقاومتِه بكلِّ قوةٍ، معركةٌ داخليةٌ أُدركُ جيدًا خسارتي فيها لذلك فضلتُ الهروب.

أمامَ بيتٍ أضواؤه خافتةٌ لا يخرج منه أيُّ صوتٍ، جلستُ أُريحُ جسدي المُنهكَ مُحكِمًا جاكيت لا أعلمُ مَن أحضره بعد أن فقدتُ كلَّ شيءٍ في البحر، ورُحتُ في نومٍ لم أُفق منه إلا بوخزةٍ بسيطةٍ حينَ سمعتُ تمتماتٍ باليونانيةِ لم أفهمها حتى بعد أنْ فتحت عيني لأرى رجلاً في العقدِ الخامسِ من عمرهِ يحاولُ بشعرِه الأبيضِ أن يُداري ما فقده في منتصف رأسه.

Can you speak English?

Yes

What are you doing here?

I am sorry but I am broke>

What is your nationality?

I am Egyptian.

بعد لحظاتٍ تفحَّصني فيها والتقط الصليبَ الذي يتدلَّى في عُنقي أكمل:

Okay you can sleep here this night.

قضيتُ ليلتي في هذا البيتِ، لم يسألْني الرجلُ عن أيِّ شيءٍ.. ملامحُ التعبِ التي كست وجهي أدَّتْ دورَها المطلوبَ في أنْ تُنْجيَني من أيِّ تحقيقٍ قبل أنْ أستيقظَ على إفطارٍ ورجلٍ أَسْدَى لي معروفًا .

WHO are you?

سردت قصتي بدايةً من المركبِ الغارقِ التي انطلقت بي قبل أسبوعٍ من الآنَ، الغرقَى وهم يتشبثون بالحياة، نجاتي التى أكرهُها، داليا، هروبي من المشفى .

I am dalas

اكتفى بأن يقولَ اسمَه فقط مع ابتسامةٍ خفيفةٍ بعد أن استمع إلى قصتي التي لم يتعاطف معها كثيرًا، ربما لكثرةِ سماعِها من الناجين من الموت، همّ من مقعدِه موجِّهًا سؤالَه لي:

What is your career?

رددت: engineering

تفحصني مرة أخرى لدقائق قبل أن يتوجه إلى «كاتل» الشاي لتحضير كوبين دون أخذ رأي

I have work for you

تسمرت في مكاني..لم أفكر حتى الآنَ ماذا سأفعل إلى أين أذهبُ، اتخذتُ قراري أن لّا أعودَ إلى مصر فقط لكني لم أعرف ماذا بعد..! لم تمهلني الحوادثُ أن أُقرّرَ، صوتُ إغلاقِ الـ"كاتل"أعادني من شرودي، لن أستطيعَ أن أعيشَ في "اليونان".. أنا بلا هويةٍ ومطلوبٌ من السفارة .

Not here, another country, new life, new beginning

بدأ الأمرُ يتَّخذُ موضعَ الجدِّ.. ملامحُ الاهتمام بدتْ على وجهي.."دالاس"يبخلُ بالمعلومات.. صيادٌ يعرف كيف يُغازلُ فريستَه ويجعلُها تُقبِلُ عليه بعيدًا عن أسلوبِ المطاردةِ..

Can you do this?

It is my job.

Which country?

United Arab Emirates.

نظراتُ الشكِّ أصبحت هي المسيطرةُ، "دالاس" لا يهزي، بل يُدركُ جيدًا ماذا سيفعلُ ولكنَّ السؤالَ الآنَ وما المقابلُ..؟ هل سيتاجرُ بي .. سأقابلُ أحمد جديداً..أنا لا أحمل أوراقاً ولا أملكُ دولارًا واحدًا.. هل أنا أمام نصَّابٍ..؟ قرأ "دالاس" كلَّ ذلك قبل أنْ يُجيبَ بكلمةٍ واحدةٍ

The half

Half all your money for a year!

نصفُ ما سآخذه في "الأمارات" طوالَ عامٍ سيكون من نصيبِ"دالاس" هكذا هو العقدُ..! وافقت بعد أن تعهَّدَ بأنَّ كلَّ الأوراقِ ستتم بصورتِها القانونيةِ.بطاقةِ هويةٍ جديدةٍ، وجوازِ سفري . والطائرةُ هي وسيلةُ الانتقال، فَبِتُّ مطمئنًا قليلًا.. أسبوعٌ واحدٌ كما وعدني لأبدأ حياتي الجديدةَ،أسبوعٌ سأقضيه في بيتِ"دالاس" واليونان، اتَّفقنا على كلِّ شيءٍ، قبل أنْ يهمَّ هو بالخروجِ من البيتِ مُشيراً لي على مكانِ

هاتفٍ قائلًا if you care ، رددتُها أكثرَ من مرةٍ if I care الأصحُّ: هل هناك مهتمٌ بما حدث لي، ومن هو ذا..؟ أمي..أبي..مندور،من هذا الغبيُّ الذي يهتم بشأني..؟!

قمتُ من مقعدي فورَ أن تذكرت أمي.. ستكون قلقةً،هذا أمرٌ لم يُساورني فيه شكٌّ لذلك أردت أن أطمئنَها،ولكنَّ العقبةَ الآنَآني لا أريد أن يعرفَ أحدٌ عني شيئًا، كيف أُطمئِنُ تلك المرأةَ التي طالما دعتِ الربَّ أن يحميَني، حتى أعطتني الصليبَ في أولَ يومٍ دراسيٍّ ليحرسَني ولم أتركه حتى الآن، فاهتديت إلى فكرةٍ ستمكِّنُني من هذا، قمت على إثرِها بطلبِ هاتفِ البيتِ.. دقائقُ حتى جاءَ صوتُ أمي مليئًا بالحزن، وبكلماتٍ تخرج متثاقلةً تسأل مَنِ المتصلُ..؟ يبدوا عليها الانكسارُ؛فأنا أعرفُها جيدًا حين تكون مشرقةً وحين تبهتُ..كدت أنهار.. حيثُ كنتُ سأخبرها أني "يوسف"..إني أشتاق إليها.. إلى لمسةِ يديها ودعوةِ"مريم العذراء" تمالكتُ نفسي.. ورددتُ عليها بعد أن غيَّرتُ نبرةَ صوتي مقدمًا نفسي باعتباري موظفاً في السفارةِ المصريةِ وبكلماتٍ مقتضبةٍ أخبرتها أنَّ ابنَها مازال حيًا ولكنَّ الاتِّصالَ ممنوعٌ، لم أعطِ نفسي فرصةَ أنْ أبقى أكثرَ من ذلك،وأغلقت الهاتفَ بعد أن سمعتُها تُتَمتمُ على الناحيةِ الأخرى:

- نشكرُ الربَّ.

أسبوعٌ من الآنَ..هل يمكن أن أستمتعَ باليونان وبيتِ"دالاس" الرجلِ اليونانيِّ الذي يعمل فى تشغيلِ آلافِ الهاربين من الموتِ مقابلَ نصفِ ما يأخذونه، هكذا سألتُ نفسي قبل أنْ أتفحَّصَ البيتَ.. صغيرٌوأنيقٌ وحضاريٌّ تمامًا مثل بيوتِ"أثينا" ذلك قبل أنْ أخرجَ منه لأعلمَأنه في ميدانِ"موناستيراكي".

"أثينا" الهادئةُ ليلًا تحولت إلى خليةِ نحلٍ لا يهدأُ فيها أحدٌ خاصةً في هذا الميدانِ القابعِ في وسطِ منطقةِ السوقِ القديم.. الحوانيتُ الصغيرةُ مازالت تُقاومُ زحفَ الحداثةِ.. أماكنُ البيعِ مكشوفةٌ كما هي منذ أنْ وقعت المدينةُ تحت الحكمِ التركيِّ.. في الشرقِ تَّطلُّ منطقةُ "بلاكا" كشاهدٍ على تاريخِ استقلالِ تلك المدينةِ وعلى نضالِها، تمامًا مثلي بعد أن أعلنت استقلالَ حياتي وإن كانتِ المسحةُ التركيةُ على المباني جعلتني أتأكدُ أن الماضي غيرُ قابلٍ للاخفاءِ، ربما نهادنُه بعضَ الوقتِ أو نتجنَّبُه لكنه يظلُّ قابعًا

يخرج لنا بين حينٍ وآخرَ كهذا المقهى الذي تتوسطُه لوحاتٌ تدلُّ على أن "أثينا" التي كانت أولَ المدنِ استقلالًا في التاريخِ خضعت ذاتَ يوم .

نصفُ ساعةٍ مرت قبلَ أن أصلَ إلى ميدان "أمونيا" أو "الكنكورد" قرأتُ كثيرًا عنه لكنَّني لم أتخيَّل أن يكونَ الأمرُ هكذا، مطاعمُ الوجباتِ السريعةِ والسياراتُ التي تجوبُ الشوارعَ تتداخل مع جبلِ"ليكابتس" في الشرقِ بينما يقف "تلُّ اكروبولس" الكبيرُ من الناحيةِ الجنوبيةِ متحسِّرًا على سلطانِه الذي سلبه منه اليونانيون الجددُ وعلى هجرِهم له، وإن كان يجد في بقاءِ ١٦ عموداً من هيكل "زيوس" كبيرِ آلهةِ الإغريقِ عزاءً له خاصةً حين يأتون ليطلبوا منه العونَحتي تلك اللحظة.

شعرتُ بأني أنا الآخر أحتاج إلى عونِ"زيوس"فلم أتردَّد أن أقفَ أمامه:

- أعلم أنك تُعينُ المساكين من اليونانيين؛فإنهم يقولون عنك كريمٌ وتشعرُ بآلامِهم ولا تبخلُ عليهم بالعونِ لذلك أعنّي على ما أنا قادمٌ عليه، لا أناديك بصفتِك إلهًا أو تمثالًا أو حتى قائدًا لتلك البلدةِ بل أناديك لأنَّ"أثينا" لن تُخلِّدَ إلا من يستحقُّ..!

أطلالُ"أثينا" ترفض أن تتوارى، تنفضُ الغبارَعنها دومًا.. أكملت التسكُّعَ داخل هذا الميدانِ اتطلَّع إلى مبانيه الإغريقيةِ القديمةِ فهنا المعابدُ التي بُنيت.. وهناك بقايا سورٍ قديمٍ وأسوارٌأخرى تحيطه على شكلِ نصفِ دائرةٍ كأنها تحميه من كلِّ متربصٍ بها، قرأت عن تلك الأسوارِوعرفت أنَّه برغمِ ما فعله الإغريقُ من تحصيناتٍ إلا أنَّ الفرسَ كانوا قادرين على تحطيمِ كلِّ شيءٍ وتركِ أثارِهم كدليلٍ للانتصارِ.. جنودٌ مرُّوا بخيولِهم من هنا حتي جاء "بيركليس" ليأمرَ بإقامةِ مبانٍ جديدةٍ في تلك المنطقةِ وداخل تلك الأسوارِ، جنوبَ"تل الأوكربولس" شاهدتُ معبدَ "أرختيوم" هديةَ أهلِ"أثينا"إلى معبودتهم..هديةِ البشرِ لآلهتهم تحمل دومًا معنًا خاصًّاً.. ربما لهذا السببِ وقفَ ستُّ نساءٍ عذارى يحملن سقفَ المعبدِ قبلَ أن يتمَّ نقلها لتحلَّ محلَّها أعمدةٌ أُخرى تُعطى نفسَ المظهرِ، سَخِرتُ حين سمعت تلك القصةَ.. مَن أخبَرَ اليونانين الجددَ أنَّ الأمرَ يمكن اختصارُه في الشكلِ فقط.. ألمْ يُخبرهم أحدٌ أنَّ النساءَ الستةَ العذارى هنَّ فقط من يستطعن تقديرَ"أثينا" هنَّ فقط من يحملن فضلَها..كيف للإسمنتِ أنْ يشعرَ بفضل الإله، زفرتُ أنفاسي قبل أنْ أعودَ إلى البيتِ الذي هجرتُه منذ الصباحِ لأجدَ"دالاس" قد وصل توّاً إلى البيت .

لم يلتفت إليّ..وظل يقرأُ الجريدةَ التي في يدِه وهو يسألُني: كيف بدت "أثينا" لي..؟ ضحكتُ من ذكاءِ الرجلِ الذي لاحظ ملامحَ الارتياحِ التي ظهرت على وجهي قبل أن يبتسمَ ويقولَ:

- يبدوا أنك كنت تشتاقُ لها كثيرًا!

فرددت وأنا أهمُّ أن أنامَ

- أثينا لم تكن تستحقُّ أن تنتظرَني أكثرَ من ذلك..!

فلم يفهم الكلمةَ أو ربما لم يحاول..فقط قال:

- غدًا سننتهي من كافةِ إجراءاتِ سفرِك .

نومٌ طويلٌ بعد عدةِ أيامٍ من الإرهاقِ والتفكيرِ.. هل كان "زيوس" له مفعولُ السحرِ، هل استجابَ لدعوتي..!

ميدان "سينداغما" هو الصورةُ المتطورةُ لِمَا وصلت إليه اليونانُ.. تعبيرٌ عن ثورتِها ضد "إسبرطة" ونضالِها ضدَّ الأتراكِ ومعاناتِها من الثوارِ أنفسِهم ومن الحربِ الأهليةِ التي فتكتْ بهم حتى استطاعوا أن يعلنوا استقلالَهم .

أُدرك ذلك التاريخَ جيدًا.. أعرف تفاصيلَه.."دالاس" يلتفت إليّ بعد أن توقفتُ عند مبنى البرلمانِ الذي كان قصرًا ملكيًا في الوقتِ السابقِ..قلت دون مقدماتٍ،منذ أكثرَ من قرنٍ ونصفٍ استنجدت المملكةُ العثمانيةُ بجيشٍ مصريٍّ ليُخمدَ الثورةَ التي أطلقتها "فيليكي أتريا"أو"أخوية الصداقة" تلك المنظمةُ السريةُ التي طالبت باستقلالِ اليونان، وقتَها كانت الثورةُ اشتعلت في كلّ المدنِ اليونانية التي بدأت في شبهِ جزيرةِ"بيلوبونيز"ثم تنتقل إلى باقي الجزر، حقق اليونانيون انتصاراتٍ كثيرةً قبل أن تدبَّ الفوضى فيهم وبين ثوارِهم وقبل أن تسقطَ"أثينا" دومًا أثينا مختلفةٌ حتى في تحررِها..! حتي بعد أن رفعتْ "لاسكارينا بوبولينا" تلك المرأةُ فائقةُ الثراءِ علمَ الثورةِ لأولِ مرةٍ لتغيّرَ مجرى الحربِ وتعلنَ انتصارَ الثوّارِ.

ظهر على "دالاس" الشغفُ لمعرفةِ القصةِ التي بدا أنه يجهل تفاصيلَ كثيرةً عنها، وقابلتها رغبةٌ لديَّ في الحكي فأكملت: لم تجدِ المملكةُ العثمانيةُ سوى الاستنجادِ بِ"إبراهيم باشا" الذي غزا أثينا ثلاثَ مراتٍ من البحرِ وخسرَ المعركةَ.. كانت إحدى المراتِ النادرةِ التي يفشل فيها الجيشُ المصريُّ ربما لهذا

السببِ حين دخل مدينةَ"كالاماتا" سوَّاها بالأرضِ كما يقولون ولم ينقذهم إلا أوروبا التي انتفضت أو ربما خشيت من "محمد علي" وجيشِه الرامي إلى بناءِ إمبراطوريةٍ تضاهي إمبراطوريةِ"الأستانة"..!

لم ينطق "دالاس" بكلمةٍ سوى علاماتِ دهشةٍ بذلك الزخمِ التاريخيّ لديَّ، ألم أقل لك أنَّ أثينا لم تكن تستحقُّأن تنتظرَني أكثرَ من ذلك، فإنَّ لها حقوقًا عليّ، أكملنا السيْرَ.. وأشعر أني في مكانٍ أعرفُه جيدًا.. هنا الشرفةُ التي أُعلِنَ منها دستورُ اليونان في ١٨٤٣.. هنا مسرحُ"ديونيسيوس" قِبلةُ الروائيين الإغريقِ القدامي، أما البرلمانُ الذي يواجهه مؤسساتُ الدولةِ فهو يحملُ في مداخلِه اسم "بيركليس" القائدِ الذي عَمِلَ على إعطاءِ الشعبِ حقوقَهم وتحولت أثينا في عصرِه إلى كعبةٍ للثقافةِ العالميةِ، لم ينسَ اليونانيون الرجلَ الذي حرَّمَ الزواجَ من الأجانبِ حفاظًا على النسلِ اليونانيِّ وكان مؤسِّسَاً حقيقيّاً للديمقراطية .

داخل المكاتبِ أنجز "دالاس" الورقَ المكتوبَ.. لم يسأله أحدٌ عن شيءٍ.. فقط حضورُه هو المطلوبُ، عرفت وقتَها مدي تغلغلِ"دالاس" الذي تعامل بطريقةٍ بهلوانيةٍ ما بين ضحكةٍ لموظفٍ ومغازلةٍ لأخرى ورِشوةٍ لثالثٍ، أقسمتُ وقتَها أنَّ به عِرْقًا مصريَّاً من طريقةِ تعاملِه لولا أنه يريد كلَّ شيءٍ قانونيًاً، انتهت الإجراءاتُ قال آمرًا:

- يومان وستحصلُ على جوازِ السفرِ وتسافر..تذكَّرْ: أستطيع أن أجدَك في أيِّ مكانٍ تحت تلك السماءِ لو أخلفتَ الوعدَ..بدا حاسمًا أكثرَ من أيِّ مرةٍ مضت .

* * *

" وجلست أمامك أشربُ من ملامحِ وجهِك،وأُخزّنُها في

أعماقي بحرصٍ "

غادة السمان

(موتُ صادق باشا)

البقاء لله.. قالها الطبيبُ وخرجَ ليعلنَ وفاةَ "صادق باشا"..أبدو سيدةً عجوزاً أكلَ الحزنُ منها أكثرَ من أيِّ شيءٍ، تقف بجواري "نهال"وتبدو عليها السكينةُ والهدوءُ كأنها تعلم قبل ذلك، مات صادق باشا..! لم يُظهر الطبيبُ بعضَ الأسى كنوعٍ من المشاركةِ.. لم يتعاطف معنا ولم يختر طريقةَ إبلاغٍ أكثرَ تهذيبًا من ذلك، يعلم أنه لا أحدَ في تلك القريةِ سيحزنُ عليه.. كلهم تمنَّوا موتَه حتى نحن في بعضِ الأوقاتِ..!

أكثرُ من أربعةِ عقودٍ قضيتُها مع هذا الرجلِ في بيتٍ واحدٍ، تفاصيلُ علاقةٍ عُمرُها أربعون عامًا صعبٌ أن تُحكَى، رجلٌ ينام بجواري تلك المدةَ..أرتمى في حضنه وأُمسكُ يديه لأطمئنَّ..خصلاتُ شعرِهِ التي أحبُّها وهي مسدلةٌ عليه طوالَ الليلِ.. كان جميلًا..ابنَ عزٍّ..رأيت ضعفه وقوته وكبرياءه ودموعَه في بعض الأوقات، أحبُّ تلك الصفةَ فيه حين يبكي بسبب موقفٍ ما.. المرةُ الوحيدةُ التي كرهتُ دموعَه فيها كانت بعد رحيلِ يوسف.

هو طالبُ نفوذٍ وشهرةٍ، عيوبٌ عرفتُها فيه منذ البدايةِ لكني كنت طفلةً صغيرةً لم أعرف عواقبَ تلك الأمورِ..أنا الأخرى كانت لي تلك الأحلام.. الفرق بيني وبينَه عشرُ سنواتٍ لكنه ابنُ الباشا الذي تعلَّمَ في الجامعةِ وسافر للخارجِ أما أنا فخدمني فقط اسمُ عائلتي وجمالي الذي كان مقبولًا لدى الجميعِ، خرجت من بيتِ أبي إلى بيتِ صادقٍ لا مكانَ ثالثٌ.. المرأةُ عندنا لا مكانَ آخرُ لها سوى القبرِ..! والواضحُ أنَّ موعدَه لم يأتِ بعد.

يوسف.. أجملَ ما في تلك العِشرةِ.. سندي الذي انتظرتُه ١٠ سنواتٍ لم أنجب فيها، ذهبت إلى جميعِ الأطباءِ.. معايرةُ نساءِ القريةِ سمعتُها بِأُذني مراراً..بعضهم اعتقد أن هذا انتقامٌ من صادقٍ رغمَ أنه لم يكن طغى بعد..! كراهيةُ الفلاحين له منذ القدمِ، هو أمرٌ موروثٌ لم يكن له دخل فيه .

- يوسف لازم يعرف مش ممكن هندفن أبوه من غير ما يحضر..

أولَى الكلماتِ التي نطقتُ بها، أعي قدرَ اشتياقي لابني الوحيدِ..فالأمرُ لم يكن فقط من أجلِ الدفن..أعرفُ يوسفَ جيدًا.. لا يريد أن يرى أباه حيًا أو ميتًا..لو جاء لن يحزنَ أو يرثيَه.. لن يشعرَ

باليُتمِ..ما بينه وبين أبيه أكبرُ من أن يدوايَه شيءٌ، لكني أريد أن أراه..ألمسه..أحتضنُه بعد غيابِ ثلاثِ سنواتٍ.. أقولُ له ما منعك عنا مات .

لم يكن أمامي سوي "مندور" صديقِه الوحيدِ في العزبة، هو من نقل لي تحياتِ ابني دون أن يخبرَني بمكانِه رغم كلِّ ما فعلتُه من استجداءٍ لجعلِه ينطق، ولكنَّ تعليماتِ يوسفَ واضحةٌ..- لو عرفت مكاني لن أتحدثَ مرةً أخرى، الآن لا بدَّ له أن يتصلَ وعلى الفورِ، طلبت من "نهال" أن تخبرَ"مندور" بالحادثِ كي يُبلغَه، ما هي إلا دقائقَ حتى جاءني اتصالٌ منه يُخبرُني أنَّ يوسفَ قادمٌ يومَ الثلاثاءِ، أيْ بعد ثلاثةِ أيامٍ فقط من دفنِ أبيه.

قليليون من جاءوا ليحملوا النعش.. ليواروا جثتَه، بعضُهم جاء خشيةَ أن لا يأتيَ أحدٌ.. خشيةَ الفضيحةِ من أن لا يجدوا من يحمل تلك الخشبة..! أما الذين جاءوا ليودعوه فنادرون ندرةَ الصدقِ في زماننا هذا، حملوا النعش..أقاموا قداس الجنازة ووضعوه في تابوته يحاوطه الصليب وتركوه..العزبة كما هي.. الرجالُ يؤدون أعمالَهم بكلِّ أريحيةٍ..النساءُ يمارسن نشاطَهن اليوميَّ في قضاءِ حوائجِ البيت.. الشوارعُ مكتظةٌ بِ"التوك توك" والمقاهي تعجُّ بالرواد، سمعوا الخبرَ فلم يعيروه اهتمامًا.. ربما شرد أحدُهم في ذكرى سيئةٍ تربطه بِ"صادق باشا"وربما قال آخر:

- أهو خد الشر وراح..

وتمتم ثالثٌ:

- ربنا يسامحه..

ولكن في النهاية لم يحزن عليه أحدٌ سوى "صابر" صديقِ عمرِه هو فقط الذي بكى أثناء عودتِه أما أنا فغفرت له كلَّ شيءٍ إلا رحيلَ ابني ..٧٠ عامًا قضاها "صادق باشا" على أرضِ العزبةِ التي سُميت باسمِ والده "سليمان باشا" بمحافظةِ الدقهلية، باشا ليس من قبيل الصدفةِ أو من الألقابِ الوهميةِ؛ فهو ابنُ باشا حقًّا فوالده هو"سليمان فخري" أحدُ الباشوات في عصر الملكِ"فؤاد" وابنه "فاروق" تربَّى"صادق" في رفاهيةٍ لا حدودَ لها، قصرٌ وأرضٌ بلغت مساحتُها نصفَ المحافظة، ومسئولون يتناولون العشاءَ في بيت أبيه، مدللٌ بكلِّ المقاييس.. ظلَّ هكذا حتى قامت ثورةُ يوليو وهو طفلٌ عمره ٤ سنوات .

لم يكن يدرك ماذا يحدث.. أو ماذا ينتظره.. أيامٌ حتي وضعت الثورة يدَها على أكثرِ من ٨٠% من أرضِ أبيه، تركوا له ٥٠ فدان فقط بعد أن أعلنوا أنَّ الحدَّ الأدنى وصل إلى ٢٠٠.. كان طفلًا لكنه كان على وعيٍ لعمليةِ السرقةِ التي تحدُث.. صادقُ من صغرِه رجلٌ كبيرٌ حتى أنه قال لأبيه اطلب السراي، الباشوات، افعل أيَّ شيءٍ..!

جلس "سليمان" يستقبل ثورةَ الطفل

- باشوات مين ياريتها تيجي على قد كده..!

- يعني ايه؟ ..يعني هياخدوا كل حاجة؟

- ده وقتهم، الباشوات اللي انت شايفهم عجزة ، واللي يلعب بالفقراء يكسب، انت فاكر الفلاح اللي ملك أرضه هيسيب الباشوات ياخدوها منه، طب جرب تنزل القرية وتقول أي كلمة وحشة عن الضباط كانوا كلوك.

- والحل؟

- مفيهاش حل، ياريتها تيجي على قد كده.

حالةُ الاعترافِ التي كان فيها "سليمان" هدَّأَت من روعةِ الطفلِ الثائرِ الذي حفظ تلك الكلماتِ وردَدها لي مراتٍ عديدةً.. بل جعلته ينظر للأمرِ من ناحيةٍ أخرى، هل يستطيع أحدٌ أن يتخلَّى عن شيءٍ امتلكه..؟هو يعرفُ الفلاحين جيدًا، سمع مُلاسنتَهم عليه وهم يخدمونه:

- مبقاش إلا خدمة العيال..! في أطفالِهم رأى"صادق" الطفل ظلم نظامَ الإقطاع، من يلعب بالفقراءِ يكسب، حِكمةُ والدِه لم تفارقه حتى وفاته .

بعد أن تخرَّج من الجامعة مهندساً زراعيًا، فكر أن لا يلتحق بالقطاعِ العام.. أن يرفض العملَ مع من سرقوا أباه.. راجع نفسَه في اللحظةِ الأخيرة وتم تعيينه في إحدى الجمعياتِ الزراعية المسئولةِ عن إدارة شئونِ الفلاحين، موظفًا صغيرًا بدأ قبل أن يترقي في السلمِ الوظيفيِّ بفضلِ إجادته للغتين ومهارته في العملِ وأصلِه العريق الذي لم يفقد تأثيرَه بعد..بجانبِ بعضِ المهارات التي اكتسبها أهمها تملق الثورة.

داخل الجمعيةِ الزراعية أدرك أنَّ الثورةَ ليست ضعيفةً..وأنَّ النجاةَ الآن في الانتسابِ لها وتشجيعِها والهتافِ بحياة "عبد الناصر" في بعض الأحيان..لم يدع الفُرَصَ تمرُّ فاشترك في الاتحادِ الاشتراكيّ وترقَّى في المناصبِ حتى وصل إلى مديرٍللجمعيةِ الزراعية.. أمَّمتِ الثورةُ ممتلكاتِ أبيه حتى مات حسرةً،ولكنه ظلَّ متشبثًا بها يردد الشعاراتِ ويسرق قوتَ الفلاحين ويبدأُ مرةً أخرى أسطورةَ تكوين الثروة .

بنهايةِ عبدالناصر ١٩٧٠ كان صادق استطاع تجميعَ ثروةٍ لا بأس بها قبل أن يحاول التكهُّنَ بالنظامِ الجديد، فقد عرف منذ أولِ يومٍأن هناك طريقًا مختلفًا سيتمُّ سلكُه..فاستمر في العملِ الحكوميّ حتي عام ١٩٧٤ ، وبالإعلانِ عن سياسةِ الانفتاحِ أخرج أمواله وبدأ الاستثمار، خبرتُه الماضيةُ بكيفيةِ تسييرِ الأمورِ في مصر سهَّلت له الكثيرَ، وفعل هو في سبيل تكبيرِ ثروتِه كلَّ شيءٍ من الرشوةِ إلى المتاجرةِ في الأرواحِ،،! حتى الوشايةِ في بعضِ الأوقات..علا سهمُه وأصبح من الكوادر المعدودةِ في المحافظةِ التي يُعتمَدُ عليها في كلِّ شيءٍ، وبمجرد تأسيسِ حزبِ مصرَ الذي تحول إلى "الحزب الوطني" ومن خلالِ الحزبِ وسياسةِ الانفتاحِ تضخمت ثروتُه حتى أنه استعادَ قصرَأبيه الذي كان استراحةً لأحدِ ضباطِ الجيشِ الكبار في عهد عبدالناصر.. استعاد نصفَ أرضِه والقصرَ باسمِ القانون، ومن خلال القضاءِ والحقيقة:أنه دفع ثمنَهم لمن هم في الحكمِ ليسهِّلوا عليه تلك المهمة .

عاد إذن: صادق باشا كما كان.. كأنَّ ثورةً لم تكن.. شاهدَ حسرةَ الفلاحين وهم يرمقونه بنظراتِهم وصدورُهم تكاد تفتك به من كثرةِ الحنق، لم يبالِ لهم.. يعلم أنه قويٌّ.. قويٌّ جدًا، تمنى فقط لو حضر أباه ليقولَ له إن الضباطَ يمكن أيضًا الضحكُ عليهم.. صحيحٌ لا نستطيع مواجهتَهم لكننا يمكن أن نكونَ منهم وبدلًا من اللعبِ بالفقراء هناك اللعبُ بالسلطةِ..!

لم يكن يدرك أنه بمثلِ هذا الطمع، بل تعجب من نفسِه كثيرًا لماذا يواصل عملَه المليء بكلِّ خطايا الدنيا ..لقد فاق أباه في المال، كان "سليمان" يملك نصف أراضي العزبةِ فملك هو أكثر..أراضي في مصر وأخرى في الإسكندرية وقرىً سياحيةٌ في الساحل الشمالي، أصبح عضوًا لمجلسِ الشعبِ في حقبةِ الثمانينيات وترشح لمنصبِ المحافظِ لكنه رَفضَ لإنه لا يطيق أن يسمعَ شكاوى الناسِ، هكذا اعتذر إلى وزيرِ التنميةِ المحلية صديقِه في الحزبِ الوطنيّ مفضلًا التجارةَ فقط حتى عضويةُ البرلمانِ

تركها بعد دورةٍ واحدةٍ، صادق باشا نموذجُ لإنسانٍ عصاميّ بنى نفسَه بالغش والسرقةِ والقتلِ والنفاقِ والوشاية فملك المال، كنت أرفض ذلك ولا أصدقه، ولكني رأيت جوانبَ أخرى فيه، لم يكن معي سوى زوجٍ رائعٍ وأبٍ حنون، لن أكذب..هذا ما حدث، أنا الأخرى تعاملت بمبدأ من كان منّا بلا خطيئةٍ فليرمه بحجر، رددت ذلك حتى مستني خطاياه فلعنته..! مات صادق وودعَتْه القريةُ بكلّ ألفاظِ الشتائمِ التي قيلت سرًا ولم يبقَ سوى انتظاري لقاءِ يوسف..!

❊ ❊ ❊

" لطالما تمنيت الجلوس وحديّ، ويكون كل ما أفكرْ به هو التركيز فقط في قراءة كتاب عنوانه " سعادتي الأبدية "

غادة السمان

(جالي جواب)

كلُّ شيءٍ في مكانه تمامًا.. صورةُ ميكي ماوس تتوسط الحائطَ الأيمنَ للحجرةِ ليكونَ أولَ شيءٍ تراه عيني في الصباح، باقي الحوائطِ مزينةٌ بصورِ أبي وإخوتي وأخرى لي وأنا لم أكمل الرابعةَ من العمر.علا صوتُ أمي الذي افتقدته لشهورٍ طوالٍ..استيقظتُ لأجدَ فطورَ الصباحِ تم تجهيزُه بما يليقُ بابنةٍ عادت بعد سفرٍ طويلٍ، المشهدُ كما هو لم يتغير..أبي يتوسط المنضدةَ.أمي تُحضّر الأطباق.."سالي" ترفض أن تشاركَ في شيءٍ، و"مالك" يترك هاتفه ليأكلَ في اللحظة الأخيرة بعد اكتمالِ كلِّ شيءٍ، مشهدٌ أعتبره إكسيرَ الحياة رغم ظنّهم بي أني أكره العائلةَ لذلك هربتُ إلى مصر.. عكس ذلك تمامًا..أستوحي من تلك اللمةِ قوتي..أتذكر دومًا أنَّ لي عائلةً.. أنَّ هناك من يسألُ عني ، حتى نظراتُ أمي القلقةُ والغاضبةُ في أغلب الأوقاتِ أدرك أنَّ وراءها حبًا ولا يمكن أن يغضبَ أحدٌ من عينٍ تحبه.جلستُ بينهم بابتسامةٍ حقيقيةٍ وفرحةٍ تزورني نادرًا، أكلت كثيرًا فضحك أبي وأعطاني قرصًا آخرَ من الطعميةِ المُطعَّمةِ بالبيضِ فأكلتُ، سئمت من نوع وصفةِ فطاري في مصر. السندوتشات . والأكلِ على عجلٍ دومًا أثناء ذهابي للعمل، أما هنا فكلُّ شيءٍ يبثُّ الطمأنينةَ وأقراصُ الطعميةِ شَبِعتْ من الزيتِ البيتيِّ لتعطي نكهةً رونقًا خاصًا.

انتهى الإفطارَ..ذهب الحاجُّ عبداللاه إلى المجلسِ المحليِّ الذي يعمل فيه موظفًا وترك أخي المنضدةَ ليعودَ إلى هاتفه، الأُسرة اختفت فجأةً.. وسالي تركتني وخرجت للجامعة، بقيتُ أنا وأمي التي بدأت تُكشِّرُ عن أنيابها، حضنُ الأمسِ قد ذهب تأثيرُه، وقلقُها قلَّت حِدَّتُه وهي أمامي، تستعد لجولةٍ جديدةٍ أحفظ تفاصيلَها بحكم الخبرة.قبل أن تبدأَ أمي اخترتُ الهروبَ أو على الأقلِّ تأجيلَ تلك المبارزةِ، اشتقت للبلد.. لكنيسةِ ماري جرجس.. للشجرِ خلف الكنيسة، أنهيت فطوري وصعدتُ إلى حجرتي وارتديتُ ملابسي للخروج:

- رايحة فين؟

- هنزل اشوف البلد وحشتني أوي.

- اقعدي وهي متوحشكيش.

- ابتلعت أولى كلماتها، هخرج وارجعلك.

- عاوزة اتكلم معاكي شوية.

- يا ماما هخرج وارجعلك هو أنا هروح فين يعني.

تركتني تركَ السجانِ الذي يعرف أنَّ مسجونَه سيعودُ إليه، ذلك قبل أن أفتحَ البابَ فأجدَ عمتي بوجهِها المنتفخِ وشعرِها الأسودِ القصيرِأمام البيتِ جاءت لِتُسلِّمَ عليّ ، ولو طُلِبَ مني أن أُفصِحَ عن أكثرِ شيءٍ أكرهه في حياتي لقلتُ: تلك المرأةُ التي تحمل الشرَّ بين جنبيها. إلهام . القصيرةُ البدينةُ التي تُوفِّيَ زوجُها وهجرَها أولادُها كلٌّ توجَّه إلى دولةٍ أجنبيةٍ مختلفةٍ لتتفرَّغَ هي لجرِّ شكلِ خلقِ الله جميعًا، تخوضُ في أعراضِهم وتَشِي ببعضِهم وتكذب على البعضِ الآخرِ تحت مُسمَّى الدردشة.. شيطانٌ في هيئةِ بشر..امرأةٌ تُجيدُ الغمزَ بالعينِ والإيحاءَ بِلَيِّ الفمِ وإيقاعِ صوتِها الذي يحمل دومًا رأيها، امرأةٌ لا تملكُ أمامَها سوى أن تقولَ:

- ربنا ياخدها.

- أزيك يا بنتي وحشاني.

- ازيك يا عمتو اخبارك ايه؟

- نشكر الرب، رايحة على فين دنا كنت جيالك.

دون أن تعطيَني الفرصةَ لأُجيبَ أمسكت بيدي قابضةً عليها بشكلٍ أوجعني لتدخلَ البيت، أمي هي الأخرى لا تطيقُ عمتي،ولكن للبيوتِ أصولٌ، ابتسمتُ في وجهِها وجلست بينهن.. أم تريدُني أن أستمرَّ في الجلوسِ في البيتِ مع تلك العمةِ التي لا يفرق معها شيءٌ سوى أن تمارسَ هوايتَها المفضلةَ في التبكيت .

- ولحد امتى يا بنتي الشحططة ديه؟

وبنبرةٍ قويةٍ وحاسمةٍ رددت:

- شحططت إيه؟ هو انا قاعدة في الشارع في مصر؟ انا بشتغل وبكون مستقبلي في المجال اللى بحبه.

- أيوة مقلناش حاجة بس يعني العين عليكي كتيروانت حلوة.

- اللي بشتغل معاهم مبيبصوش بالطريقة ديه، في مصر الناس شغالة محدش فاضي.

ظننتُ أنَّ حِدَّتي ستنجيني من هذا المجلسِ الذي أتمنَّى أن تزورَه قنبلةٌ نوويةٌ على أقلِّ تقدير.. أمي التزمت الصمتَ في إشارةٍ إلى موافقتِها الضمنيةِ على مبارزةِ العمةِ التي تكرهُها.."إلهام" لم يكن يعنيها تلك الحدةُ بل إنها تريدُ ذلك.. العصبيةُ دومًا فرصةٌ لاستفزازِ الفردِ أكثرَ لكنها اختارت طريقةً أخرى، أدركت أنها لو تمادت في الكلامِ سيكون لي رد أعنف، فوجَّهت كلامَها إلى أمي مباشرة:

- شوفتي بنت الحاج محمد اللي ساكن ورا الوحدة الصحية؟

- الدكتورة اللي شغالة في مصر؟

- أيوه هي، اتجوزت من دكتور صاحبها، من فُجرها اتجوزت من غير ما تقول لحد، لإن جوزها متجوز وهي زوجة تانية.

أسلوبُ"إلهام" لم يكن في الحسبان.. أدركتُ أني هُزمت.. وقعت في الفخِّ.. أدركت ذلك حينَ تطلعت إلى وجهِ أمي الذي ملأه القلقُ والحيرةُ.. هذا قبل أن تنظرَ إلهام إليَّ وهي تقول:

- ربنا يستر على ولايانا.. اسيبكم أنا بقى.

بنت.. بكلِّ أنواعِ الشتمائمِ شتمتُها..تعبيراتُ وجهي المرحةُ تحولت فجأةً إلى كتلةٍ من الغضب، أما أمي فلم يشفع لي هذا.. كانت تستعد لخوضِ جولةٍ جديدةٍ قبل أن أُفاجئها بصعودي إلى الحجرةِ مغلقةً بابي دونَها، وتلك هي طريقتي دومًا في السيطرةِ على غضبي حتى لا أجرح أحد .

جلستُ أرتبُ ملابسي..أتفحصُ أشيائي القديمةَ.. صورَ الجامعةِ.. الهدايا التي أحتفظ بها في صندوقٍ أُخفيه عن العيونِ حتى صنعت له درجًا مخصوصًا له قُفْلٌ مفتاحُه معي فقط، حاولت أن لَّا أفكر في كلامِ إلهام.. أن ألتمسَ العذرَ لأمي القلقةِ..وإن أردت أن أصيحَ فيهم لإخبارِهم أني عاقلةٌ بما

فيه الكفايةُ لتنفيذِ تعاليمِ المسيحِ.. لا أشربُ الخمرَ ولا أرقصُ كلَّ يومٍ مع رجلٍ مختلف، أليس تلك الصورةُ التي تراود أمي التي تعرفُني حقَّ اليقين .

أنهيتُ عُزلتي التي استمرَّت لأكثرَ من أربعِ ساعاتٍ.. خرجتُ لأساعدَ في تحضيرِ العشاءِ.. أنا وأمي في المطبخ.. مساحة لا تتعدَّى المترين، كلُّ واحدةٍ تسمع صوتَ تفكيرِ الأخرى.

- ولحد أمتى العذاب ده؟

- عذاب ايه يا أمي؟

- العذاب اللي انتي عايشة بيه، الوهم اللي لسه محاصرك، الذكريات اللي مش عاوزة تنسيها.

- هو بمزاجي يعني؟.. أنا لقيت اللي يخليني أنساها ومنسهتاش..علشان اسيب الماضي لازم يبقي في جاي علشان مكنش فارغة، غير كده يبقى الماضي معايا، انتي فاكرة لو سيبت الماضي هرتاح.. انا لو سيبته من غير اللي يحل محله هبقى واقفة في فراغ، لا ماضي لا مستقبل والحاضر وسطهم ملوش ملامح.. أنا بحافظ على حاجة مني، الموضوع صعب إنك تفهميه لكن أكيد هتحسي بيا ثم اقعد هنا أعمل إيه افضل كده، مستقبلي هو في قعدتي في البيت بس، خليني متمسكة باللي فات وبعمل اللي جاي وياريت متشغليش بالك باللي اسمها إلهام إنتى عارفاها .

حنقي وأنا أتحدث عن الماضي جعلها تصمت عن الحديث.. فقط خرجَتْ وتركتني لأُكملَ الطعامَ قبل أن يدخلَ أبي وفي يديه"ربيع" الذي أصرَّ أن يرى رفيقةَ طفولتِه .

ربيعُ بالنسبةِ لي ليس صديقًا أو أخًا.. هو نصفي الآخر.. النصفُ الطفوليُّ الذي رآني ألعب في الطينِ وأضربُ الأطفالَ وأبكي وحدي.. الوحيدُ المسموحُ له بمعرفةِ كلِّ شيءٍ، ابن عمتي نادية..المرأةُ الأنيقةُ دومًا.. عطرُها كان يُسيِّلُ لعابَ كلِّ رجالِ القرية، تزوجَتْ صغيرةً وماتت دون الأربعينَ بلا أيِّ سببٍ، مما جعل حزنَنا عليها كبيرًا.. كنتُ صغيرةً لكني شعرتُ بفداحةِ هذا الفراقِ، حتى زوجُها لم يُكمل عامَه وماتَ هو الآخرُ حزنًا عليها.. أصبحا مثلًا للوفاة.. تمنَّى كلُّ نساءِ القريةِ أن يمتنَّ ليدركنَ مدى حبِّ أزواجهنَّ لهن فلا طريقةَ أصدقُ من الموتِ حزنًا، ربيع كان نتاجَ هذا الحبِّ بجانب أشياءَ أخرى .

أشرقت عيني وقتَ أنْ رأيتُه فأدرك أبي أنه لا بد أن يتركنا معًا، بضحكته المعتادةِ وعينيه المليئتين بالأسئلةِ اقترب ربيع.

- هنبدأ التحقيق هنا.

- طبعًا لا ثواني وهخرج.

مررنا على الكنيسة سريعًا.. توترُ ربيع يشير إلى خبرٍ سيءٍ.. بدأ بقول:

- الأنبا بيشوي ترك الكنيسةَ الشهرَ الماضي..!

بعينين مضطربتين نظرت له قبل أن ألمحَ في عينيه الخبرَ الحزينَ:

- نعم مات الأنبا بيشوي.. أدرك أنه لن يستمرَّ كثيرًا منذ آخرِ زيارةٍ بعد أن رأيت المرضَ تسلل إلى كلِّ مسامِّ جلدِه ووهنت قواه، التزمتُ الصمت.. الأنبا بيشوي لم يكن مسئولًا عن الكنيسةِ أو أحدِ رجالِ الدين الذين لا تفارقهم الابتسامةُ، لكنه سببُ حبي في الكنيسة.. حبي في الله، يومَ أن جئتُه طفلةً أبكي وأقولُ له:

- عاوزة أموت..!

قال لي:

- المسيحُ سيغضب والسيدةُ العذراءُ ستغضب.. هل ترضَين أن تغضبيهم..؟!من وقتها لم أطلب الموتَ أبدًا خشيةَ أن يغضبَ المسيحُ أو العذراءُ.. أكياس الحلوى مازال طعمُها يروادني كلما تذكرته، صبره وقبلته التي يطبعها دومًا على خدي .

- أدرك ربيع شرودي.. كعادته لم يعطني الفرصة كثيرًا وبدأ في الأسئلة.

- إيه آخر اخبار الناس المعتقلين؟

- قصدك الورق؟

- ورق ايه يا بنتي.

- كل يوم أحضر ورقة بأسماء الناس المختفين أو اللي اتقبض عليهم، والورق يروح لرئيس المنظمة إللي يبعته لكل الجرايد علشان تنشرها ولو في مؤتمر بره يرسل بتوصيات بأساميهم، أرقام وورق دي

الحقيقة.. وكل ما الأرقام تكتر الورق يكتر والضغط يزيد، في أرقام محظوظة بتطلع وأرقام تانية زي ما هيه، وورق بيتكوم عليه التراب.. أنا مبقتش بحسبها زي زمان مبقتش كلمة معتقل ترهبني زي الأول.

- كلامك ده يخوف جدًا.

- كل حاجة في البلد بتخوف ومش من دلوقتي من زمان بس احنا لسه بنكتشفها المهم قولي سجنوك ليه؟

- علشان إخواني.

- بطل هزار بابا قالي إنك لسه خارج امبارح.

- مفيش علشان المظاهرات وشوية فعاليات للحركة، النظام معجبوش كده راح باعت الظابط قبض عليا وشوية تانيين.

- وبعدين؟

- روحنا القسم .. انتي عارفة النقيب صبري يعرفني كويس ويعرف عيلتي ، أول ما شافني ضحك وقالي من غير لف ولا دوران انت هنا بصفتك بتتعامل مع الإخوان، ضحكت أوي قلتله يا باشا طب خليها اشتراكي بيتمول من روسيا اهي تبقى ماشية لكن مسيحي واشتراكي واخواني مش حلوة في حقكم

رد عليا : اسمع بس الموضوع مش هيطول شوية تحريات كمان علشان تهدوا شوية الدنيا والعة

-يا باشا شوية ولا شويتين، وقعدتلي اسبوع وخلاص.

- ونورهان أخبارك معاها ايه؟

- ولا حاجة.

- انت لسه مقلتلهاش بحبك؟

- ماهي كمان لسه مظهرش منها أي حاجة تدل إنها بتحبني انت عارفة انا لو اللي بحلم بيه من ٥ سنين طلع وهم إيه اللي هيحصل.

- وبطريقتك ديه هتقعد ٢٠ سنة كمان.

- غادة دي دايما تشوفني تكشر.

- تكشر علشان مضايقة منك.. غايظها ترددك وقلقك.. خايفة تضيع منك وانت واقف بتتفرج عليها.

- ده كلام في خيالك انت.

- لا دي الحقيقة.. انت اللى محتاج تبقى شجاع شوية وتواجه.. نورهان بتحبك.. عمرك بيجري.

بسكوتي كنا وصلنا إلى واحةِ الشجرِ خلف الكنيسة.. ساحةٌ صغيرةٌ تملؤها الأشجارُ التي زرعها الأنبا بيشوي لأتسلَّقها وأنا صغيرةٌ..أجلس فوق أحدِ فروعِها حتى لا يجدَني ربيع المُلحُّ لمعرفةِ كلِّ شيء.

تسللَ الهواءُ إلى رئة كلٍّ منَّا قليلًا فبدت على وجوهِنا ابتسامةُ الحنين.. اقتربتُ إلى إحدى الأشجارِ..وأمسكت فرعَها كأني أختبر قوتها.

- يا ترى لو طلعت وقعدت فوق دلوقتي هيستحملني.

- طب زمان كنت بتستخبي مني ومن الناس دلوقتي انت قادرة تواجههم.

- بالعكس دلوقتي انا محتاج اقعد فوق أكتر من أي مكان تاني.

- غريبة.

- ايه اللى غريب؟

- إنتي طول عمرك كده..تضربي العيال اللي في الفصل لو حد قالك كلمة مش حلوة.. مستقوية على العيال كلها.. عندية.. ضحكك قليل وأسرع حاجة الضرب، ورغم كده تيجي هنا وتعيطي ، دايما اسالك بتعيطي ليه تقوليلي علشان ضربت فلانة .

ضحكتُ وأنا أتذكر تلك الأيامَ..اعتقادي أنَّ كلَّ الناسِ تكرهني أو على الأقلِّ يرونني مواطنةً من الدرجةِ الثانية، المسيحية هي السبب.. همساتُ التلاميذِ إني مسيحية.. صديقتي روان التي جاءتني ذات يوم ولم تسلم عليّ لأن أمها قالت لا تصافحي "كفاتسة" الأمور في الصعيد بعيدةٌ عن كلِّ الشعاراتِ الرنانةِ.. الفتنةُ تُنقش على صدورِالأطفال.. بعضُهم يتخلَّصُ منها وبعضُهم لا، أقابل ذلك بقوةٍ.. أتحداهم وأكيل لهم الصاعَ صاعين.. اللكمةَأمام الكلمةِ.. والموتَ في حالةِ التعدي.. وإعلانَ العصيانِ

علنًا لا سرًا، أصدقاءُ مسيحيون لم يعرفوني لكنهم أحبوا شجاعتي أمام أستاذ أيمن مدرسِ اللغةِ العربية عندما قال:

- إنَّ المسيحيين كفرةٌ، يدرك أنَّ هناك تلاميذَ مسيحيين وأنها حصةُ عربي لا دين، لكنه أصرَّ على الخوضِ في تلك المنطقةِ.. كنت في العاشرةِ من عمري لكني استمعت باهتمامٍ شديدٍ دفعني إلى الذهاب إلى الأنبا بيشوي أسألُه عن كفرنا.

- ربُّنا واحدٌ والرسلُ من عندِه واحنا مش كفره..في القرآن آية بتقول (لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وإنهم لا يستكبرون)الإجابةُ مهدِّئةٌ.. لكنَّ قلبي اشتعل أكثرَ.. لم أنم ليلتي حتى موعدِ حصةِ الأستاذ أيمن. وقفت في الفصلِ فجأةً لأقولَ:

- {لتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وإنهم لا يستكبرون}..

بُهت الأستاذ.. وبُهت التلاميذُ، وانتصرتُ أنا بابتسامةٍ أعلنتُ فيها احتقاري لهذا الرجلِ الواقفِ أمامي..وخرجتُ من الفصلِ لأجيءَ إلى تلك الشجرة.

- عمري ما حبيت أضرب حد، أنا بداري ضعفي.

- طول عمرك مبتحبيش حد يشوف ضعفك حتى انا.

- انت الوحيد اللى حكتله عن ضعفي لكن مستحيل تشوفه، عارف انت اخويا مش ابن عمتي بس، حاجة مني ماشية معايا خطوة خطوة، لكن حتى مع ده كله مقدرش ابان قدامك ضعيفة.

- مع اني دايما ضعيف قدامك ؟

- يمكن ده محببني فيك اكتر.

- أنا جالي جواب، قلتها وأنا أحاول طرد صورة هذا الرجل الذي سكني منذ أول وهلة، لم يكن من عادتي أن أبوح لربيع بشيء من هذا القبيل.. احتياجي أن أفصح عن شاغل عقلي دفعني إلى الاعتراف.

- جواب من مين ؟

- مش عارفة، معرفش اسمه ولا شكله، معرفش عنه أي حاجة غير إنه يشبهني أوي، عارف تفاصيلي، وصفني زي ما انا عاوزة اتوصف، مهتم بالهوامش ، ده أهم كتير من اللي جوه الصورة، دي الحاجة الوحيدة اللى بتكمل جمالها، الجواب فيه عطرchanel اللي بحبه، وبيت شعر كمان لأبن الفارض كل ده حصل وانا معرفوش.

- أنت حبتيه يا غادة ؟

- تفتكر أنا ممكن أحب فعلًا.

- ومتحبيش ليه؟

- مش عارفة، صحيح أنا عشت عمري بدور على الحب ده، ولما استسلمت الدنيا ادتني فرصة إني أبدأ من أول وجديد علشان احب كأنها بتقولي لازم تحبي، لازم تعيشي حياتك، لكن انا خايفة حاسه إني حتى لو حبيت مش هعرف أحب فاهم حاجة.

- فاهمك بس نصيحة ..حافظي على قلبك، اهتمامك بحد متعرفهوش كده ميطمنش هتشوفي منال امتي ؟

- هي اللي هتجيلي بالليل نسهر شوية.

- كلميني قبل ما تسافري.

- امال مين اللى هيوصلني غيرك؟

واتَّجه ربيع إلى مكتبِ المحاماةِ الذي يعمل به، وفضّلتُ أن أعود إلى البيتِ من طريقٍ ثان، أشمُّ فيه رائحةَ الهواءِ الممزوجِ بطينِ الأرض.

المشي على ضفافِ "أبوقرقاص" له مذاقٌ خاصٌّ. الأشجارُ حاملةٌ هواءً أحبه.. الأرضُ التي أعشقها..عيونُ أهالي القريةِ تحاوطني دومًا منذ أن كرَّمني المحافظُ بعد حصولي على المركزِ الأولِ في الثانويةِ العامة.

أنا الأستاذة.. وفخرُ البلد.. وجهٌ يقابلني به أهلُ القريةِ، وطالبةٌ سافرت وامرأةٌ وحيدةٌ في مصر تلاحقها الألسنة والعيون.. وجه آخر يخفيه أهل البلدة الطيبون .

هل أكتب إلى هذا الرجلِ الذي لا أعرفه..؟ هل أمدُّ جسورَ الصلةِ مع من يشبهني..أم أُصغى لنصيحةِ ربيع..ماذا أكتب.. تخطيتُ فكرةِ أن أكتبَ أو لا كما تخطيتُ قبل ذلك مرحلةَ قراءةِ الجوابِ إلى ماذا يحوي، وبدأت في تحضيرِ الكلماتِ.. وصفني بصاحبةِ الشعرِ الكيرلي؛ بينما لا أعرفُ ما شكلُ شعرِه.. ناداني بالعزيزةِ الغاليةِ..! فأيُّ كلمةٍ أناديه بها بعدُ.. شُغفتُ به ولم أره.. أرجأتُ الأمرَ إلى وقت الكتابة.

منال تجسد مرحلةً خاصةً في حياتي.. بدايةَ مرحلةِ الأنوثةِ.. دخولُ محلاتِ "اللانجيري" لحظاتُ استدارةِ الصدرِ.. معرفةُ رقمِ محيطِه وارتفاعِه لاختيارِ النوعِ المناسبِ من "البرا" الاختلافُ حول الحمالاتِ التي تريدها منال «push up» لتشد صدرها فيبدوا أكبر.. وأكرهها أنا مفضلة لل« strapless bra»، فهو يعطي صدري الكبيرَ قليلًا من الأريحيةِ كما تُظهره في شكلٍ متناسقٍ متغلبةً على كبَرِ الجانبِ الأيمن عن الأيسرِ.. واتفقنا أن الدانتيل هو النوع الأفضلُ من البانتي في الحفلاتِ والعملِ بينما يكفي الهوت شورت للجلوسِ في البيتِ بعيدًا عن القيود..!

هي تجسد ايضًا مرحلةَ جلوسِنا معاً بقمصانِ النومِ بعد إغلاقِ البابِ جيدًا والخوضِ في أحاديثِ ليلةِ الزفاف.. عضُّ منالَ لشفاهِها و خشيتُها أن يكونَ زوجُها . مبيعرفش يبوس !

الخمس العازلةُ.. أيامَ دورتي الشهريةِ.. النزيفُ يجعلني عصبيةً ومغصُ المعدةِ الذي يأتي بلا موعدٍ، فأُفضِّلُ الجلوسَ في البيتِ دون الاضطرارِ إلى لبس البانتي الأسودِ المبطنِ وقطعةِ"الأولويز" التي مهما قالوا عن مرونتها فإنها تُعرقل حركتي أو ارتداءِ الطقمِ البنيّ الذي أمقتُه .

الصلاةُ كلَّ يومِ أحد في الكنيسةِ وتزويغُ منال للقاء "سليم" قبل أن يفترقَ الاثنان بعد أكثر من مائةِ قبلةٍ في واحةِ الأشجارِ خلف الكنيسة.. المذاكرة حتى الصباحِ الباكرِ في الثانويةِ العامةِ ليلتحقَ كلَّ منا بكليةِ الاقتصادِ والعلومِ السياسيةِ، فاكتفت هي بالبيتِ واخترتُ أنا العمل .

منال تُجسِّدُ هذا كلَّه، لذلك اللجوءُ إليها أمرٌ حتميٌّ.. أُصبحت مختلفةً معها.. حديثُها الحاملُ لأسرارِ الأنوثةِ لا يتكرر واحتياجي لهذا الحديثِ الكامنِ في صدري الممنوعِ من الخروجِ يجعلُ من الأمرِ ضرورة .

الغيومُ تمنح البلدةَ السلامَ.. تكفُّ أصواتُ الأطفالِ عن البكاءِ.. يجفُّ عرقُ الفلاحين من زراعةِ الأرضِ ويلتفت النساءُ إلى ما هو أهمُّ من النميمة.. تبحث كلُّ واحدةٍ منهن عن ثوبٍ يليق برجُلِها المنهكِ طيلةَ اليوم.. وتبحثُ أخرى عن حُجةٍ تنغِّص بها حياةَ رجلٍ لم يستطع كفايتَها.. تغلق الأبوابُ فتعود الطبيعةُ إلى طبيعتها التي يفسدُها البشرُ..! وأصل أنا إلى بيتي الذي تجلس فيه منال تنتظرني .

دقائقُ معدودةٌ قامت منال خلالَها بالواجبِ الرسميّ من التحيةِ وبعد الدردشة التي لا تفيد مع والدتي صعدنا إلى الحجرةِ التي شهدت صداقتَنا في السنواتِ الخوالي .

- عاملة إيه مع حليم؟

- نشكر الرب.

- مبسوطة؟

- مرتاحة.

- فاكرة سليم؟

- آه طبعا.

- ازاي فكراه وقدرتي تتجوزي غيره هو انت حبتيه فعلًا؟

- أنا حبيته .. عشت معاه كل الاحاسيس الحلوة اللى ممكن تعيشها واحدة في سني.. حضنته وبوسته صحيح كل ده بدافع الحب لكن انا كنت بعمل كده كمان علشان ده حقي بعيد عن العيون اللي لو شافتنا هتقتلنا.. من حقي أبوس اللى بحبه حتى لو مش هتجوزه.. ومن حقي احضنه وأحس بإيديه تحاوطني من غير ما استني سنين علشان تجمعنا شقة نعمل فيها كل ده.

- عارفة اسخف حاجة في الجواز ايه ؟

- إيه؟

- إنه بالتوقيت.. هتبوس في الليلة الفلانية وهتحضن الساعة كذا.. أوقات ممكن يختفي الاحساس فيها لكنك لازم تنفذ.. انا عملت كده مع حليم في ليلة الدخلة قلتله انا تعبانة كان رده أن الناس هتيجي بكره تخيلي !.. مفروض أعمل كل حاجة علشان الناس جاية بكره !

- إنتي مبتحبيش جوزك يا منال.

- بالعكس بحبه بس الأهم من ده انا بحترمه.. زمان كان لينا احاسيس مختلفة.. مثالية زي ما بيقولوا.. الفارس الأبيض والبيت اللي مليان ورفض جواز الصالونات لمجرد إنه جواز صالونات.. لكن بعد كده في حاجات تانية بتظهر.. العشرة والاحترام.. حد جنبك وانت مريضة ومش زهقان وبيجري على دكتور يجيبولك.. ابنك اللى منه اللى شبهكوا انتوا الاتنين ده اللى عايشاه مع حليم دلوقتي وكفاية رولا أعظم انتاج مشترك بينا احنا الاتنين.

- وسليم!

- سليم كان الحب اللى انا عوزاه في وقتها واللى كنت مستنياه بس اكتشفت إن بعد الحب ده كله سابني علشان مش واثق في اخلاقي.. ايوا زي ما بقولك كده انت يمكن متعرفيش القصة وانا محكتهاش لحد بس هو لما جيت كلمته في خطوبتنا اعتذر بحجة إني كنت في حضنه.. وساخة مفيش بعد كده..مطلعش راجل والحياة متنفعش من غير راجل فعلًأ تعرفي تعتمدي عليه..قوليلي اخبارك انتي ايه؟

- عادية.

- إيه لسه قلبك محبش برضه مشتاقتيش انك تلبسي البيبي دول الأسود فاكراه.

- ههههه طبعا فكراه، بس لسه بدور على راجل اعتمد عليه بس أكون بحبه.. مش هعرف اتنازل عن ده تاني.. انا كمان من حقي أعيش مع حد بحبه من غير ما اضطر إنى استنى حد يجبلي الدكتور.

- وأمك؟

- أهي جولة وجولة ثم انا مبقعدش هنا كتير انا هسافر بكره بالليل.

- يعني ما استفدتش منك غير قاعدة واحدة بس.

- بس اللى خلي بالك من الفيس بوك بكلمك كتير ومبلاقكيش رولا وخداكي مني.

- رولا واخداني من نفسي اصلًا.

غادرت منال.. وجلست أُحضر حقيبةَ السفرِوأنا أستعد لنظراتِأمي وقلقِ أبي..أما "مالك" فيبدو أنَّ له ما يشغله و"سالي"لا تترك سماعةَ الهاتف.. أدرك أنها تعيش حالةَ حبِّ ولكن فضَّلتُ أن لّا أُمارسَ عليها دورَ الأختِ الكبرى .

الملابسُ تم غسلُها..ممزوجةٌ برائحةِ عطرةٍ .. الحقيبة على السريرِ والحجرةُ تستعد للوداع، أجمل ما في الإجازة هو أني لا أضطر أنْ أفعلَ شيئًا.. أبتسم وأنا أرى جاهزيةَ كلِ هذا وأفرح بحنانِ أمّ مهما قالت فإنها فعلت كل هذا من أجلي.

بدا كلُّ شيءٍجاهزاً.. الفلوس التي يُصرُّ أبي على إعطائها في محفظتي، أما عُلَبُ المكياج فكانت هديةً من سالي التي ستكون أنثى بمعنى الكلمة، الجوابُ مازال يطلُّ من نافذةِ حقيبتي رغم إخفائه هنا قررت أن أكتب . لم تنتبْني أيُّ حيرة.. كتبت بخطٍّ ثابتٍ كأني أدرك ما سأقوله أو لعله كلامٌ مخزونٌ من زمنٍ، نحتاج أوقاتاً نكتب فيها ما نشاء..لِنُخرجَ تلك الأفكارَ التي راودتنا في طفولتنا وداعبت مخيلتَنا.. نكتبها حتى لمجردِ أن نكتبَها.. إحساس أنَّ هناك من يستحقُّ تلك الأحلامَ شعورٌ لا يتكرر كثيرًا .

إلى الرجلِ الذي أربكني حدَّ القلق.. اقتحم غرفتي دون أن يستأذنَ وسمح لنفسِه بالتطلع إلى شفتيَّ وأنا أُرتلُ المزمورَ الخمسين، سأسامحك فقط لأنك فعلت ذلك في الكنيسة، لا يمكن أن أُعاقبَ أحداً في حضرةِ المسيحِ لكني سأكتب لك دون أيّ مقدمات.

الورقةُ ليست طاهرةً إلى تلك الدرجة.. هي سببُ العذابِ.. ترفض أن تُمحى.. يذهب كاتبُها وتبقى هي مختبئةً في صندوقِنا المخفيِّ لتخبرَنا أنَّ هناك من رحلَ، حتى ورقتُك التي أرسلتَها لي ظلَّت تُذكرني أنَّ هناك من كتب،ربما لهذا كان العاشقون يفضِّلون إحراقَها بالنارِ بعد الرحيل.. النارِ فقط هي ما تستطيع أنْ تُبطلَ مفعولَ الورقة.

لم أشغل نفسي ما اسمُك.. فأنا أُومنُ أنَّ هناك من يكتب الجوابات.. أعجبني إلمامُك بطريقةِ الإرسال، فالعطرُ والشعرُ كان أفضلَ ما في الكلامِ الذي حمل لي معنى واحداً فقط أنَّ هناك مَن تلصَّص عليَّ وتابعني لحظةً بلحظةٍ.. لو رأيتُك وقتها ربما كنتُ انسحبتُ من الكنيسةِ.. رمقتُك بنظرةِ غضبٍ ستكره نفسَك بسببها.. كم أنا متقنةٌ لهذا الدور.أنا أستحق كتابتَك وأنت تستحق الردَّ.. لن

أخوضَ في تفاصيلِ وجهِك الذي أجهله ولن أستطيع مدحَ شعرِك الذي لم أرَهُ حتى الآن..إنها خطيئتُك وحدَك فلتتحملْ وزرها.تشبهني.. هكذا الأمرُ بكلِّ بساطةٍ.. سبب كتابتي وردِّي عليك..

أنا لا أجيد الإطالةَ في الحديثِ لكني أرسلت الجوابَ بالطريقةِ التي اتَّبعتها أنتَ، لا تقلق؛فالعطرُ يحيطُ بالورقةِ وبيتُ الشعرِ أسفلَ الجوابِ.. أنا أيضًا أُتقن فنَّ الجوابات . العودةُ إلى القاهرةِ مرةً أخرى.. شعورُ الاضطرابِ الذي يأتي دومًا في موعدِه.. تركُ البيتِ والأهلِ وسريري الدافيءِ للذهابِ للعملِ وسطَ أوراقِ المعتقلين واستفساراتِ أهاليهِم ونظراتِ"أبانوب" المحيرةِ ووقاحةِ"خالد" المكبوتةِ بداخلِه، أحببت دراستي بعد التحاقي بأعلى كليةٍ في مصر.. ليس بعد الاقتصاد والعلومِالسياسية شيءٌ آخر، عشقتُ البحثَ الاجتماعيَّ والوصولَ إلى مشاكلِ الناسِ، وظلَّ مركزُ الأهرامِ للدراساتِ السياسيةِ والاستراتيجيةِ حلمي الأولَ وأنا أرى أساتذتي في الجامعةِ يعملون فيه، الواقعُ لا يعترفُ بالأحلامِ..!

انقطعتُ أكثرَ من عامينِ عن أيِّ عملٍ قبل أن أعودَ إلى القاهرةِ لأحاولَ دخولَ مبني الأهرامِ.. الأمرُ ليس سهلًا .. عرفت هذا الواقعَ مبكرًا.. لم أيأس..قررتُ أن أظلَّوعملت في أحدِ المراكزِ الحقوقية كمسئولةٍ عن كافةِ بياناتِ الموقعِ الألكترونيِّ الخاصِ به، بالإضافةِ إلى بعضِ المقالاتِ التي أرسلها إلى مواقعَ متخصصةٍ .

"محمد صدقي" رئيسُ المركزِ حقوقيٌّ شرسٌ، تتلمذَ على يدِ روادِ حركةِ حقوقِ الإنسانِ في مصرِ منذ ثمانيناتِ القرنِ الماضي، شهد تطوراتِ"عاصمة جهنم"- الاسمُ الذي أطلقه الدكتور"نادر فرجاني" على السجونِ في مصر- وصولًا إلى بعثاتِ القوميِّ لحقوقِ الإنسانِ للتأكدِ أنَّ أُرزَ المساجين يتم طهيُه وفقَ المعاييرِ الدولية، يحب كثيرًا أن يروي لنا قصصَه وبطولاتِه في زمنِ"مبارك" وكيف تعرَّض للسجنِ وما شكلُ أوَّلِ استقبالِه في سجنِ القناطرِ وكيف كانت أولُ واسطةٍ في حياتِه لِيُنقلَ من سجن العقرب. أنا منجذبةٌ إليه..هو قادرٌ على الوقوفِ أمامَ الجميع..يُحيِّرُني فقط: من أين جاء بتلك الأموالِ وبيتِ التجمعِ الخامسِ الخاصِّ به وهو خريجُ كليةِ حقوقٍ جاء إلى القاهرةِ فردًا لم يكن يملك لا هو ولا عائلتُه مائةَ جنيهٍ وفقَ روايتِه التي يتفاخر بها دائمًا..؟!

أُدرك أنَّ الكثيرَ من المنظماتِ يأتي لها التمويلُ سواءٌ من الاتحادِ الأوروبيِّ أوالولاياتِ المتحدةِ الأمريكية، لكني لا آبه كثيرًا فكلُّ شيءٍ في مصرَ ممولٌ..اِفي الرابعةِ فجرًا أُودِّعُ كلَّ شيءٍ في الحجرةِ.. أُغلق دولابي بإحكام.. أُحملق في جدرانِ الحجرةِ قليلًا قبل أن أخرجَلأرى الحاج عبداللاه في استقبالي جاهزًا لحملِ الحقيبة..وصوتُ"سالي"يعلو من الداخل لتودِّعَني.. أهمس في أُذنيها:

- المرة الجاية تحكيلي على اللي شاغل بالك..!

- فترد: على الله يبقى لحد ما تيجي..

"مالك" ينتظر أن يُوصِّلَني مع أبي ولا يجرؤ على أن يحملَ عنه الحقيبةَ..في مشهدٍ اعتدته كلَّ مرةٍ.. قلبُ أبٍ قلقٌ وعيونُ أمٍّ حائرةٍ مضطربةٍ وابتسامةُ أختٍ صُغرى تريدني بجوارِها وعيونُ رجلٍ صغيرٍ يثقُ بي ويخاف عليّ، أتعامل مع الأمرِ برُمَّتِه بطريقةٍ عاديةٍ حتى لا يتحوَّلَ إلى مشهدٍ تراجيديٍّ لا أريده.. أمي تريد أن تتحدثَ.. تصرخ.. تُغلق البابَ حتى لا أرحلَ، لكنها تُؤثِرُ السلامةَ بعد حضنٍ لم يستغرق سوى لحظات .

أهالى القريةِ يغطون في النومِ ولَسْعَةُ هواءِ ديسمبر تُجبرُني على أن أضعَ يدي في جيوبي قبل أن يخلعَ الحاجُ عبداللاه شاله ليُحِطُني به ملتزمًا الصمتَ طوالَ الطريقِ حتى محطةِ القطارِ التي وصلتُها قبل موعدِ القطارِبعشرِ دقائقَ استطاعَ خلالَها أبي أن يطلبَ مني أن أُطمئنَه وأن أعتنيَ بنفسي جيدًا .

❊ ❊ ❊

"هل هناك ما هو أكثر رعبا في حياة انسان كان يخبيء الحب في

جيبه كسلاح أخير للدفاع عن النفس"

غسان كنفاني

(ربنا هيحاسبه)

نرجوا من السادةِ الركابِ ربطَ الأحزمةِ جيدًا استعدادًا للهبوط، كلماتٌ سئمتها خلال ثلاثِ سنواتٍ جئت فيهاالقاهرة ٦ مرات ولم أرَأمِّي.. أكتفي فقط بأن أجلسَ في أحدِ الحجراتِ بعقاراتِ وسط البلدِ الملاصقةِ لكنيسةِ الدوبارةِ، ولكن تلكَ المرةُ الأصعبُ.. ربما لأنَّ صاحبَ العملِ لم يوافق عليها بسهولةٍ؛ فقد عدتُ توًا من القاهرةِ قبل وفاةِ أبي بساعاتٍ، أو ربما لأنها المرةُ الأولى التي سألتقى أمي بعد غيبةٍ طويلةٍ.

- تقدر تشوف أمك دلوقتي.. كلماتٌ نطقَ بها "مندور" في مكالمةٍ هاتفيةٍ لم تستغرق ٣٠ ثانية، لم يغُص في تفاصيل.. تلقفت المعني:إنَّ أباك مات، ظن "مندور" أن صديقَه ارتاح.

في الماضي كانت تلك أقصى أمانيَّ أن أرى أمي بعيدًا عن هذا الرجلِ الذي أحملُ اسمَه في بطاقةِ الهوية، أما الآن فأعيد اكتشافَ نفسي، صدَمَه الخبرُ..هل مات أبي فعلًا..؟! أفرح لأني قادرٌعلى العودة؛ أم أندم لأني أصبحت يتيماً، الأحاسيسُ المضطربةُ اجتاحتني، مشاعرُ لم تدع لي فرصةَ التفكيرِ.. لتحديدِ أحاسيسي..ذكرياتُ الطفولةِ.. أولُ يومٍ لي فيالمدرسة.. مصروفي الأعلى من جميعِ أقراني.. كليةُ الهندسةِ.. ابتسامةُ أبٍ في عتمةِ الليلِ ونظرتُه إلى مراهقٍ يعشق كتابةَ الجوابات.. أولُ ثورةٍ في وجهِه وبداية إعلانِ العصيان على أوامِره، لم تكن تلك الأمورُ كبيرةً في نظرِ أيِّ فرد، لم يضحِّ من أجلي بحياته مثلًا، لم يكن "هيرو" ولم يقطع من لحمِه ليعطيَني مثل الآخرين، لكنه "صادق باشا" أمام القرية والمسئولين والوزراء وكبراءِ العائلاتِ و أبي أمامي، أعشق تلك الصورةَ كثيرًا.. الأبُ الكبيرُ في القريةِ الضعيفِ أمام ابنٍ يتقن فنَّ الرفضِ للاستمتاعِ بطاعة أبيه .

ظننت أني تخلصت من هذا كله.. واعتقدت أني كرهت أبي.. كرهته لدرجةِ عدمِ الترحمِ عليه.. بل ظننت أني سأرقص إذا جاء لي هذا الخبرُ، بعد قليلٍ سيواسيني الناسُ في رحيله.. يشدون من أزري.. يذكرون محاسنه ويضغطون على يدي لتحمُّلِ الموقفِ.. بعضهم سيميل على أذني ويقول:

- اجمد أنت الكبير..!كلامهم لا يساوي حبةَ خردلٍ عندي.. عيني سترفض الدمعَ ويدي تعودتْ أن لَّا تتحملَ مواقفَ هذا الرجلِ، شيءٌ واحدٌ سيظل يُؤرقني: هل أحبُّ هذ الميتَ أم أكرهه.. أدعوا له أم

أكيلُله اللعناتِ.. الموتُ لم يكن شفيعًا للإجابةِ على هذا السؤال..!أول تاكسي أخذته لنقلي إلي بيتي، العزاءُ سيبدأ السادسةَ مساءً، لم أصدق أنَّ أمي أقامت هذا العزاءَ خصيصًا من أجل أن يقولَ الناسُ لي:

- الله يقدس روحه .

وهي تعرف يقينًا أني من داخلي لا أقول تلك الكلمةَ ولن أستطيعَ التأمينَ عليها لو قالَها أحد .

أسبوعٌ واحدٌ فقط منهم ٥ أيامٍ في البلدِ ويومينِ في القاهرةِ عليَّ أن أذهبَ يومَ الإثنين إلى كنيسةِ "قصر الدوبارة" لعلي أعثرُ مرةً أخرى على المرأةِ التي كتبتُ لها الجوابَ، هكذا خططتُ لإجازتي القصيرة .

ثلاثُ سنواتٍ قضيتُها في الإمارات..أوفيتُ بعهدِ"دالاس" وأعطيته نصفَ راتبي لمدةِ سنةٍ، الأمرُ لم يكن مشكلةً بعد أنِ استطعتُ أن أعملَ مهندسًا معماريًا بدلًا من مساعدِ نقاشٍ، بدأ ذلك بعد أن تهكَّم أحدُ النقاشين المصريين على المهندسين بصفتهم لا يفعلون شيئًا سوى التنظيرِ، لم تعجبني الكلماتُ..دراستي القديمةُ "نئحت"عليّ، وبنظرةٍ متعاليةٍ قلت للعاملِ هل تُدرك كم يستغرقُ رسمُ لوحةٍ لعقارٍ واحدٍ.. هل جربت أن تسهر أمام الكمبيوتر لترسمَ خطوطًا مقيسةً بالمليمتر على "الأوتوكاد" تعجب العاملُ أما المشرفُ فتوجه إليّ بخطواتٍ ثابتةٍ ليقفَ على حقيقةِ ما قلته، لم أدع له الفرصةَ كثيرًا.. شجعني على ذلك أنه مصريٌّ مثلي. نعم لست مساعدَ نقاشٍ وإنما أنا مهندسٌ معماريٌّ وليس لدي ما أقوله أكثر من ذلك، فاحترم المشرفُ عدمَ رغبتي في الحديث.. سمع مني ولاذَ بالصمتَ لأُفاجَأ بعد يومين بعملي الجديدِ.. مهندساً معمارياً..! مما دفعني إلى شكرِ هذا المشرفِ بعد أن كان راتبي ١٠٠٠ درهمٍ سيصبح الآن ٤ آلاف.تستطيع أن تناديني "نادر" هل لديك سكنٌ وماذا رأيت من الإمارات؟ أسئلةٌ طرحها عليَّ المشرفُ لم أجد لديَّ أيَّ جواب، إذن: موعدُنا غدًا هنا؛ففي الإمارات الجمعةُ والسبتُ إجازةٌ رسميةٌ، وأصحابُ الأعمالِ الخاصةِ يسرى عليهم هذا القانونُ وتستطيع أن تجلسَ معي في الشقةِ فهي كبيرةٌ وأسكن فيها وحدي .

لم أدرِ بماذا أجيب على كلِّ هذا، تعاطف "نادر" معي.. كان شيئًا جللًا، نشأَتْ بيننا صداقةٌ سرعانَ ما وصلتُ إلى الإخوَّةِ حتى حكيتُ له عن كلِّ شيءٍ وشعرت بالمسيحِ يحاوطني .

تركني "دالاس" أستكشف اليونانَ وحدي أما "نادر" فاصطحبني كطفلٍ صغيرٍ يُعرّفُني على المدِينة:

- هنا الشارقة، في احياء تانية صغيرة لكن احنا في مدخل الإمارة نفسها، ديه بقى فيها مشاريع كتيرة، عاوزينها تبقى دبي الجديدة ومحتاجة شغل وبالذات في المدارس..

يبدأ "نادر" في الحديثِ عن الإمارة التي لا أعرف عنها شيئًا.. لم تكن من آمالي زيارةُ أيِّ دولةٍ عربيةٍلكني الآن مضطرٌ أن أدرك الوضعَ الجديد . يكمل نادر:

- شارع العروبة ده الشارع اللى ساكنين فيه، متقلقش هنا مش مصر هما شارعين يوحدوا ربنا بعد كده كلها شوارع صغيرة، العروبة والزهراء اللى على الناحية التاني ، تعالى بقى أوريك المكان اللي أهل الإمارات عملوا فيه جنازة رمزية لعبد الناصر... ميدان الرولة أو شجرة الرولة، الناس هنا معندهاش أهرامات ولا أبوالهول عندهم الشجرة اللي اتبني مكانها الميدان ده، الشجرة ديه كانت هنا لأكتر من ٢٠٠ عام محدش عارف مين اللي زرعها لكن كانت غصونها كتير جدًا بيقولوا مثلًا كان الغصن فيها عرضه أكتر من ٢٠ متر، كان هنا بيتجمع أهل الإمارة زمان يغنوا تحتها ويستريحوا ويحبوا وينظموا مهرجانات ثقافية، ولما مات عبدالناصر نظموا مظاهرة من هنا، المكان ده غالي عندهم أوي، اسأل أي حد عن الرولة هتلاقيه معاه ذكريات ...

- على قد ما استغربت الموضوع في الأول ان كل ده علشان شجرة على قد ما احترمت الناس ديه انهم بيعرفوا يقدروا أي حاجة كان سبب راحتهم شوف عندنا في مصر كام شجرة عمرها أكتر من ٣٠٠ سنة ولا حد سأل، أنا لسه فاكر صاحب العمارة اللي ساكن فيها لم حب يعمل جراج قدام البيت قطع شجرة كان بقالها ١٥٠ سنة، قطعها قدامي الغريبة أن الناس مكنش في بالها، دلوقتي بقى مكان الشجرة ميدان افتتحوا الشيخ سلطان القاسمي نفسه صحيح الناس هنا بينها وبين الحكومة عقد، هتريحونا هتحكمونا وده اللى داير علشان كده مريحين دماغهم...

نادر يستكمل حديثَه عن الرولةِ والحكايات التي سمعها، أما أنا فشردت في الإمارةِ التي نتجولُ فيها لأكثرَ من ثلاثِ ساعات، رغم تعددِ أسماءِ الأحياء "الناصرية، الرفاع، الحزانة ، النباعة، الرمقية" لم أرَ سوى البنايات الشاهقة..!

شتان بين اليونان والإمارات..معابد بوذا وشجرة الرولة.. ميدان أمونيا وشارع الزهراء..بين بيريكليس وآل نهيان، هناك دولة ضاربةٌ بجذورِها في التاريخ، حاربت واُحتلت وثارت وتحررت وهنا دولةٌ تم تقسيمُها بمعرفةِ بعضِ الشيوخِ لي هنا النفطُ، ولك هناك الموقع .. أنت ستحكم تلك القطعةَ وأنا سأحكم الأخرى.. لا حاجةَ لنا بالشعبِ فسنعطيه حتي يشبع، هناك أثينا وهنا دبي.. هناك هيكل زيوس وهنا أبراج تتعدي العشرين طابقًا.. هناك روحي وهنا قد وجدت شيئًا واحداً فقط لفتَ انتباهي في جولتي الأولى وهو الحلم.. الشعبُ الإماراتي حالمٌ.. يقينه أن القادمَ أفضلُ.. ويدرك جيدًا أنَّ دولته من الكبار، سخرت من تلك الكلمة.. لا مكان لتلك الدولِ بين الكبار.. لا يمكن أن يدخلوا التاريخَ بشجرة..!أمام بنايةِ من ٦ أدوارٍ وقف "نادر" يعلن عن مكانِ سكنِه.. لم أعلِّق..فقط تأملت هذا الرجلَ الذي فعل معي كلَّ هذا دون أن أطلبَ منه، نادر ليس بالشخصية الثرثارة،فهو لديه قدرةٌ كبيرةٌ على احترامِ الصمت ربما لهذه الصفةِ حكيت له عن كلِّ شيءٍ ليقيني أنه لا يريد أن يتكلم بل يسمع، صفةٌ ظللتُ أبحث عنها طوال ٢٨ عامًا، عرفت بعدها أنَّ صديقي سبقني إلى الإمارات بثلاثِ سنواتٍ من أجل تكوينِ ثروةٍ للزواجمن ابنةِ عمِّه حبِّه الأزليِّ، قصةٌ تقليديةٌ قرأتها عشراتِ المراتِ لكنها المرةَ الأولى التي أراها أمامي، حبُّ نادر لتلك المرأةِ التي غادر من أجلها البلادَ يستحق الاحترامَ، داعبته ذاتَ مرةٍ بقولي:

كنت أتمنى أن تأتي من تجعلُني أضحِّيَ من أجلها؛ فردَّ:

- المهم أن تكون قادرًا وقتها اننا نكتشف أنفسنا وقت الأزمات .

مرت الأيامُ واستأنستُ الشارقةَ ونادر والشقةَ التي تعاني من قلةِ النوافذ، لم يُعدني إلى القاهرةِ إلا كنيسةُ الدوبارةِ.. المكانُ الوحيدُ الذي أشتكي فيه.. أُحدِّث اللهَ دون خجلٍ.. أُلقى بهمومي التي أثقلتني بها أيامُ الغربة.منذ أن رأيت تلك الكنيسةَ تحولَتْ إلى مشفى ميدانيٍّ في ثورة ٢٥ يناير وأنا أعشقها..أنا كاثوليكي..ولم أُشارك في الثورةِ.. وإنَّ فتنةَ حماسِ شبابها أثارتني، فمن تربَّى في أروقةِ قصرِ صادق باشا لا يثور.. شيءٌ واحدٌ لفت انتباهي.. الكنيسة التي فتحت أبوابَها للجميع .

وصلت العزبة..هي هادئةٌ كما تركتها أولَ مرةٍ.. لا شيءَ جديدٌ حتى طقسُها مازال أكثرَ برودةً من جميع قريناتها، وطأتْ قدمِي الأرضَ التي غادرتُها منذ ثلاثِ سنوات.. اليومَ أسير متباطئًا على غيرِ العادةِ..

محاطًا بنظراتِ الناسِ التي ترى ميتاً لأولِ مرة في حياتهم رغم اتصالاتي بأهلي وإقناعِهم.. إني على قيدِ الحياةِ مازالت شريحةٌ كبيرةٌ من أهلِ القريةِ يعتبرونني غرقت .

لم أهتمَّ بنظراتِ الناسِ التي حاوطتني.. غمغات البعضِ أشارت إليَّ أنَّ صادق باشا لم يمت.. ظل في أذهانهم بلقبه كما هو.. أحدهم قال:

- ابن الباشا رجع..

وقالت أخرى بتنهيدةٍ:

- مسكين..! ..نعم مسكين رغم أني في تلك اللحظة أملكُ ملايين الجنيهاتِ بالإضافة إلى الأملاك الثابتة، تمنيت لو قضيت طوالَ عمري في الإمارات أعمل وأعيش مع نادر، حتى حياتي المستقبليةُ لم أخطط لها مكتفيًا بما وصلت إليه مرددًا مقولةَ "سيوران" التي لمحتها ذاتَ يومٍ في كتاب "لن أغفر أنى وُلِدت"..أضفت عليها "ولن أغفرَأني رفضتُ الموتَ في جماعةٍ"

القصر على بُعدِ خطواتٍ.. الأنوارُهادئةٌ.. الظلامُ يغطِّي واجهةَ شرفاتِه الحزينة على فراقِ صاحبِها..حزينةٌ أكثرُ مني..رائحةٌ الموت تفوحُ منها.. الهواءُ يزداد قوةً والحراسةُ كما هي.. كشكانِ على اليمينِ واليسار .. بابٌ حديديٌّ كبيرٌومبنًى مكونٌ من طابقين وحديقةٌ أماميةٌ على يمينها ٤ سيارات مرسيدس سوداءَ تُخفي من يجلس بداخلها رغم أنَّ أهلَ القريةِ يعرفون أنه لا أحدَ يملُكها سوى صادق باشا .

لحظاتٌ قبل أن أصلَ إلى الباب.. أتذكر فيها كلَّ شيءٍ.. وجهُ أبي أولُ من طاردني.. لأولِ مرةٍ اتذكره مبتسمًا.. لا أعرف لماذا طاردتني الذكرياتُ الجميلةُ بعد وفاتِه، المرةُ التي رفض فيها أن يعطيني أموالاً للسفرِ إلى شرم الشيخ وأنا شابٌّ لم أبلغ الخامسةَ عشرة إلا بعد أن نزلت دموعي..نعم تلك الدمعاتُ أجبرت الباشا على الموافقةِ فسافرت منتشيًا بالنصرِ وبفعل ما أردت، ذكرياتٌ أحاول أن أهرب منها.. لو كان أبي جحودًا طوالَ عمرِه أو العكسَ لاسترحتُ..لكنه أبٌ..! له في ذمتي ذكرياتٌ جميلةٌ وحيرةٌ لم أستطع أن أخرجَ منها رغم وفاته..يوسف ماذا جرى لك..!أُفيق قليلًا وأغرق مرةً أخرى في التفكير..أمي وأختي تَلُوحانِ في الأفق.. لا أريد أن أتذكَّرهما ..لست في حاجةٍ إلى ذلك.. لحظاتٌ لألتقيهما وإن كنت أهرب من وجهِ أمي الذي هجرته عمدًا وأخذتُها بذنبِ رجلٍ حملتِ اسمَه .

عرفني الحراسُ الذين استأجرهم أبي آخر ١٠ سنوات في حياته فهبُّوا واقفين بالطريقةِ الرسميةِ التي اعتادوها.. لم أنظر إليهم.. فقط أزحت البابَ بيدي ودخلت بيتي .. بيتي الذي خرجت منه ذاتَ يومٍ أحمل املًا كبيراً.. بيتي الذي بناه ابي طوبةً طوبةً..أمي على البابِ في انتظاري .

الخامسةَ مساءً.. يدقُّ جرسُ البابِ..تفتح أمي التي اتَّشحت بالسواد.. لا يوجدُ أحدٌ في الصالةِ الواسعة..فموعدُ العزاءِ بعد ساعةٍ من الآن ..أما "نهال" فيبدوا أنها في حجرتها..اللحظةُ التي لم أتهيَّأ لها أوربما اللحظة التي أخاف منها .

قلقٌ.. خوفٌ.. اشتياقٌ.. توترٌ.. عجزٌ..أحاسيسُ جعلتني أعجز عن النطقِ..فقط ظللت أُحملقُ في "فردوس" التي لم تفعل شيئًا هي الأخرى سوى النظرِ إليّ.. تتفحص ملامحَ الولدِ الذي كبرَ..وبدت علاماتُ الخشونةِ عليه، وابتسامتُه التي لم تفارقه أصبح لها موعدٌ.. شعرُه الناعمُ بدأ يزحف إلى الوراءِ.. وشعيراتٌ بيضٌفي ذقنه وهو لم يكملِ الثلاثين ..زيادةٌ في الوزنِ لم تفقده رشاقتَه بعد..حزنٌ في العينين المغمغمةِ بالدموع..كسرةٌ في القلبِ الشابِّ.. جُرحٌ لم تداوهِاالأيامُ..!

آخر مرةٍ تركت فيها أمي كنت سعيدًا أطير من الفرحِ..سأذهب إلى إيطاليا.. سأرى روما عبرَ البحرِ.. قلتها مصحوبًا بدعواتها:"احميه يا عدرا"وهي تنظر إلى أبي الذي فضَّل الصمتَ في تلك اللحظات..!

ارتميت في حضنها وبكيت بكاءَ المحتاجِ للبكاء.. المشتاقِ أن تلمسَ دموعَه يدٌ تكفكفها.. ارتمائي على صدرِ أمي وثيقةَ اعتذارٍ عن عقابي لها لمدةِ ثلاثِ سنواتٍ دون ذنبٍ أو محاكمةٍ أو حتى إعلانِ حكمٍ..! صدمتي في أبي دفعتني إلى إحراق كلِّ شيءٍ.. المهمُّ الآن أني هنا حيث كنت قبل أن أكونَ، في السفرِ وحشةٌ.. تعاليت عليها بإيهامِ نفسي أني لا أحتاج أيَّ شيءٍ.. لم تفلح محاولاتُ نادر أن يجعلني أتصل بأمي بعد أن رآني يومًا أرددُ اسمَها نائمًا.. يومَها جرفني الحنينُ إليها..شعرت لأولِ مرةٍ أني طفلٌ له احتياجاتُه أولُها الأمانُ المتمثل في وجهِ فردوس..هكذا منذ صغري أبكى حتى أراها فأسكت حتى لو لم تلتفت إليَّ.. الشعورُ بقى معي لكن في تلك المرةِ لم أرَها..لم أبحث عنها فصلتْنا الأماكنُ فاكتفيتُ أن أكبتَ حنيني بداخلي

اليوم أرتمي في أحضانها مرةً أخرى ..هي لم تتغير بنبضاتِ قلبِها التي تطمئني ..صمتها المحترم تلك اللحظة..

دموعها المتجمدة على جفنها.يديها التي تطبطب علي.. وأثاث البيت الثابت جعلني أعود بعمري عشرين عامًا.

فردوس الآن أقوى بكثير.. الحزن الذي زار البيتَ كضيفٍ ثقيلٍ أراد أن يكملَ حياته بين تلك الجدرانِ منذ ثلاثِ سنوات دفعها أن تَثْبُت.. أن تقفَ في وجه الرياحِ التي اجتاحت البيت كما يجتاح الخريفُ أوراقَ شجرةٍ ذابلةٍ.. لم يرحم ضعفَها ولم يضعف أمام اشتياقِها للماء.. الآن هي تحمي ذلك البيتَ بعد أن شُلَّ صادق باشا وسافر أبنها غاضبًا.

لم أتخيل أن تصبحَ هكذا.. أنا الذي سمعت منها كثيرًا كيف تعرفت على والدي وكيف جاء لطلبها دون أن تراه فوافقَتْ لأنها لا تملك أن تقولَ لا.. رجلٌ وقّع عقدها فأصبحت من حقِّه بين عشيةٍ وضحاها .

- عارف أنا ساعات بفكر لو ايامنا زي أيامكم هختار أبوك ولا لا؟

- وبتوصلي لإيه؟

- مش عارف بس بيتهيألي كنت برضه هختاره.

- بتحبيه للدرجادي؟

- مش بحبه قد ما حاسه انه جزء من حياتي كبير، أنا اتجوزت ابوك ١٨ سنة معرفتش حد قبله وعشت معاه كل حياتي لدرجة اني مفتكرش حياتي قبله عامله ازاي.

- بس ازاي قبلتيه وهو غريب؟

- مش فكرة قبلته.. أي حد قبل الجواز بيبقى للتاني غريب، سيبك من الخطوبة والحب والكلام المتذوق.. صحيح امك مطلعتش في أي حتة لكن الست ست .. اللبس الحلو وتسريحة الشعر والكلام المتحضر ده ميخلكش تعرف بني آدم انت هتعرفه لما تعيش معاه لما يبقى مش مضطر إنه يكدب عليك أو يخبي حاجة.

كلامُ فردوس لم يفارق أذني، لكني أحتاج الآن إلى الحديثِ معها من جديد.. إلى سؤالِها كيف ترى صادق باشا بعد كلِّ ذلك، هل تحزن عليه..هي التي لم تغضب منه رغم جميعِ مساوئِه حتى شعرتُأنها ضدي، لماذا أصرَّت أن تقيمَ عزاءً..؟!

الأسئلة التي بدت في عيني تُدركُها جيدًا.. ودت لو قالت لي أنَّ ما هناك شيءٌ أغضبني منه سوى ما فعله معك لكنها أرادت أن تقول لي أيضًا أن رؤيتها لزوجها ثلاثَ سنواتٍ مشلولًا لا يتحرك هوّن الكثيرَ، والآن ما كان كان..! البيت له ربّ ويجب أن نتمسَّك به.. أن نتخطَّي تلك المرحلةَ بقلوبٍ ثابتةٍ رغم قلبها الذي أنفطر حزنًا بمجردِ أن لمست شعرَ طفلِها الصغيرِ..خصلاتُه الناعمةُ تعرف طريقَ يديها وارتماءَه في حضنها يعني أنه يحتاج إليها.. القلوبُ أصدقُ والدموعُ لا تخطيءُ الطريق..نفضت عنها دموعَها التي وقفت على حافة العين.. تماسكت ويدُها ترتعش لتمسحَ دموعي.. اليدُ التي ستكفكفُ جاءت.. بِصمتٍ صعدت إلى حجرتي أستعدُّ للعزاءِ دون أن أنطقَ.. الكلامُ لم يجد مكانًا بين تلك المشاعر.

حنيني لحجرتي اختفى بمجرد أن وصلتُ إليها..فأمي أخذت كلَّ الحنينِ في تلك اللحظة التي ارتميت في حضنها، فهدأت نفسي كطفلٍ لم يعد يفكر في شيءٍ، الصفاءُ النفسيُّ جعلني أدخل بكلِّ هدوءٍ للحجرة التي جلست فيها ربعَ قرن من الزمان..أحتمي بجدرانها وأدخنُ أول سيجارةٍ أثناء مشاهدةٍ أولِ مقطعٍ لفيلمٍ إباحيٍّ في حياتي.

كما هي.. سريرٌ على اليسار..مكتبةٌ مزينةٌ بكتبِ جبران ونزار قباني.. جهاز كمبيوتر وبعضُ الملابسِ التي قررت أن أرتديها بعد انتهاءِ الرحلة التي ستستغرق ١٠ أيام.. شيءٌ واحدٌ هو ما اختلف.. صوري التي انتشرت على كلِّ الجدرانِ، أعلم جيدًا أنَّ أمي هي من فعلت ذلك..! طالما اشتاقت إلى رؤيتي.. قالت في إحدى المكالمات المقتضبة لمندور:

- نفسي أبطل ابص لصوره واشوفه.

الوقت لم يدع لي فرصةً للاسترخاءِ، دقائقُ ووفد أولُ ضيفٍ.. محمد صابر..عمي كما أقول..الرجلُ مفتولُ العضلاتِ وبطلُ القريةِ قديمًا في رفعِ الأثقال.. هدّه الزمانُ لكن لم يحنِ عودَه.. عرفتُه منذ جئتُ إلى الدنيا صديقًا لأبي.. لا يتكلم كثيرًا.. يتدخل للإصلاح فقط.. أكثرَ من مرةٍ أثورفيتدخَّلُ هو ليصلحَ بين الأب وابنه، أولادُه سافروا للخارجِ وتوفِّيت زوجتُه ولديه من المالِ الكثيرُ بعد أن قضى طوال عمرِه يعمل في التجارةِ وبيع الأراضي، علاقةُ أبي بعمي صابر غريبةٌ، ذات يومٍ قلت إنه أشبه بخادمٍ لا كصديق.. لم أضبطه يومًا معترضًا أو منقطعًا حتى في أحلكِ الظروفِ..جملةٌ واحدةٌ يذكرها كأنها إنجيل:

- أبوك جواه طيب وبيحبك..

هي كلماتٌ يُهدِّئُ بها ثورةَ الابنِ الغاضبِ في كلِّ موقف.

اللقاءُ بيننا عاديًا.. الصمتُ والحزنُ يلفَّانِ المكان.. طبطبة يدِ صابر عليّ تعني الكثيرَ.. أود أن أسأله ألف سؤالٍ هو الآخرُ لكني صمتّ..على الأقلِّ مؤقتًا، دقائقُ مرت قبل أن يتوافدَ الجميعُ بدايةً من مأمورِ العزبةِ مرورًا بكافةِ القياداتِ التنفيذيةِ والعائلات، أما عائلتي فقد جاء منها القليل .

جاءوا لينافقوا..صادق باشا مات.. أموالُه باقيةٌ.. ابنه غيرُ محدَّدِ النيةِ.. من الممكن أن يجلسَ هنا ونستكملَ المسيرة.. السرقةُ والنصبُ والمتاجرةُ في الأرواحُ، أو حتى نتوبَ معه ونعملَ في إطعامَ الفقيرِ وكسوةِ المحتاجِ إن أراد هذا الاتجاه.. في الحالتين، المالُ موجودٌ والسرقةُ مباحةٌ والنفوذُ لا يخفت أبدًا في تلك العائلة .

مأمورُ القريةِ الذي أمرَ أبي بترقيتِه من مقدِّمٍ إلى عقيدٍ على اليمين،وبجوارِه عضوُ مجلسِ المدينةِ الذي رشحه أبي، أما باقي العائلاتِ فدخلت في بيزنس العملِ وجُنَّتْ بالمليارات على أعينِ الجميع، كلهم جاءَوا لينافقوا ماعدا عم صابر والطفلَ"خلف" الذي جاء وسطَ تعجُّبِ الكثيرين .

الكلماتُ المعتادةُ قيلت.. الحزنُ المصطنعُ تطلَّب منهم جُهدًا كبيرًا للإقناعِ الذي فشلوا فيه.. تركتهم وتوجهت إلى الطفلِ:

- ماذا جاء بك..؟ هل تعرف أبي..؟ لا يمكن أن يكون هو الآخر منافق .

- إزيك يا حبيبي.

- البقاء لله يا عم.

- انت جاي علشان تعزي فعلا؟

- آه.

- تعرف بابا منين؟

معرفوش، أنا بمسح جزم على أول شارع السوق، وصادق باشا كان كل ما يجي السوق يلمع جزمته عندي، عارف إنه كان بيلمعها هنا قبل ما يجي لكن برضه بيجي يلمعها عندي علشان يديني

فلوس، كل مرة يسيبلي ١٠٠ و٢٠٠ جنيه يكفوني لحد المرة اللي بعدها، تلميعة جزمته خلتني اعرف اذاكر بعدها لإني كنت بقعد اسبوع مرتاح من الشغل من يومها جميلته في رقبتي.

-ساكن فين؟

- في قرية جنب السوق شوية، وانا و٣ بنات وامي وابويا راجل ارزقي.

- خلاص كمل مذاكرتك وفي شهرية كل شهر هتوصلك.

- أنا جاي أعزي مش آخد فلوس.

- عارف.

لمستُ رأسَ الطفلِ الذي ابتسم لتلك اللفتةِ الحانيةِ..الأهمُّ من ذلك أني فرحت..أنَّ أحداً ما زالَ يذكر أبي بالخيرِ دون أيِّ مصلحةٍ..نسيت إحساسي بالكره.. شعرتُ للحظةٍ أنَّ صادق باشا ملكَ شيئًا من الخيرِ.

انتهى العزاءُ..لحقت بعمِّ صابر أتحدث معه.. لم أُطق أكثرَ من ذلك مستغلًا فرصةَ هدوءِ البيت .

- مكنش بيحبني.

- مكنش بيحب حد قدك.

- أمال ليه عمل كده معايا؟

- لإنه طماع.

- عنده كتير.

- ميملاش عينه غير التراب.

- أهو خسرني.

- دفع التمن، آخر ايامه كان يتمني ياخدوا منه كل حاجة وتسامحه.

- عمل ليه ده كله؟!

- لو يعرف مكنش عمل لكن الطمع.

- انت بتدافع عنه؟

- لإنه صاحبي.

- صاحبك سرق ونافق وتاجر بالناس وقتلهم.

- عندك صحاب؟

- أكيد.

- فيهم عيوب؟!

- طبعًا!

- وصابر عليهم ليه؟!

- عيوبهم مبتأذيش الناس.. مبيتاجرش في قوتهم ولا يتسبب في سجن مظلوم.

- عيوب أبوك كده لكن برضه كان فيه خير.

- خير ايه؟!

- رحيم.. لو شاف أي حد فقير ينزل يقعد معاه ويديله فلوس من غير ما يعرفه هو مين..انا اللي كنت بوزع الفلوس ديه عليهم من غير ما يعرفوا اسم اللى دفع.

- ربنا مبيضحكش عليه.. وانه يحسن على الناس من فلوس هي حقهم مش هتتقبل، هو السبب في فقرهم من سرقته ليهم.

- مش انت اللى تحدد؟!

- امال مين ؟!

- ليه رب يحاسبه.

- انت بتدافع عنه علشان صاحبك فعلا ولا حاجة تاني ؟!

- بدافع عنه لانه انسان في الخير والشر.. هو مش نبي ولا أنا ربنا هحاسبه.. ابوك جمعني بيه عشرة، شوفت وشه التاني اللى انت مشفتوش او يمكن شوفته وبتنكر، هو تركيبة رضيت بيها.. المثل بيقول خد صاحبك على عيبه وانا خته كده.. اختلفنا كتير وزعلت منه في حاجات لكن حسابه عن ربه

- أنت عجيب يا عم صابر..ازاي قدرت تستحمل نظرات الناس ليك وانت صاحب الباشا اللي تسبب في ظلمهم .

- قبل ما تسافر ب ٥ سنين قاطعت أبوك.. بقيت قاعد في البيت مبكلموش بسبب نقله لأحمد رافع وكيل النيابة اللي بيقف مع الغلابة.. لكن لما اتشل معرفتش امنع نفسي اني اكلمه تاني، العشرة متهونش

- كان نفسي أكرهه.

- مش هتعرف.

- ليه؟!

- لإنك بتحبه.

تركني صادق غاضبًا.. الرجلُ الهاديءُ طوالَ العمرِ غَضِبَ من مُجرَّدِ مُناقشة..! لم أفهم أسباب تلك الغضبةِ، ربما حدةُ المناقشةِ أو ذكرُ صديقِه بالسوءِ أوجعه، لكنَّ الأهمَّ الآن هو ذلك الإحساس الذي يفتك بي.. أريد أن يُلعنَ أبي أمامي كي أُثبت أني على حقٍّ ولن أُطيقَ سماعَ كلمةٍ سيئةٍ عنه..حالةٌ نفسيةٌ قاتلةٌ ستفقدني صوابي.. تكاد تذهبُ بعقلي..تخنق أنفاسي.. لحظاتٌ حتى انفردَتْ بي أمِّي.. حوارٌ آخرُ ينتظرني في أول ليلةٍ أطأُ فيها بيتي منذ ثلاثِ سنواتٍ، الأسئلةُ كثيرةُ لدينا..كلٌّ منَّا يريد إجاباتٍ ظلَّ يبحث عنها سنواتٍ، كلٌّ منَّا يريد أن يسمع .

- عملتى عزا مخصوص ليا ليه؟

- علشان بيقولوا اللي خلف مامتش ولازم يبقى في راجل ياخد عزاه.

- انتي عارفة اني عمري ما هترحم عليه.

- طب سمعت الكلام وجيت ليه كان ممكن تتحجج كتير واللي خلاك تغيب ٣ سنين من غير ما تقولنا يخليك تعمل حاجات أكبر

- جيت علشان مترعليش مني ومغضبكيش.

- ولا جيت علشان نفسك تاخد عزاه؟

- آخد عزا واحد تاجر فيا.. انتوا ليه مش حاسين بيا ..باللي عملوا.. عم صادق يقولي كان كويس.. وانتي تصري آخد عزاه بإيدي كأني أنا اللي غلطان في الآخر..أنا اللى تاجرت بلحمي.. رميته في البحر..

انتوا بتشوفوا الموضوع بالمقلوب.. بتحاكموا المجني عليه وسايبين الجاني.

- الجاني عند ربه هيحاسبه.

- ايوااااا انتي تقولي ليه رب يحاسبه وهو يقولي ليه رب يحاسبه، طالما كده ماتسيبوني أنا كمان لربنا يحاسبني ولا هي جت عندي وهتعملولي محكمة.

- سبتني ليه ٣ سنين؟

- غضب عني.

- غصب عنك تبعد عن أمك وتسيب قلبها مقهور عليك بتتمني تسمع صوتك.

- ربنا يعلم كان نفسي أسمع صوتك واترمي في حضنك لكن مقدرتش.

- مخفتش لأغضب عليك؟

-عارفك هتسامحي.

- ليه؟

- لإنك أمي.

- أسمع يا ابني لا الأم هتعرف تقسي ولا الأب هيقدر يبيع ضناه..أبوك اتشل يوم الحادثة.. ٣ سنين..٣٦ شهر.. ١٠٩٥ ليلة قضاهم في أوضتك.. طلع صورك كلها وكان بيبصلهم وعينيه بصالي كأنه بيقولي غلطتي، حاولت أهوّن عليه .. كل ما كنت أقرب منه كان بيبكي..أبوك عيط يا يوسف.. عيط فاهم الكلمة!.. صادق باشا بهيلمانه وسلطته وجبروته ونفوذه وماله وجاهه كانت دموعه مبتقفش..آخر حاجة مسكها هي صورتك.. لو حجر هتسامحه لكن هو عند اللي أرحم مني ومنك.

❊ ❊ ❊

" ليس ثمّةَ ما تبقّى لي غيرك وأنت تبدوا بعيدة "

غسان كنفاني

(الخطوة الأُولى. .والأخيرة)

غيابُها طال، تكتفي دومًا بثلاثةِ أيامٍ من كلِّ إجازة، الآن هي مُتغيِّبةٌ منذ أسبوعٍ،أنا أنتظرها لأقولَ لها أحبك.. غادة تعلم ذلك.. تدرك منذ اليومِ الأولِ الذي رأيتُها فيه بضفائِرها والزيِّ المدرسيِّ.. يومَ أن طلب مِنّي أبوها أن أعتني بها، الأمرُ لن يستحقَّ سوى الاعترافِ فقط.

الورقُ أمامي متناثرٌ.. لا أستطيع أن أُرتبه.. مفترضٌ ترتيبُ كلِّ ما يتعلق بزيارةِ المنظمةِ إلى سجنِ العقرب، هناك وفدٌ سيذهب يسأل السجناءَ: كيف أحوالُكم..؟! فيجيبون: نحمد اللهَ.. ويبتسم مديرُ السجنِ الذي يُقسمُ طيلةَ الوقتِ أنَّ سجنَه ٥ نجوم، نعلم أنهم يكذبون وهم يعلمون أنهم يكذبون..ونجيب محفوظ كتب "إنهم كاذبون" وأحمد ذكى جسَّدَ المشهدَ بعبقريةٍ.. والإعلامُ يعلم أنها مسرحيةٌ والجميعُ يصرُّ على تكرارِها.. يا لسخافتِهم .

تركت الورقَ لأصنعَ لي كوبًا من النسكافيه، منذ أن جئتُ إلى هنا وسمحَ لي مديرُ المركزِ أنْ أتَّخذَه مسكنًا فأصبح عملي هو مسكني، ومن الناحيةِ الماليةِ الأمرُ مُجدٍ.. أما على الجانبِ الآخرِ فأشعر أحيانًا أني سجينُ تلك الجدرانِ حتى لو كانت في جاردن سيتي.

لا أريد العودةَ إلى الورقِ.. فتحتُ نوافذَ الحجرةِ لأشتّم بعضَ الهواءِ الباردِ الذي يحمل معه دومًا نسماتٍ تُثلج قلوبًا مشتعلة كثيرًا، أطوف في الحجرةِ أحاول أن أرتّب أفكاري..غادة ستعود غدًا.. كيف أبدأ..؟! مشكلتي أنها تقرؤني جيدًا، ربما يكونُ أولَ سؤالٍ سيخطرُ على بالِها لماذا الآن..؟حسنًا فليكن.. فقد انتهيتُ الأسبوعَ الماضي من تراخيصِ إنشاءِ منظمةٍ حقوقيةٍ سأرأسها وهناك مؤشراتٌ إيجابيةٌ على أن أتلقَّى مِنحًا من الاتحادِ الأوروبيِّ وبعضِ المنظماتِ الدوليةِ التي من الممكن أن تساهمَ، أعلم أنَّ الكثيرين سينظرون إلى الأمرِ على أنه خيانةٌ للوطن، أنا نفسي لا أُنكر أنني أتطلَّع للمال، لكنَّ المنفعةَ متبادلةٌ سأدافع عن المظلومين وأشاكس الحكومةَ..!فمن جهةٍ قد أكون سببًا في إخراجِ بريءٍ وقد حدث ذلك كثيرًا خلال السنواتِ الماضيةِ وأستفيد أنا بدلًا من مديرِ المركزِ، ستكون تلك إجابتي عليها الآن..أستطيع أن أبني بيتًا .

منذ ثلاثةِ أعوامٍ جاءني اتصالُها لأولِ مرةٍ بعد غيابِ عامين..عرفتُ من أبي أن زوجَها مات قضاءً وقدرًا، وقتَها لم يكن في المنظمةِ أيُّ فرصةٍ للعمل لولا أني أقنعتُ مديرَ المركزِ أنَّ الموقعَ الخاصَّ يلزم له متابعٌ دومًا ، وافق ووجد فيَّ من يقوم بتلك المهمةِ، لم أكن لأفعلَ ذلك فقط من منطلقِ الشهامةِ، بل لتكونَ بجواري، فرصةٌ من أجلِ ترميم علاقتِنا التي انقطعت منذ أن تزوجت.. نعم علاقتُنا التي لم نصارح فيها بعضُنا بعضًا لكنَّها مستمرةٌ خلالَ عشر سنوات، تسكن روحانا ويدور تفاصيلُها في أحلامِنا الليليةَ فقط، كم حلمت بها في حضنى تحت سقفِ بيتٍ واحدٍ.. رسمت شقَّتَنا زاويةً زاويةً..اخترت أسماءَ أولادِنا وتركت لها تسميةَ الابنِ الأولِ.. أولُ من يمنحُها لقبَ أمٍّ.. تنازلتُ عنه بمحضِ إرادتي..تلك الذكرياتُ من صبَّرتني حتى الآن.

ماذا غيرُ ذلك..؟ أعتقد أنها لن تشكَّ في حبي.. هذا أمرٌ لا يقبل الشكَّ.. ربما تكونُ الظروفُ الجديدةُ فقط هي ما يمكن الاختلافُ عليها خاصةً أنها أرملةٌ..! لكن لا نتعجل الأحداثَ فربما نجد الحلَّ.. المهمُّ الآن الخطوةُ الأولى..!

❋ ❋ ❋

"كنتُ أُريد أرضاً ثابتةً أَقف فوقها، ونحن نستطيع أن نخدعَ كلَّ شيءٍ ماعدا أقدامَنا . . إننا لا نستطيع أن نُقنعَها بالوقوفِ على رقائقِ جليدٍ هشةٍ مُعلَّقةٍ بالهواء"

غسان كنفاني

(لأنك تُشبهني)

القاهرةُ كما هي.. هواءُ الساعاتِ الأولى من الصباحِ لم يمنع الناسَ من التواجدِ في الشوارعِ.. أسأل نفسي كثيرًا متى يهدأُ "ميدانُ رمسيس" ومتي يختفى منه الناسُ، مرةً واحدةً فقط استمتعت به هادِئاً..الساعةَ الخامسةَ صباحًا..وصلت مبكرًا فأردت أن أتمتعَ بهذا الميدانِ الذي أشعر بمعاناته وهو يحتضنُ الباعةَ الجائلين والميكروباصات والمسافرين طوالَ اليوم..وقتها سرت على الأقدامِ من "رمسيس" إلى "بولاق الدكرورِ"..!

اليومَ إجازة..أمرٌ اعتدته منذ أن قررت الإقامةَ في القاهرةِ..آخرُ يومٍ للإجازةِ أقضيه في القاهرةِ حتى أستطيع الذهابَ إلى العملِ بعد ذلك، هناك حدثٌ كان في انتظاري ذلك اليومَ بعد أن اتَّصلَ بي خالد يخبرني ضرورةَ الحضورِ إلى المركزِ اليومَ إذا كنتُ في القاهرة.

أكثرُ من ٢٠٠ معتقلٍ يجب إدخالُ بياناتهم الآن على الموقعِ وإرسالِ إيميلاتٍ بأسمائهم لكافةِ وسائلِ الإعلامِ للنشر.

محمد صدقي في "السويد" لحضورِ مؤتمرٍ عن الحرياتِ و"إيمان" زميلتي الجديدةُ لم تكن تُسعفُ في تلك الأوقاتِ التي تحتاج إلى مُتمرّسٍ في العمل.

- إيه ده كله هو انقلاب ولا ايه؟

رد خالدٌ بعينين تفحصانِ جسدي أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ:

- لأ بس يناير على الأبواب ولازم يبقى فيه حملات كده.. دي حاجة كنا فاكرين البلد بطلتها لكن واضح انهم مصرين على نفس الطريقة؟

اقتصدتُ في الكلامِ..أكره الحديثَ بسببِ نظراتِه.. ذلك المتباهي بعضلاتِ جسدِه ووسامتِه التي لم أرَ أقبحَ منها..! منذ أن جئتُ إلى المركزِ وعرفَ أني أرملةٌ وهو يحاوطني بكلِّ شيءٍ، أعزبُ، يملك شقةً،وعمل، وقاربَ الثلاثين، ولا همَّ له سوى ملاحقةِ البنات، أعرفُ قصتَه مع "ريهام" زميلتي، وكيف وعدَها بالزواج ثمَّ تخلَّى عنها بعد بضعِ قبلاتٍ، وقصصٌ كثيرةٌ لم أكن في حاجةٍ إلى معرفتِها..!

أدخل البيانات، شيوخٌ ويساريُّون وليبراليون وناصريون، صحفيون ومهندسون وأطباءُ، كلٌّ منهم له حياتُه..أهلُه وأصدقاؤه، أفكر في اللحظة التي قُبِضَ عليهم فيها، تُرى بماذا كانوا يفكرون في تلك اللحظةِ التي كُسرت فيها أبوابُهم..؟ لحظةُ ترويعِ الأطفالِ وانتهاكِ الحرمات.. لحظةُ ميلادِ الكراهيةِ للبلد، وظهورِ نَفقِهم المظلمِ،أدرك جيدًا أنَّ قواتِ الشرطةِ لا تقبض عليهم إلا ليلًا..يبدأ المشهدُ بهدوءٍ طبيعيٍّ..نوافذُ مفتوحةٌ..أضواءٌ خافتةٌ..فجأةً تمتلؤ الدنيا بالعساكر.. يحتاطون البيوتَ ويُؤمِّنون السقفَ ويستعينون ببعضِ المدرعاتِ للقبضِ على فردٍ أعزلَ مريضٍ في أغلبِ الأحيان، سياسةٌ ممنهجةٌ تتبعها وزارةُ الداخليةِ منذ قديمِ الأزل، لكن في تلك اللحظةِ.. وبياداتُ الجنودِ حين يصعدون درجاتِ السُّلَّمِ..ماذا كانوا يقولون..؟ من بعد ثوانٍ سُيزَجُّ بهم في السجون، بعضُهم همس في إذنِ زوجتِه: أحبكِ..وآخرُ يلاطف طفلَه، وثالثٌ يُتابعُ مع الطبيبِ حالةَ ابنِه المقبلِ بعد أسابيعٍ.. ورابعٌ يستعدُّ لنومٍ عميقٍ بعد يومٍ مرهق.. ربما كان الوقتُ مناسبًا لبعضِهم؛ فقبض عليهم وهو يحضِّر لمسيرةٍ أو يتحدث مع أصدقائه على ما يحدث في البلادِ خلالَ الفترةِ المقبلة..!

الأسماءُ كثيرةٌ ومتنوعةٌ، يبدوأنَّ الحملةَ مكثفةٌ تلك المرةَ .

استوقفني "عمر هشام" طفلٌ لم يتجاوز عمرُه الـ١٥ عامًا ضمنَ الكشوفِ، وكانَ جُرمُه تكديرَ السلمِ العامّ وقلبِ نظامِ الحكمِ والانتماءِ لجماعةٍ إرهابيةٍ..! لم تكن تلك التُّهمُ تليقُ بطفلٍ أقصى أحلامِه أن يزورَ دريم بارك..! كيف سيُرمَى في السجونِ وليلِها الموحشِ.. كيف سيقضي أيامَه تلك بعيدًا عن أبويه.. الدولةُ فَجرت..!.

إيهاب السعدي.. اسمٌ لمع أمام عيني.. نعم هو..! صاحبُ الشعرِ الأكرتِ والكوفيةِ الفلسطينيةِ التي لم تفارقه، زميلي في كليةِ الاقتصادِ والعلومِ السياسية، والمنظِّمُ لمسيراتِها ضدَّ الحرسِ الجامعيِّ، إلى هنا كان يبدو الأمرُ منطقيًا أن أضعَ اسمَه إلا أنه أيضًا هو أوَّلَ من قال لي:

- لو كنتي مسلمة كنت اتجوزتك» أتذكر الحديث وأنا أقول له ضاحكة «مش دينك بيسمحلك» فيرد« اقدر اقف قدام الداخلية، الرئيس نفسه لكن مقدرش أقف قدام تقاليد حتى لو مكنش ليها اساس من الصحة دول عاوزين حرب طويلة..!

التهمةُ.. الانتماءُ إلى جماعةٍ إرهابيةٍ، كلماتٌ قرأتُها كأنها المرةُ الأولى.

"إيهاب" المقبلُ على الحياةِ.. اليساريُّ النزعةِ أصبح ينتمي لجماعةٍ إرهابيةٍ، ذكرياتُه معي حضرت للتوِّ.. يومَ أن عرّفني بنفسِه لأولِ مرةٍ:

- محسوبك ثوري ومستقبلي اسود إن شاء الله»، ضحكته الساخرة من كل شيء وشعيرات ذقنه صورة كلاسيكية لطلاب اليسار.

- وانت بقى قالولك علشان تبقى ثوري لازم تلبس كوفية وتسيب شعرك وتلاقيك كمان مبتستحماش.

- طبعا.

- ومين قالك كده؟

- عماد ماكدلي.

- عماد مين؟

- لا دي قصة طويلة اوي وشكلك لسه جاية من البلد وملكيش في الإفيهات انا همشي وهشوفك تاني.

وانطلق يرتقي قفزاً فوقَ سُلَّمِ الكليةِ في رشاقةٍ أعجبتني كثيرًا، لاحقًا أصبح أحدَ أصدقائي المقربين.. أحدَ المتسببين في ضحكي..! بل شعرت للحظةٍ أني أُحبُّه.. المرةُ الأولى التي أُعجب فيها برجلٍ يضرب بكافةِ القوانينِ عرضَ الحائط، يعيش كما هو.. كيفما يريد وفي الوقتِ الذي يحددُه.. ينطُّ من على سورِ الجامعةِ ويقضي ليلةً أو ليليتين أُسبوعيًا في أيِّ قسمٍ.. يتسكَّعُ في مقاهي وسط البلد ويجلس في مقهى ريش يسخر من النخبةِ..! لديه حلمٌ لم يبُح به لأحدٍ سواي..أن تكونَ له أسرةٌ وبيتٌ هادئٌ وابنةٌ تدرك معنى الحريةِ دون أيِّ قيودٍ.. الأمانُ يا غادة هو ما أبحث عنه..!

ورقةٌ كتلك؛ كفيلةٌ بأن تمحو أيَّ إحساسٍ بالراحةِ لأسابيعَ مقبلةٍ.. لم أتكيَّف مع الأمورِ، قلت لربيع: إنها مجردُ أرقامٍ لكني لا أستطيع منعَ نفسي من أن أُفكرَ فيهم كبشرٍ، تلك المرةَ مُفجعةٌ.. أحدُ أصدقائي ضمنَ المقبوضِ عليهم، تحسَّستُ الأخبارَ عنهم فعرفتُ أنَّ احتماليةَ خروجِهم لن تكونَ قبل ثلاثةِ أشهرٍ..!

بخطوةٍ خفيفةِ الصوتِ وسَعلةٍ تُشيرُ إلى أنَّ هناك مَن بالمكتبِ دخلَ"أبانوب" مبتسمًا كعادتِه لكنَّه يحمل في تلك المرةِ عيناً قلِقَةً ويدًا لاحظتُ ارتعاشتَها قليلًا:

- حمد الله على السلامة.

- الله يسلمك.

- أخبار الاجازة ايه؟

- البلد زي ما هي متغيرتش لكن لازم نروحها علشان نشوف أهلنا.

- لسه المدرسة زي ما هي عارفك بتزورها كل اجازة.

بنظرة مبتسمة رددت

- أكيد دي طفولتنا يا ابانوب.

- وراكي إيه بعد الشغل عارف أنهم جابوكي على ملا وشك ايه رأيك نتعشى بره؟

- مفيش مشكلة كمان ساعة هخلص وننزل.

قليلةٌ هي المراتُ التي يدعوني فيها للخروجِ، تبِعت خطواتِه وهو يخرج من مكتبي شابًا نحيفاً يرتدي "بلوفر" أسودَ أسفلَه قميصٌ أبيضُ يُخرج ياقته عن عُنقِ "البلوفر" تعلو وجهَه نظارةُ نظرٍ سميكةُ الزجاجِ، وله شعرٌ ناعمٌ قصيرٌ دومًا.."أبانوب" المحامي صاحبُ البشرةِ القمحيةِ والعيونِ البنيةِ..قادته ثورةُ يناير إلى العملِ في هذا المركزِ، وقتَها كان طالبًا في كليةِ الحقوقِ في جامعةِ القاهرة، لا يخطط لأيِّ شيءٍ سوى الانتهاءِ من دراستِه.. جمعته الثورةُ مع مجموعةٍ من الحقوقيين وتوطدت علاقتُه به حتى تخرَّج وعمِلَ محاميًا حقوقيًا يدافعُ عمَّن يُسجن أو يُعتقل.. فترةٌ قصيرةٌ ولمع اسمُه فاستعان به صدقي أثناء تأسيسِه لهذا المركز.

كان أولَ من استقبلني في القاهرة.. دبَّر لي مكانًا للسكن ومن خلالِه عرفتُ"ندى" صديقتي الأقرب، أما هو فعلاقتي به تعود إلى الطفولةِ.. رفيقي في المدرسةِ الابتدائية، نظراتُه لم تتغيَّر طوالَ السنواتِ الطوال، عاشقٌ في صمتٍ.. أدرك ذلك جيدًا، وأعلم أنه أولَ من فرحَ بسببِ وفاةِ زوجي حتى لو كان هذا لا يعني زواجَنا .

لا أدري لماذا يصبر كلَّ هذا الوقت، حاولت في مرحلةِ الثانويةِ أن أُشجعه من خلالِ بعضِ الضحكاتِ كان يسعد بها لكنه لا يُحركُ ساكنًا، كلُّ الأمورِ كانت متاحةً فأهلُه جيرانٌ لأهلي، كما أنّه يملك البيتَ الذي يمكن الزواجَ فيه بجانبِ السمعةِ الطيبةِ..! والأهمُّ من ذلك أني لا أرفضه.. أسأل نفسي هل هو مُصابٌ بداءِ"جُبران": العشقُ من أجلِ العشقِ فقط.. أيُّ ضعفٍ هذا الذي يمنعه من أن يفصحَ عن حبِّه لأكثرَ من ١٥ عام.

أتذكر المرةَ التي قالت لي منالٌ أخبريه أنك تحبينه.. يومَها ذهبت وحاولت أن أبدأَ معه كلامًا متحررةً من أيِّ قيدٍ، ارتباكُه جعلني أُنهي الحديثَ سريعًا.. أبانوب ليس ضعيفًا إلا أمامي فقط حتى تزوجتُ أمام عينيه، خذلني في أولِ أختبارٍ حقيقيٍّ.. من ماذا يخاف..؟ سؤالٌ لم أدرِ إجابتَه بعد.

اختار الإقامةَ بالقاهرةِ بعد أن قضى أولَ عامٍ متنقلًا بين "المنيا والقاهرة"..الحقيقةُ هي أنه قرر ذلك بعد زواجي حتى جئتُه، فعرف أن زوجي مات وسعى لي في العملِ أكثرَ من مرةٍ حتى أصبحتُ زميلته في نفسِ المكتب.. ثلاثُ سنواتٍ أقتربُمنه من أيِّ وقتٍ مضى..نظراتُه لم تتغيَّرلكنه ازداد قلقًا .

الثامنةَ مساءً.. مقاهي وسط البلد هادئةٌ في هذا اليومِ الشتويِّ، تناولنا العشاء.. أكثرَ من ساعتينِ مرَّا ونحن نتحدث حديثًا يُخفي وراءه حديثًا، عينا أبانوب تفضحانِه دومًا.. في الماضي كنت لا أسأل وأكتفي بالإشاراتِ أما الآنَفبمجردِ أن طلب مني أن نتمشى قليلًا بعيدًا عن جلسةِ المقاهي سألته.

- ايه اللى عاوز تقوله؟

- بحبك يا غادة.

- منا عارفة، من أيام الدراسة !

- بالظبط.

- وليه بتقولي دلوقتي؟

- طول السنين اللى فاتوا وانا بحبك ولما اتجوزتي قفلت على الموضوع وحاولت ابعد على قد ما اقدرلكن بقيتي معايا رجع الحب تاني، انا كذبت على نفسي لما قلت إني نسيت ..الحب زي ما هو بلهفته وشوقه.. لسه بشوفك من بعيد وافرح.

- وليه دلوقتي... زمان كنت مستنياك تقولها ومقلتهاش!

- مكنش ينفع اقولها، طالب لسه بيدرس مش عارف الدنيا هتعمل معاه ايه، ابويا معندهوش الفلوس اللى تجوزني يدوبك عرف يربينا كويس، هاجي اقول لأهلك ايه ، لا شغلة ولا مشغلة ولا شقة ولا هقدر أوعد بحاجة.

- على الأقل قولي.

- ولا انت حتى ، لإن أبسط حاجة وبعدين ودي كلمة معنديش ليها رد وانا محبش أبقى شايل هم،استنيت أقف على رجلي واجيلك بس انت اتجوزتي أسرع ما كنت متخيل ، يوم جوازك يوم موت لقلبي.. كرهت كل حاجة في الدنيا تصدقي كرهتك انت كمان ازاي متستناش رغم إني عارف انك ملكيش ذنب.

- فكرت وحكمت مع نفسك هتعاتبني.

- ده اللي حصل.

- عارف يعني ايه نتجوز؟!

- عارف، يعني مشكلة كبيرة لانك أرملة.. البلد عندنا هتولع..أهل هيرفضوا الموضوع ونظرات الناس مش هترحم.

- هتقدر تتحمل كل ده؟

- مش عارف بس وانتى معايا اكيد هنقدر.

- مش هينفع.

- ليه؟

- لإنك شبهي.

- مش فاهم.

- زمان مكنتش عارفة أنا مين ولا عاوزة إيه.. لو اتقدمتلي كنت وهبقى مبسوطة ، لكن بعد السنين ديه اكتشفت انك شبهي أوي.. دايما مستني حد معاك علشان تواجه، أبسط الحاجات ممكن تزعلك وحياتك ممكن تقف على حاجات كتير، أنا زيك بزعل اسبوع بسبب موت حد أنا معرفوش لمجرد أني

شوفت صورته ووجعتني، احنا مش بنتفق على حب احنا بنبني حياة لازم يبقي فيها تكامل، حاجة كده زي البطارية سالب وموجب أنا مش عاوزة حد شبهي عاوز حد اكمل بيه.

لم يكن يتوقع تلك الإجابةَ.. هذا السببُ بالتحديدِ.. يراني قويةً دومًا..تلك القوةُ الظاهريةُ تُخفِي قلبًا هشًّاً ووجهًا قابلًا للإنكسار.. هذا ما أوضحتُه في حديثي الذي لم يملك أمامه سوى جملةٍ واحدةٍ:

- اللي تشوفيه يا غادة..غادر يجرُّ أذيالَ الهزيمةِ، حلمُ العمرِانهار في ثوانٍ معدودةٍ.. لم يستطع أن يقولَ: لا.. سأقاوم وحدي فهو يعلم أنه أجبنُ من ذلك..!

برسالةٍ مقتضبةٍ أخبرتهم في المركزِأني في إجازةٍ غدًا، ليس هناك من اليومِ.. صديقي تمَّ حبسُه، وأطفالٌ سيبيتون ليلتَهم في السجن، ومواجهةٌ لم أستعدَّ لها..! لماذا قرر أبانوب الآن أن يبوحَ بالسرِّ..؟! لماذا لا ينتظر يومًا أو يومين حتى لا تكونَ المصائبُ في يومٍ واحدٍ..؟ وماذا كان يتوقع.. أن أتزوجَه.. تلك المعركةُ التي تحتاج إلى أبطالٍ..امرأةٌ أرملةٌ في بلدٍ تمنع الزواجَ الثاني بحكمِ العاداتِ..أهلٌ وجيرانٌ و سلاسلُ من الحديدِ ستكبِّلُني، معركةٌ بتلك الشراسةِ لم أخشَها،ولكني أنتظر من يبدأ وماكان أبانوب ببادىءٍ، آلمني شعوري أني قسّوت عليه، صوتٌ ما بداخلي يهمس: أنَّ ردّي لم يكن فقط من أجلِ هذا؛ بل ربما أردت أن أردَّ له الصفعةَ.. أن أخذلَه كما خذلني وهو يراني في يدِ رجلٍ ثانٍ سيبيتُ ليلتَه في فراشي ..مناجاةُ عينيَّ له في الذاكرةِ.. رجلٌ ينسحب من مشهدِ فيه حبيبتُه..!

أفكاري انتهت عند بابِ كنيسةِ الدوبارة، لا أعلم كيفَ وصلت إليها.. ما الذي جاء بي إلى هنا أمرٌلم أُدركه إلا وأنا أعطي القسَّ"بولا" جوابَ يوصِّلُه إلى الرجلِ الذي لا أعرفُه..فَفهِمَ الإشارةَولم يتفوَّه بكلمةٍ مع ابتسامةٍ تشير إلى رضاه عما يحدث..!

❋ ❋ ❋

"أموت اشتياقًا ،أمو تاحتراقًا ،وشنقًاأموت، وذبحًا أموت ولكنني

لا أقول مضى حبُّنا وانقضى، حبُّن الايموت"

محمود درويش

(الصمت)

تركتني ورحلتْ بعد أن رفضتني بقوةٍ وصمود، لم أفهم ماذا قصدتْ بأني أُشبهُها كثيرًا..؟! وكيف أُرفضُ بسببِ هذا..؟! عن ماذا تبحث..هل أخطأت..؟

العودةُ إلى "جاردن سيتي" أم الذهابُ لمكانٍ آخرَ لا أدري، طُفتُ شوارعَ وسط البلد.. أذهب وأعودُ من الشارعِ نفسِه لعلِّي أجد إجابةً لكلامِها، شيءٌ واحدٌ فقط أخافُ منه..أن تخذلني معتقدةً أني أيضًا خذلتُها بصمتي خلالَ تلك السنوات.

لم يكن زواجُها بالأمرِ اليسيرِ عليّ، أتذكر اليومَ جيدًا، عائدًا لأقضيَ يومَي الخميسِ والجمعةِ في البلدِ كعادتي في كلِّإجازة، البلدُ بها شيءٌ..هواؤها استقبلني بارداً محمَّلًا بالأتربةِ كأنَّ القريةَ لا تريدني، بجوارِ بيتي لمحتُ أنوارًا كثيرةً، وسمعتُ أصواتَ الزغاريدِ صمّت إذني،لم تدع لي مجالًا للشكِّ في كونه عُرسًا في بيتِ الحاج عبداللاه..سالي..؟! لكنها صغيرةٌ وأبوها ليس من هذا النوعِ الذي يلهثُ لتزويجِ بناتِه..!والقريةُ جميعُها تعرف اعتزازَ هذا الرجلِ ببناته.

زادت نبضاتُ قلبي..النورُ الذي ضرب في عيني أدَّى لرعشةٍ سرَتْ في جسدي..سمعت غمغماتٍ مباركةٍ لغادة، زادت الكلماتُ وضوحًا كلَّما أقتربتُ من منزلي الذي رأيت فيه أمِّي تُزغرد رغم علمِها بأني أحبها..!إحساسي لم يكن مُهمًا.. أمي فرحت بجيرانِها، لا أحدَ شعر بي حين دخلتُ حجرتي.. لم يلتفت أحدٌ لزجاجِ قلبي المحطمِ وعقلي الذي شُلَّ كقائدٍ قُتلَ من أقربِ أعوانِه.. لم يَجبر أحدٌ بخاطري ولو كذباً، أغلقتُ البابَ عليّ محاولًا عدمَ سماعِ أيِّ شيءٍ.

تظنُّ هي أني تخلَّيتُ عنها بصمتِي، لا تعرف الكثيرَ ولم أشأْ أن أقولَ لها، فضَّلتُ أن أحتفظَ بصورتي أمامَها أو بالأخصّ صورةَ أبي "فاضل المحروس" الرجلُ المزارعُ الذي هدّه الزمانُ؛ فلم يعد يستطع أن يزرعَ بنفسِه فاستأجر عُمَّالًا يقاسموننا نصفَ ما يُنتِجه قيراطا الأرضِ هي نصيبُنا من الدنيا، البيتُ مستورٌ لكن غيرُ قابلٍ لأيِّ طوارئٍ.."سلمى"أختى أصبحت آنسةً وتجهيزُها هو المطلوبُ، ،وأنا لا أمتلك شيئًا أتقدم به، ولا أمتلك الإفصاحَ عن حقيقةِ وضعِنا الماليِّ، السترُ دعوةُ أبي وأمي.. فلا يمكن أن تهتزَّ الصورةُ، غادة تراني قادرًا على الزواجِ وأنا أرى نفسي عاجزًا حتى عن مساعدةِ أبي لتوفيرِ

النفقات، أشعر أحيانًا بالندمِ في عينيه لأنَّه لم يُنجب ولدًا آخرَ ليكونَ سنداً له في الأرض.. تقولُ لي أمي:إنه طالبَ بإنجابِ ولدٍ آخرَ مؤكدًا لها: إني لا أهوَى تلك المهنةَ..! لكنَّها تحجَّجت بالمرضِ وكبرِ السنّ، والحقيقةُ أنها لم ترَ مبررًا لإنجابِ طفلٍ ثالثٍ في ظلّ تلكَ الحالةِ الماليةِ التي كانت تصفُها بأنها " ع القد".

الزواجُ ليسَ مرهوناً بكلمةِ "أحبك" فقط.. دخولُ الأبوابِ يلزمُه استعداداتٌ أخرى، أبوها الذي يغازلُها لن يغازلَني.. لن يراني بعيونها حتى يوافقَ على كلِّ شيءٍ، التقدمُ يعني الكثيرَ..وأنا عاجزٌففضَّلتُ الصبرَ حتى أستطيعَ.. ظننت أنها ستنتظرني.. هي صغيرةٌ وأنا لن أغيبَ..!ولكنَّ زواجَها جاء أسرعَ ممَّا أتصور.

عامان مرَّا على تلك الصورةِ قبل أنْ تتصلَ بي مرةً أخرى، وتعمل معي، وحتى أبدوا مُقدِّرًا للموقفِ الجديدِ، لم أحاول أن أُظهِرَ لها أيَّ مشاعر.. أريد أن أُثبت لها أنَّ العملَ من أجلِ العملِ فقط بالإضافة إلى أنَّ الظروفَ لم تتحسن كثيرًا، لكني راقبتُها بصمتٍ..ملاكُها الذي يحرسُها دونَ أن تدري.. وأطمئنُ على أخبارِها من "ندى" التي أدركت أني أُحبها؛ وإن أقنعتها أن العشرةَ فقط هي ما تدفعني لذلك، حتى خالد هشّمت وجهَه يومَ أن حاولَ التحرَّشَ بها، رأيته بعيني فلما ذهب الجميعُ لم أتمالك إلا أن أنهال عليه ضربًا حتى يبعد عنها .

الصمتُ طريقي حتى ذلك اليومِ، ولا أملك سواه بعد ذلك، هل سأذهب إلى العملِ غدًا..؟! سؤالٌ غبيٌّ..فهُمْ من يجيئون إليّ..أمَّا أنا فلا أُفارق العملَ أبدًا..!

❊ ❊ ❊

"الموت، يا إلهي! ....

أن نراه قريبًا إلى هذا الحدّ وأن ننتظره ليل نهار!"

غسان كنفاني

(بحث عن إجابة)

يستعدُّ للرحيلِ.. البيتُ مكتومٌ، لا هواءَ ولا شمسَ..أُدرك غضبه، شعورُه أني خذلته.. أمه لم تحنُ عليه.. وقفتْ في صفِّ أبيه ضده ولم تكترث، شعرت بذلك حين صرخ:

- ماتسيبوني أنا كمان لربي ولا جت عليا.. لم يقل: إنه يريد من يفهمه، ولدٌ باعه أبوه فانتقل من القصورِ إلى الشوارعِ الضيقة في البلادِ الغريبة.. سافر من اليونان إلى الإماراتِ وارتضى أن يعملَ كنقاش..ابني تعرض لذلك كلِّه، كنت أبكي لكي يُفصحَ لي "مندور" عن أيِّ شيءٍ، أقسمت على أنه سرٌّ لن يفارقَ شفتيَّ حتى الموتِ، دموعي سببٌ لِأن يروي لي ما يعرفه، لم أستطع أن أفكرَ فيما قد تعرض له .يفكر كثيرًا لماذا لم أُنصفه، لم أقل له نعم.. لك حقٌّ أن تكره أباك.. باعك وخانك.. ربما انتظر أن أقولَ له اليومُ يومُك، لكنني قلت: له ربٌّ يحاسبه، صرخت في وجهِه: هو عند من هو أرحمُ منك.. لا أعلم، هل مَن هُم مثلُ صادق باشا سيرحمهم الله أو لا..؟! ما فعلته له أكثرُ من سببٍ أوله:أنه متردد.. إصراري على أن يأخذَ عزاءَ والدِه سؤال: هل مازال يحبه..؟ لو جاء سيكون على الأقلِ غيرُ قادرٍ على كرهه، أعرف الذكرياتِ بينهما.. صادق كان حنونًا عليه، أحدُ الأشياءِ التي أشفقتُ عليه منها.. لقد أراه أبوه حنانَ المسيح وغضبَ الشيطان. تأكدت منذ اللحظةِ الأولى أنه مهزومٌ، ابني المدللُ شابَ فجأةً، نبرةُ صوته المكسورةِ وعيناه الزائغتانِ وجفنُه المائلُ إلى السوادِ يشير إلى ذلك، بمجردِ أن وقف أمامي ألقى شنطته بيدٍ مرتعشةٍ قليلًا، وارتمى في حضني وبكى لينفثَ عنه كلَّ تلك الهموم..آآآهٍ من تلك اللحظةِ..! أولُ دمعةٍ نزلت منه على صدري أبكتني أنا الآخرى.. شعورٌ بالانهيارِ تسلَّلَ إلى جسدي، يداي رخوتانِ، أما عيني فقد حُبِسَتْ دموعُها ليس بأمر مني بل لثقلِ ما أشعر به، لم يُدرك "يوسف" وأنا أربتُ علي كتِفِه وأُكفكف دمعَه.. إني أريد أن أنهيَ الموقفَ حتى لا أنهار أمامه..قدماي غيرُ قادرتين على حملي، ظنّ أني جامدةٌ.. والحقيقةُ أنني أحاول أن أثبُت أمامه.. حمدتُ اللهَ على أنه آثرَ الصمت، ولو بيدي لاختبأتُ بصدره وبكيت، يظنُّ الأولادُ أنهم فقط من يحتاجون لحضننا..! لا يعرفون شعورَ أمٍّ تريد الاحتماءَ بابنها..حينَ تحتاجُ إلى أن ترتميَ في حضنِه القادرِ على حملِها بعد أن ربَّتْه السنواتِ الطوالَ لتلك اللحظة، في الأمثالِ يقولون: "الولد للكفن" ولم يذكروا أننا نحتاج إلى من نرتمي في حضنِه بعد

الزوجِ..! أراقبه وهو يأخذ عزاءَ أبيه، ممسكًا بأعصابِه..!ملامحُ وجهِه جامدةٌ لا.. ابتسم فقط حين ذهب إلى الطفلِ"خلف" الذي أحبَّه زوجي كثيرًا حتى حكي لي ذاتَ مرةٍ عنه، هذا الطفلُ له دعاءٌ مخلِّص لي؛ فحين أعطيه المالَ أشعر براحةٍ خلال اليومِ كلِّه.. صدق المسيحُ حين طالبنا بالصدقةِ، ابتسم"يوسف"فأدركت أنه يبحث عن أيِّ شيءٍ حلو لإبيه حتى في حديثِه مع "صابر" بعد ذلك. يسأل أكثرَمن أن يغضبَ:

- لماذا فعل معي ذلك؟، لماذا تدافع عنه، لقد باعني، هل كان يدرك..؟!كلُّها أسئلةٌ يريد لها أجوبةً، أن يهدأَ فكرُه ولو قليلًا، لو كره أباه ماذا ستفيدُه الأجوبةُ..سيختلُقها هو ويبني عليها قرارًا، لن يأتيَ من الأساسِ ولن يلومَه أحدٌ لكنَّه مازال يُحبُّه أو على الأقلِّ لم يكرهه.

- طيب يوسف أطيب مني بكثير..أنا الذي لم أغفر لأبيه حتى الآن ما فعل..نعم كذبت وأنا أقول: له ربٌّ يحاسبُه فكلُّنا لنا ربٌّ يحاسبُنا لكن لابد من عقابٍ في الدنيا، شللُه لم يجعلني أسامحه.. تظاهرت بذلك حين بكى.. كانت المرةَ الوحيدةَ التي تعاطفت معه، لم أعتد أن أراه ضعيفًا، لا يتخيَّلُ "يوسف" هيبةُ أبيه.. كان صغيرًا لا يدركُها.. لكني رأيتُها حين أذهب معه في أيِّ مكانٍ.. يخبط بيديه على المكتبِ وأنا أدخل فنجانَ الشاي لضيوفِه، يرتعدون رغم طولِ قامتِهم ومناصبِهم، يسارعون بالقولِ:

- إهدى يا باشا..

لم يشاهد تلك المواقفَ ليعرفَ من هو صادق الذي بكي من أجلِه وهو مشلولٌ. وقتَ أن قال الطبيبُ: البقاءُ للهِ. ثمَّةَ شعورانِ لا ثالثَ لهما يُفترضُ أن يحاوطاني. الفرح أو الحزن ما حدث هو أن شعورًا ثالثًا اقتحمني، سلامُ نفسي وسكينةٌ جعلتني أقفُ في مكاني دقائقَ قبل أن أتحرك، لم أستطع أن أغفر له ما فعله بابني. الضنا غالي. لو فعل أيَّ شيءٍ معي لسامحتُه لكنه فعل ما فعل وهو يدرك مكانةَ"يوسف" عندي، هو الشاهدُ علي لحظةِ ولادتِه التي انتظرتها ١٠ سنوات و٩ أشهر، أُخبئه في بطني وأُصلِّي كلَّ يومٍ حتى يُولدَ وسيمًا، بل إنني قلت لو لم يفعل معروفًا قطُّ سوى هذا الابنِ لكفى، لماذا استخسرَ على نفسِه أن يُكملَ معروفَه للنهاية، أسأل نفسي: هل أدرك أنَّ الولدَ الذي غامر به هو ابني يوسف..؟!مات وأنا لا أدعو له أو عليه، ثمةَ شعورٌ يجعلك تكتفي باللحظةِ الحالية، أعترف أني استرحتُ منه ..وجودُه دومًا يذكرني بالشرخِ الذي وُلد في قلبي منذ ثلاثِ سنوات، كان ينظر إليّ بنظراتٍ

يطلب فيها المغفرةَ فأربتُ على رأسِه وأتركه دون أن أتفوَّه بكلمة.. بإيماءةٍ توحي له أني لا ألومه، يومَ عرفت بخبرِ غرقِ السفينةِ بحثت عنه في كلِّ مكانٍ.. في كلِّ الحجرات..هرولت إليه في مكتبِه قبل أن يسقطَ أمامي بعد ثانيةٍ واحدةٍ من معرفةِ الخبر..قتْلُه فقط ما سيريحُيني.. ولكن رحِمَهُ الشللُ مني.. سقط فشعرت أنَّ هناك انتقامًا إلهي .لا أريد لِ"يوسف" أن يكره أباه، ليس حبًا في صادق؛ بل شفقةٌ على ابني، يكفي ما يشعر به.. الله محبة.. والتسامحُ هو الوحيدُ القادرَ على أن يجعلَه يتخطَّى ما هو فيه..أريده أفضلَ مني حتى لو سافر دون أن يُسلِّمَ عليَّ، رأيته يتسلل من حجرته حاملًا شنطةً صغيرةً، أشعر أنها النهاية.. آخرُ يومٍ سأراه.. ظللت أراقبه وهو يُعبُر الحديقةَ.. ثوانٍ أُلقى فيها نظرةً على البيتِ قبل أن يرفضَ أن يفتحَ له الحراسُ البابَ الحديديَّ، ففتحها حتى غاب عن العيون، ووددِتُ أن ألحقَ به..أُمسكه من ذراعيه وأتشبَّثُ بساعديه أملًا في ألَّا يرحلَ..أن يبقى هنا في حضني..كلُّ شيءٍ يمكن مداواتُه..جرحُه الغائرُ من رصاصةٍ خرجت بيدِ والدِه يمكن نسيانُها إن أراد.. أردت وأردت وأردت..أعادني عجزي عن فعلِ أيِّ شيءٍ..ثِقَلُ خطواتِه أخبرني أنَّ الهمَّ ثقيلٌ..و الجرحُ غائرٌ.

❋ ❋ ❋

"ماذا يستحق أن لا نخسره في هذه الحياة العابرة. . ؟"

غسان كنفاني

(أخاف الورق)

لماذا جئت..؟! ما الذي دفعني للاستسلامِ لحيلةِ أمي أن آخذَ عزاءَ أبي..؟ أدرك جيدًا أنَّ بإمكاني الرفضَ..السبُّ واللعنُ من الشارقةِ ولن يلومني أحدٌ، قبولي لغزًا لم أفهمه.. ٤٨ ساعة عرفت أنَّ من علّق صوري على جدرانِ حجرتي هو أبي.. أدركت أنَّأمي أصبحت أقوى من أيِّ وقتٍ مضي أو ربما تلك طبيعتُها، عرفت أنها لن تسمحَ لي بأنْأذكرَ صادق باشا بسوء .

عم صابر له لسانٌ يتحدث به.. يعترض على أبي لكنه يحبه من منطلقِ"خد صاحبك على عيبه"نهال لم تظهر..!في حجرتها دومًا تستكمل دروسَها؛فامتحانُها بعد أقلِّ من أسبوعين، هل كنتُ أعيش في عالمٍ آخرَ، ربعُ قرنٍ بين جدرانِ هذا البيتِ ولا أعرف جميعَ من تعاملت معهم..! الآن يتكشّفون أمامي أو اكتشفهم أنا، شيءٌ واحدٌ ظللت متأكدًا منه هو أنَّ صادق باشا ليس بالطيبةِ التي يتحدثون بها .

أجلس في سيارةِ أجرةٍ شاردًا في كلِّ هذا، ساعاتٌ سأقضيها في القاهرةِ أزور كنيسةَ الدوبارةِ قبل أن أعودَ للإماراتِ مرةً أخرى تاركًا كلَّ هذا ورائي.. لديَّ موعدٌ مع تمارا، حدثتني بالأمس وأخبرتني أنها تشتاقني قالتها بلهجتها الخليجيةِ لتثيرَ مشاعري، سأترك كلَّ هذا إلى متى..؟ لا أعرف.. لا أعرف أشياءَ كثيرةً..أسأل نفسي لماذا جئت.

على بابِ كنيسةِ الدوبارةِ هدأتْ روعتي قليلًا، الكنيسةُ التي أحبها زادت جمالًا بعد أن رأيتُ صاحبةَ الشعرِ الكيرلي، تُرى كيف رأت جوابي، هل تحتفظ به، هل تدرك أننى في أسبوعين فقدت أبي وعدت إلى القاهرةِ وواجهت أمي وانفعلت على عمِّ صابر..؟!أريد أن أحكيَ لها،هل ستسمعني..؟ ماذا يفيدها..؟ حتى لو لم يفدْها حديثي فإنني أريد أن أحكي لها..! اليومَ الأثنين هل سأجدها أم أنها مرةً واحدةً غيرَ قابلةٍ للتكرار.

القسُّ "بولا" يراقبني من بعيدٍ، يعلم ماذا يدور بداخلي وأنا أفحص الكنيسةَ شبرًا شبرًا، يعرف الحبَّ..تعلَّمه من المسيح، يدرك العاشقُ من نظرته ويحب درويش ونزار..! هكذا عرفت عنه، تركني في البدايةِ أنتظر أكثرَ من ساعةٍ، دقاتُ قلبي زادت وملامحُ اليأسِ ظهرت على وجهي، هممت بالرحيلِ قبل

أن يوقِفني، القسّ "بولا" تحوَّلَ إلى مخرجِ فيلمٍ؛ فيختارُ التوقيتَ المناسبَ للفرحِ ويعلم أنه لا فرحَ بدونِ انتظاره..!

ببساطةٍ مدَّ يدَه بالجواب، ورقةٌ مغلَّفةٌ دون أن ينطقَ بكلمةٍ،أربكتني الحركةُ.. أنتظرها لأراها أو لأُراقبَها من بعيدٍ، هيَّأْتُ نفسي لردِّ فعلٍ قويٍّ منها.. ستسألني من أعطى لك الحقَّ في كتابةِ جوابٍ لي..لماذا لم أحترم الكنيسةَ، أشياءُ كثيرةٌ سأردُّ عليها بأنا آسف؟! هذا بعد أن أقتربَ منها لأخبرَها أني صاحبُ الجوابِ، وشطحتُ بخيالي ربما ستجيئُني مبتسمةً تشكرُني على الكلامِ الجميلِ.. كلُّ شيءٍ واردٌ إلا أن تكونَ أرسلت لي جوابًا..!اللاعبُ الماهرُ لا يخاف إلا من لاعبٍ يتبعُ نفسَ أسلوبِه، وأنا لا أخاف إلا من الورقِ، أعشقُ الكتابةَ وأخشاها.. أن يدركَ أحدٌ قيمةَ الورقِ..يعرف قيمةَ الزوايا والهوامشِ.. يرسل جوابًا ممزوجًا بِشِعْرٍ وبرائحةٍ تفوح منه؛ يعني أنَّهيسيرُعلى حدِّ السيف.

فتحت الجوابَ بيدٍ مرتعشة:

- إلى الرجلِ الذي أربكني حدَّ القلقِ..! أولُ الجوابِ جعلني أخافُ أكثر.. هي الآن التي أربكتني حدَّ القلق، امرأةٌ ترد الصاعَ بالصاعِ في أولِ وهلةٍ.. هذا ما أخشاه.. الذين يدركون قيمةَ الكلمةِ على ورقٍ يجيدون كلَّ شيءٍ، أكمل أولَ فقرةٍ..عتابٌ وغضبٌ على ما فعلته.. الكلماتُ تشير إلى أنها امرأةٌ تدرك المعاني وتملك السماحَ، أما الفقرةُ الثانيةُ فهي فلسفةٌ أخرى للورقة.. إذًا لم تكن الجواباتُ من قبيلِ الصدفةِ.. إنها اللاعبُ الماهرُ لكنها دون أن تدري ألمحت إلى أنها عانت من قبل.. الحديثُ عن العذابِ بهذا العمقِ لا يأتي من فراغ، لم أشغل نفسي ما اسمُك..عودةً مرةً أخرى إلى الهجوم، لم أشغل نفسي ما اسمُك..! أدرك أنَّ هناك من يكتب الجواباتِ.. لا يوجد شيءٌ مميزٌ فيك.. هذا معني حديثِها، غِلظةُ العباراتِ جعلها تستدرك نفسَها.. أعجبني إلمامُك بطريقةِ الإرسال.. أولُ اعترافٍ..! أما لماذا كتبتُ لك فلأنك تستحقُّ الردَّ، توقَّفتُ عندها..تستحقُّ.. هي امرأةٌ إذا تعطي وتمنحُ كالملكاتِ ترى ذلك حقًّا لها، لن أخوضَ في تفاصيلِ وجهك ولن أستطيع مدحَ شعرِك الذي لم أره..دعوةٌ صريحةٌ للمقابلةِ..!

طويتُ الجوابَ في جيبي وابتسمت، أولَ مرةٍ أُصبحُ سعيدًا هكذا منذ ثلاثِ سنوات، ضحكت من قلبي .. قفزت في الشوارعِ المؤديةِ إلى طلعت حرب، يوسف رُدَّتْ إليه نفسُه بكلامِ امرأةٍ أربكته من أولِ سطر، فرحتي الحقيقيةُ تكمن في أني وجدت من يشبهني..من يكتبُ التفاصيلَ ويحترم الورقةَ..!

٣ ساعاتٍ على الطائرة، الطريقُ من وسط البلد إلى المطارِ لن يستغرقَ أكثرَ من ساعةٍ ونصفٍ إذا استخدمتُ كوبري أكتوبر، ونصفَ ساعةٍ أخرى في المطار..إذا لن يبقى سوى ساعةٍ ونصفٍ أخرى يمكن خلالَها أن أفكرَ ماذا أفعل، الأفكارُ كثيرةٌ.. هل أسافر وأكتب لها من الإماراتِ أم أكتب لها الآن ..وماذا أكتب..؟! الكلامُ الآن لن يحملَ غزلًا، لابد أنَّ هناك خطوةً ما.. أطلب مقابلتها.. ولماذا..؟ بل لماذا فرحتُ كلَّ تلك الفرحة.. سؤالٌ طرحتُه على نفسي، لم يعرف الحبُّ طريقي حتى الآن، حياتي البائسةُ افقدتني الكثيرَ حتى قابلت صاحبةَ الشعرِ الكيرلي..الآن فقط انتبه.. إنها أيضا لم تخبرني باسمها لقد ردت الصاعَ صاعين.

في مقهىً بجوارِ "جروبي" أخرجتُ ورقةً وقلمًا وقررت أن أكتبَ، دون تحضير:

العزيزةُ الغاليةُ صاحبةَ الشعرِ الكيرلي، وصلني جوابُك وقرأته كثيرًا، مرةً من خلال الورقةِ، ومراتٍ من خلال خيالي بعد أن حُفرَت كلماتُه في عقلي، أشكرُك على الردِّ الذي لم أتوقعه، اليومَ ذهبت إلى الكنيسةِ لعلِّي أراكِ لكنني لم أكن محظوظًا حتى أخبرني القسُّ "بولا" في اللحظةِ الأخيرةِ أنك تركتِ شيئًا لي.

أنتِ امرأةٌ تشبهينني كثيرًا، تدركين قيمةَ الورقةِ..تبدو فيها فلسفتُكِ الخاصةُّ النابعةُ من تجربةٍ ذاتيةٍ إذ لم أكن مخطئًا، أنا آسفٌ على إرباكي لك..وفي البدايةِ لقد أربكتني أيَضا بجوابك غيرِ المنتظرِ، لم أقصد أن أُتابعك في الحقيقةِ لقد دخلت الكنيسةَ لإني أحبها ليس أكثرَ.. لكنك جئتِ أمامي أو أنا الذي جئت، لا أدري لماذا اخترتِ هذا المكانِ بالتحديدِ لتكوني مني بهذا القربِ..! ومن ثَمَّ لم أستطع أن أمنعَ نفسي من رؤيتك .

يوسف هو اسمي، وعمري ٢٨ عامًا إذا كنتِ من النوعِ الذي يُفضِّل معرفةَ عمرَ الرجال، مهندسٌ معماريٌّ بالإمارات وأجيء إلى القاهرةِ كلما استطعت المجيءَ إليها، لا شيءَ في حياتي سوى العملِ وبعضِ النزوات .

الأسبوعَ الماضي مات أبي، صادق باشا رجلٌ غنيٌّ ظلَّ طيلةَ حياته يجمعُ المالَ بصرفِ النظرِ عن أيِّ شيءٍ، ربما قرأتِ اسمَه يومًا على صفحاتِ الجرائدِ؛ فهو نائبٌ سابقٌ بمجلسِ الشعب، وأسكن في عزبةٍ مسمَّاةٍ باسمِ جدِّي "عزبة سليمان باشا" قريبًا من "بنها بالقليوبية".

أبي مات كأيِّ فردٍ له موعدٌ للرحيل، أمي استدعتني بالقوةِ لأحضرَ عزاءه لم أرد ذلك، تركتهم من فترةٍ مقررًا أن أعيشَ حياتي هادئًا وبالطريقةِ التي أريدها لنفسِها،ولكنْ لأمي عليّ تأثيرٌ قويٌّ جعلني أنفّذُ كلَّ ما طلبته مني بالحرف،أختى لم تخرج من حجرتها وعمي صادق عنَّفني كثيرًا، شعرت بالضيقِ في البيت فتركت لهم كلَّ شيءٍ لأُسافر مرةً أخرى .

أسكن مع نادر..صديقٍ جيدٍ، نعيش في ميدانِ الرولةِ أحدِ أشهرِ ميادين الشارقةِ لي قصةٌ أخرى كيف وصلت إلى الامارات سأحكيها لاحقًا، فأنا لا أستطيع أن أصفَ نفسي حين ترينِي ستدركين أنني لستُ بحالةٍ سيئةٍ تنفر مني النساءُ، واكتبي لي اسمَك في المرةِ القادمة .

وبعد أن أنهيتُ الجوابَ وقَّعتُه باسمي لأولِ مرة، ثمّ أخرجتُ ظرفًا من الأظرفِ التي أحتفظ بها دومًا في شنطتي وسارعت إلى الكنيسةِ مرةً أخرى، بحثتُ عن القسّ"بولا" الذي أعطيتُ له الجوابَ دون أن يتكلّمَ فأخذه مني دون أن يرد، ووضعتُ نفسي في أقربِ تاكسي لأنطلقَ إلى المطار.

تداعت الأسئلةُ على ذهني لماذا كتبتُ لها: إن أبي مات وأخبرتها بعم صادق وأختي، ما شأنُها، الكلماتُ مبعثرةٌ، الجملُ مبتورةٌ، الأحرفُ ناقصة، لن تفهمَ شيئًا..!ستقول عني مخبولٌ، أم ستدرك أنها أمام رجلٍ يريد أن يحكي..؟ راهنت على فهمِها للورقةِ..هي امرأة تدرك فلسفةَ الحرفِ ستدرك ما وراءه.

❊ ❊ ❊

" أعرف أني أخيرًا مطوقٌ بك، بالدفء والشوقِ وأني بدونك

لا أستحق نفسي"

غسان كنفاني

(لعبة الأصوات)

محارةُ الشقةِ انتهت اليوم، جرامُ الذهب الـ ١٨ وصل إلى ٦٥٠ جنيه، فعليًا لم أكن أعرف شيئًا مما أقرأ، هل هذا يعني ارتفاعَ في الأسعارِ أو انخفاضَها،أستعد لخطبةِ "ندى" في الشقةِ التي استطاع أبي أن يشتريها لي بعد أن باعت أمي مصوغاتها الذهبية.

منذ ثلاثِ سنوات قابلت "ندى" في ندوةٍ شاركت فيها الشركةُ التي أعمل بها محاسبًا كنوعٍ من المساهمةِ المجتمعية، أو للحقِ كنوعٍ من الشهرةِ التي لا تُكلِّف الكثير، ذات وجهٍ ممتلئٍ قليلًا وعينين سوداوين واسعتين، مع جسدٍ أقربَ إلى السمنةِ،هي قصيرةٌ تداري ذلك بالكعبِ العالي، امرأةٌ تدافع عن حقوقِ جنسِها.. أمرٌ لا يستهوي أيَّ رجل، لا نريد أمرأةً تقول لنا: القانون ينصُّ والدستورُ يشير.. وسيجيء يومٌ ويكون هناك مساواةٌ، أيُّ مساواةٍ تلك..؟ إنهنَّ يأخذنَ كلَّ الحقوقِ لكنَّهم يُنكرنَ..!

جلست قرابةَ الثلاثِ ساعاتٍ أستمع إلى كلامٍ منمقٍ ومصطلحاتٍ قويةٍ لم تكن تتفق مع طبيعتي، حتى وجَّهت إحدى السيدات سؤالًا لِ"ندى" عن ماذا تفعل إزاءَ شكِّها في زوجِها، شعرت أنَّ الأمرَ تحول إلى "قعدة حريم" ربما ستخرج إحداهنَّ وتقول على طريقةِ الأفلام القديمة "الافندي بتاعي بينام بدري"،قبل أن استطرد في تخيُّلي جاء صوتُ"ندى" رزينًا:

- الشك بداية هدم أي بناء، والبيت بناءٌ يستحقُّ الصبر، لا أقول إنه شيءٌ مقدسٌ؛ لكن لا يمكن بناءُ آراءٍ على شك، ولا يمكن حتى أن نتمادى في شكنا، فنحول كلَّ سرابٍ إلى حقيقة في خيالنا فقط، حاولي إدارةَ الأمرِلمعرفةِ أين المشكلةُ بدلًا من التهربِ منها..!

انتهت الندوةُ وتوجَّهتُ إليها، بعيدًا عمَّا قلتيه خلال ٣ ساعاتٍ لكني أُحيِّيكِ على ردِّك على تلك المرأةِ التي تشك في زوجِها، كلماتي لم يكن لها صدىً قويٌّ.. ربما أزعجها قولي بعيدًا عن ما قلتيه، شعرت أنَّ حديثي بلاقيمةٍ، ابتسمت وهمّت بالانصرافِ لولا أني أكملت... وحديثُك يغلب عليه صوتُ العقل.

بدأت علاقتي بها بعد ذلك من خلالِ المنظمةِ التي تعمل بها، اعتدت حضورَ ندواتها لآراها، تحمّلت الحديثَ عن قانونِ العنفِ والدستورِ العنصريِّ وحقوقِ المرأةِ في بلادِ الواء الواء.

كنت أضحك في كلِّ ندوةٍ وتلحظ ذلك، في إحدى المراتِ تشاجرتُ مع امرأةٍ بجواري حين سألتُها بعد شكوى قالتها لمدةِ نصفِ ساعةٍ أين المشكلة..؟!فقد اكتشفتُ أنَّ جميعَ من حولي تعاطف معها ماعدا أنا و"ندى" التي ضحِكتْ وأخرجتني منهم سليمًا، ولولاها لكنتُ شهيدَ شكوى المرأةِ .

صايع وساخر صفتان يتفقان مع شخصيتي تمامًا، تمردتُ على صورةِ الولدِ الوحيدِ المدلل، شعرت بتلك الآراءِ منذ الصغرِ ونجحت بثورتي عليها دون أن أَفسدَ، ليالٍ طوالٌ قضيتُها خارج البيتِ وسفرٌ إلى أماكن موحشةٍ، لم يكن لديَّ أيُّ مغامراتٍ عاطفيةٍ،المرأةُ بطبيعتها ثرثارةٌ تجيدُ صناعةَ المشاكلِ وتهوى النكد، لم تكن أمي كذلك..! حتى لا يتهمَني أحدٌ بأني مُعقَّدٌ لكنَّ الحقيقةَ هيأتها نظرتي ونظريتي.

الغفرانُ وحده هو ما جذبني إلى ندى، جئت إليها بخطىً ثابتةٍ لا تعرف الشك، هي أولُ يقينٍ في حياتي.. أدركتْ طبيعتي فاستراحت وأراحتني، أرتكب كلَّ الخطايا وأجيء إليها أعترف بما اقترفته فتبتسم.

لا أعلم لماذا تصبر على كلِّ هذا..! في البداية ظننتأنها لا تحبني.. ربما لسرعةِ اعترافِها تأثير داخل نفسي،ولكن مع كلِّ يومٍ أكتشف شيئًا جديدًا.. كلُّ ما في الأمرأنها تدرك الطبيعةَ البشرية، تراني طائشًا؛ ولكن لستُ بخائنٍ حتى حينَ ضبطتني مع بنتٍ داخلَ"كافيه".. النيةُ عند "ندى" شرطٌ أساسيٌ. قالت لي يومًا لو شعرتُ أنَّ هناك نيةً للخيانةِ لتركتُك فورًا، لكنك "رمرام" وتودُّ أنْ تُثبتَ لنفسك بتلك الأفعال أنك مازالت "صايع.. مستهتر" متمردًا.. تلك هي الصورةُ التي أحببتها من البداية..! يا الله: كيف أدركتْ ما يدور داخلي دون أن أتحدَّث في أيِّ شيءٍ.. أنا لم أفكر يومًا في خيانتها أو استبدالها،ومع الأيام أدركت أنه لا مناصَ، أعود وأقول:إنَّ الغفرانَ وحده هو سرُّ تلك البنتِ التي تعشق ارتداءَ البناطيل القماش والطرحةِ الواحدة التي تكتفي بها.. الناس يحتاجون إلى من يغفر لهم، اللهُ نفسُه غفورٌ حتى لا يقنطَ عبادُه منه.. لذلك الخطأ أعظم صفات البشر.

قررتُ خطبتَها بعد ثلاثِ سنواتٍ.. بعد أن رأيتُها تجلس مع أُمِّي دون أن تُخبرني؛ فقد استطاعت تعويضَها عن البنتِ التي لم تنجبها.."ندى" تُشعُّ بهجةً وحيويةً في المكانِ الذي تجلس فيه..أحيانا أرى البيتَ مشمسًا بوجودِها رغم أننا ليلًا..! تأكدتُ أنَّ فُرصَ الحياةِ معها قويةٌ.. أنا لا أُطيق من يغضبني،

يُملي شروطَه عليَّ كأنه الوحيدُ الذي يمتلك الحقيقةَ، وهي كذلك.. شيءٌ واحدٌ ما أخافه.. هو احتواؤها الغريب، عدم قدرتي على تخيُّلِ حياتي بدونها، فالتعلُّقُ في بعضِ الأوقاتِ غيرُ صِحيٍّ.

حدَّثتُها وهي في الإسكندرية:

- ندى اتفقى مع ماما على معاد علشان اجي اخطبك.

بضحكتها المعهودة:

- مش محتاجة مواعيد تعالى في أي وقت.

- بتكلم جد.

- ومين قالك اني بهزر؟

- يعني كنتي عارفة إني جاي؟

- لا بس متأكدة إنها مش هتيجي غير كده.

- مش فاهم.

- مش مهم ، المهم ان في أي وقت يا حبيبي ماما مستنياك.

رغم حديثها بأنها تتوقع ذلك إلا أنَّ هناك نبرةَ فرحٍ في صوتها لم أسمعها قط، هناك أصواتٌ تخرج منا حين نفرح أو نحزن، إحدى هواياتي دراسةُ الأصواتِ.. سنةٌ ونصفُ السنةِ من عمري قضيتُها بين الكتبِ التي تشرح هذا العلمَ.. الإنسانُ لا يستطيع أن يُداري ما يجهلُه، وبما أنه يجهل لغةَ جسدِه ونبرةَ صوتِه؛ فلا ينتبه إليهما رغم أنهما يكشفان كلَّ شيء، هوايتي في تحديدِ تلك النبرات، من يتكلم بثقةٍ ونبرتُه كلُّها خوفٌ، للكذبِأيضًا نبرتُه، وللصدقِ والعجزِ نبراتٌ أخرى، كان ذلك الشيءَ الوحيدَ الذي يقلق "ندى"؛ فدائمًا ما تقول لي: عفويٌّ وطفلٌ في كلِّ شيءٍ إلا في إدراكِ خوافي الأصواتِ، طفلٌ..كلمةٌ لا تضايقني..!فعلًا أنا طفلٌ، لكن معها فقط.. لم أفكر في قرارِ الزواجِ كثيرًا.. أثق أني أستطيع أن أكونَ زوجًا جيدًا أكثر من ذلك لم أفكر ولا أريد..!

❋ ❋ ❋

"في الحبّ كلّ شيءٍ حقيقيّ وكلّ شيءٍ وهميّ"

غادة السمان

(عيشي التجربة)

الثانيةَ عشرةَ عند انتصافِ الليل.. شارع "ناهيا" هدأ قليلًا، الباعةُ مازالوا مفترشين الطريقَ، تجَّار مخدراتٍ على الجانبين، وسيدةٌ تلحق بآخرِ"أتوبيس" متَّجِهٍ إلى الجيزةِ، أحاول عبورَ النفقِ مُحتَمِيَةً بظلِّ أسرةٍ تعبر معي.. أكره أنْ أتأخَّرَ إلى هذا الوقت.. لا أعلم لماذا قررتُ بعد أن خرجتُ من الكنيسةِ أن أسيرَ من وسط البلدِ إلى "بولاق الدكرور" سيرًا على الأقدام..؟! أعلم أني عُرضةٌ لكلِّ شيءٍ..أسطورةُ الحيِّ الشعبيِّ الذي يحمي لم تعد موجودةً في الوقتِ الحاليِّ.

وصلتُ إلى الشارعِ بسلام.. صاحبُ البيتِ لم يغلقِ البابَ حتى الآن، ووصلت أخيرًا إلى شقتي المكوَّنةِ من حجرتين وصالةٍ لا تتَّسِعُ لأكثرَ من كنبةٍ ومنضدةٍ لتلفزيون صغير..ألقيت حقيبتي بعد أن أغلقتُ الشبابيكَ لأريحَ جسدي المنهكَ منذ الصباح .

اليومُ إجازةٌ.. استبدالُ شريحةِ هاتفي بأخرى لا يعرفُها سوى المقربين هو طريقتي للهروبِ من أيِّ شيءٍ يفسد عليَّ هذا اليومَ.."ندى" ستعود من الإسكندريةِ بعد إجازةٍ قصيرة.

أنظر إلى الشقةِ وأنا مستلقيةٌ على السرير أتذكر أولَ يومٍ جئت فيه.. دهشتي من صِغَرِ حجمِها وأنا التي طلبتُ أن تكونَ شقةُ زفافي لا تقلُّ عن ١٥٠ مترًا وكنت أظنُّ ذلك تواضعًا؛ فأنا أعيش في بيتٍ كاملٍ مع أسرتي.. عانت "ندى" في إقناعي أنَّ هذا هو المتاحُ في القاهرة، وروت لي كيف عاشت في حجرةٍ واحدةٍ؛ ولذلك فأن تكون هناك صالةٌ أمرًا يستحقُّ الإشادةَ.. خاصةً أنَّ البيتَ تسكنه عائلةٌ واحدةٌ، وصاحبُه رضىَ استئجارَ الشقةِ بعد معاناة، تعجَّبتُ من هذا الرجلِ الذي أقسمَ إنه يفعل ذلك لأنهم بناتٌ رغم إصرارِه أن يكونَ الإيجارُ ١٥٠٠ جنيه..!

تأقلمتُ مع هذا الوضعِ، أدركتُ أنَّ شرطي بأنْ تكونَ شقتي كبيرةً من قبيلِ"الدلع" أو ربما عدمِ وجودِ مبررٍ أن أقبلَ بأقلَّ من ذلك..بحركاتٍ ثقيلةٍ أعددتُ الفطورَ وكوبَ"النسكافيه" قبل أن أُمسكَ كتابَ رسائلِ"غسان كنفاني" إلى "غادة السمان" ثمةَ شعورٌ بأنَّ هذا الكتابَ يُمثِّلُني..! خاصةً بعد أن تبادلتُ الجوابات مع رجلٍ لا أعرف ملامحَه، "غسان" يكتب إلى "غادة" من أيِّ مكانٍ يذهب إليه.. يحكي لها تفاصيلَ حياتِه يؤكدُ لها أنه سيعود إليها أيّاً كان الأمرُ ويطالبها ألَّا تكترثَ.. يكفي فقط أن

تمنحَه حقَّ اللجوءِ، هذا الرجلُ هو من قامت إسرائيلُ باغتيالِه.. اغتالوه وهو لم يكمل الأربعين..! هل هناك مزجٌ بين ما فعله "غسان" وما قاله "جلال الدين الرومي" من أنَّ الحبَّ هو القوةُ، أنتظرُ الحبَّ لكي تولّدَ في نفسي قوةٌ أستطيع بها أن أكملَ حياتي، ولماذا أصرَّ على المزمورِ الخمسين.. هل أقصد الحبَّ وأنا أناجي اللهَ بأنْ يصرفَ وجهَه عن خطاياي ويمحو كلَّ آثامي؛ فيخلقَ لي قلبًا نقيًا وروحًا مستقيمةً تتجدد في أحشائي .

الملكوتُ الفكريُّ لم يقطعْه سوى رنةِ هاتفي من"ندى".. تلك التي ظننتُ معها أنها تريد طمأنتي بوصولِها للقاهرةِ، لكني فُوجئتُ بها تطالبني بالنزولِ فورًا إلى "كافيه سيلنترو" بالمهندسين..وبدونِ أيِّ تفاصيلَ أغلقت الهاتفَ..فليس من عادتِها هذا الأمرُ.. صوتُها مليءٌ بالفرحة، وبكسلٍ قمتُ لأرتدي ثيابي لأذهب إليها.

لم تكن وحدها تنتظر، فقد كان يُجالسُها إلى جوارِها أحمد، وعلاقتي به بدأت من خلالِ"ندى" التي أذابت الفرقَ بيننا من أولِ يومٍ عرفتُه فيه.. الحديثُ ينساب تلقائيًا قبل أن يُخبراني بأنهما حدَّدا موعدَ الخِطْبَةِ في أولِ أسبوعٍ من "فبراير" المقبلِ.. لم أُصدِّقْ نفسي..فقد انتظرتُ هذا الخبرَ كثيرًا أودُّ أن أسمعَه في كلِّ لحظةٍ تمرُّ بي معها.. زواجُ"ندى" من "أحمد" يعني سعادتَهما التي هي من سعادتي الشخصيةِ، وبلهفةٍ سألت عن كلِّ التفاصيلِ؛فأخبرتني "ندى"أنَّ"أحمد" قرر بالأمسِ وأخبرها وهي قادمةٌ من الإسكندريةِ وسيذهب لترتيبِ كلِّ شيءٍ مع والدتِها غدًا.. في تلك الزيجةِ ليس هناك أيُّ تعقيداتٍ.. أُمُّها وافقت قبل أن تراه..!

طلب مني أن أكونَ حاضرةً فتعجَّبت..! إذن كيف يمكن أن يتصوَّرَ غيابي عن شقيقتي في يومٍ كهذا..؟ دقائقُ تناولنا فيها الشاي والنسكافيه وتركَنَا أحمدُ ليكملَ عملَه أو ربما ليدعَ لنا فرصةَ الثرثرةِ قليلًا.

أسئلةٌ كثيرةٌ حاوطتني، كواليسُ هذا الاتفاقِ، شغفي بمعرفةِ كيف وصلتْ قصةُ الحبِّ التي كنتُ شاهدةً عليها إلى تلك الخطوة.. ملامحي دفعت "ندى" إلى بدءِ الأسئلة:

- إيه؟

- إيه انتي جات ازاي وامتي وفين؟

- مفيش كلمني وانا راجعة في العربية وقالي حددي معاد خطوبة مع اهلك وامي عرفاه فوافقت وقالت يجي الاسبوع الجاي نتكلم على الحاجات التانية بحضور عمي..!

- بس كده؟

- آه.

- من غير أي مقدمات يا بنتي دنا سألتك من اسبوعين قلتيلي معرفش، فجأة كده تخلص كل حاجة.

- ماهو مكنش ينفع غير يجي كده، ولو كان جيه بطريقة تانية كنت قلقت.

- بمعنى؟

- عارفة احمد لو قعد يفكر في فكرة الجواز نفسها ولا ١٠٠ سنة علشان ياخدها، هو خدها فجأة، دي الطريقة بتاعته.

- وأنتي؟

- عارفة إنه بيتحدي نفسه بالقرار ده أو على الأقل خايف منه بس مش لوحده الرجالة كلها بتخاف من الجواز، فكرة المسئولية نفسها بترعبهم من جواهم أكتر مننا علشان كده لازم اطمنه لإني كمان عايزة أعيش معاه حياتي كلها.

- بس الجواز غير الحب ..مينفعش يبقى فجأة دي حياة هتتبني.

- قصدك ايه؟، لو على المهر والشبكة والحاجات ديه اهو هيقعد مع ماما وعمي ويتفقوا على كل حاجة.

- لا مش قصدي ده، انا بكلم إنك تفكري كويس صحيح انتوا بتحبوا بعض لكن الطيش بتاعه مش هينفع دي مش مغامرة.

- قصدك اننا ممكن منتفقش ونطلق؟

- بالظبط.

- عارفه الفرق بيني وبينك إيه يا غادة، إنك دايما عاوزة الأمان، دي كلمة وهم مش موجودة أصلًا، محدش يقدر يضمن حاجة، انت اتجوزتي وجوزك مات الدنيا غدرت بيكي من طريق مختلف

لكن في ناس تانية حبوا بعض وحسبوها كثير واطلقوا في الآخر علشان سبب تافه، انا مش زيك أنا شايفه كل حاجة ممكن تضيع وممكن تبقى وملهاش شروط علشان كده سايبه احمد على راحته لإن طالما مافيش ضمان يبقى لازم كل واحد يبقى على راحته.

الأمان كلمة اخذتني إلى وادي آخر، كم أحب الكلمة أبحث عنها في كل شيء، وأفقد الكثير من المتعة بسببها، انتبهت ندى إلى انشغالي الذي حتمًا قادني إلى طريقًا ما:

- ايه نحن هنا، في ايه؟

- أنا في حد في حياتي.

باندهاش رفعت ندى حاجبيها وقبل أن تنطق

- بعتلي جواب مع القس بولا وأنا رديت عليه معرفش ليه بس حسيت إني لازم اتكلم.

- ووصلتوا لحد فين؟

- ولا حاجة.

- أريد أن أعرف رأي ندى التي بدأت في الحديث.

- انتي لازم يبقى في جديد في حياتك، الكونسبت بتاع حاجة مضمونة ١٠٠% راح، الناس بتعيش علشان تتعلم وتتجرح، انتي كمان لازم تخرجي من حالة الجمود اللى انت فيها ، أول سنة كان في حماس في عينيك دلوقتي راح، المقالات اللي بتكتبيها بدأت تقل.. حلمك إنك تروحي مركز الأهرام مبقيتيش تجري وراه، الأيام بتعدي وانت واقفة مكانك.

- والحل؟

- الحل إنك تنطلقي، عيشي التجربة مع الراجل اللى متعرفهوش يمكن يكون هوالحب اللي مستنياه علشان تخرجي للدنيا كلها، متخافيش لو الموضوع فشل، التجربة في حد ذاتها جديدة، لو معنى إننا مننجرحش إننا منجربش كان زمان موتنا من زمان، وارجعي لكل حاجة بتحبيها وأبدأئي من جديد.

❋ ❋ ❋

"عندما تشمُّ الحريقَ ولاتنذر من حولك. . فأنت بشكلٍ ما

ساهمت فى إشعالِ الحريق"

أحمد خالد توفيق

(تمارا تسأل)

أغلقتُ الهاتفَ بعد أن أنهيتُ المكالمةَ مع "تمارا".. أكثر من ٦٠ مكالمة خلال ٤٨ ساعة، منذ أن غادر "يوسف" متى سيأتي.. هل اتصلَ بك.. أسئلةٌ كثيرةٌ من هذا النوعِ التي لا أملك لها أيَّ إجابةٍ.. قلتُ لها في آخرِ مرةٍ:

- موتُ أبيه ليس بالأمرِ الهيّن.. ربما يغيب شهرًا وقد لا يعود مرةً أخرى.

شخصيًا أتمنَّى أن لَّا يعودَ، الآن يملك من الملايين ما يُغنيه عن الغربةِ وأوامرِ مديرِ الشركةِ.. يستطيع أن يرتميَ في حضنِ أُمّه ويكونَ سندًا لأختِه، لو أملك ربعَ ما يملكه لجلستُ في بلدي.. أتزوج ابنةَ عمي وأعمل في أيِّ شركةٍ هندسيةٍ، قلتُ له ممازحًا:

- حين يموت أبوك يمكن أن تؤسِّسَ شركةً تكون أنت رئيسَها، وأعمل أنا مديرًا لها، لم يبتسم..بل أشاح بوجهِه كأنه لم يفكر في أمرٍ مثلِ هذا من قبل.. لم يفكر في مالِ أبيه الذي هرِم:

- أنا مش عاوز أرجع تاني يا "نادر" مش عاوز منه أيَّ حاجة.

منذ أن جاء إلى هنا وهو يكابر.. لم يرتح في يومٍ، كابوسُه يدلُّ على أنَّ الماضي لم يرحل عنه في أيِّ لحظةٍ.. تمتماته باسمِ أُمِّه وهو نائمٌ تدل على اشتياقه لها.. علمت بعد أن حكى لي قصتَه أنَّ ما يحملُه أكبرُ من أن يتجاهلَه، قضى أكثر من ٢٠ عامًا لم يرَ سوى الوجهِ الجميلِ للدنيا، ورغم ذلك لم يكن مسرفًا قطُّ، فهو مهندسٌ معماريٌّ، ذلك هو حلمُه الذي سعى إليه، حين سألته لماذا..؟ قال أحبُّ العمار، إنشاءَ بيوتٍ تأوي الناس من بردِ الشتاءِ، مسكنٍ لزوجين، مكانٍ للمرحِ، لم أكن حتى الآن أنظر إلى الهندسةِ بذلك المعنى.. أدرك أنَّ"يوسف" يحمل من البراءةِ والحلم ما يفوق ما يحمله بشر.

أولَ يومٍ بدأ فيه العملَ كنقاشٍ تعجبت منه..فيداه ناعمتان ولا يتحدث لغةَ"الصنايعية" وذات مرةٍ رأيته يقول لزميلٍ له: بعد إذنك..! و"الصنايعي" لا يتحدث بتلك الكلمات حتى ولو كان

في آخرِ الدنيا.. ولكن لابد أن يلّووا شفاهَهم ويعلوا صوتَهم.. ظللت أراقبه دون أن أُشعرَه بذلك، مجيئه من "اليونان" زاد شكّي فيه.. فالكثيرون في تلك البلاد يحترفون تصديرَ العمَّالِ بأوراقٍ غالبًا ما تكون مزورة .

العمَّالُ هنا ينغلقون على أنفسهم في دائرةٍ لا يدخلها إلا من هو منهم.. يعاملون كلَّ فردٍ وفقًا لمركزه..هذا مهندسٌ وآخرُ مديرٌ وثالثٌ شيخٌ،ولكن لا يمكن أن يقبلوا أحدًا في دائرتهم المغلقةِ إلا من هو منهم، فاجأهم "يوسف" حين سمعهم يسخرون من المهندسين الذين لا يفعلون شيئًا، سمعتُ صوتَه وهو يتحدث عن برنامجِ"الاوتوكاد" فصدق شكّي: هو ليس نقاشًا، وحين اقتربت منه شعرت أنه ندمَ للحظاتٍ على تهورِه..! معذورٌ من يأتي إلى هنا للعملِ لا يريد العودةَ، وهذا أولُ يومٍ له.

تركته وذهبتُ إلى مديرِ الشركةِ الذي يبحث عن مهندسٍ معماريٍّ،ولكن من الإماراتوأقنعته أنَّ هناك من يصلح ويمكن أن يتقاضي نصفَ ما سيأخذُه غيرُه،ولعبتُ على هذا الوترِ الذي جاءَ بثمارِه، لم أكتفِ بذلك..وقررت أن يعيشَ معي هذا الشابُّ الذي يحمل حزنًا يفوق عمره.. لا لم يكن قلقًا من المجهولِ كحالِ كلِّ من يجيء هنا في أيامِه الأولى.. إنه رجلٌ يحمل وراءه همًّا أحنى ظهرَه.. لم أكن أعرف شيئًا عنه، ولا لماذا فعلت ذلك..! فقط إحساسٌ بداخلي يحركني تجاهَه لا أملك حتى تفسيره.

اصطحبته معي وعبَّرَ ببعض الكلماتِ القليلةِ عن شكره لي، ليس من طبيعتي أن أتطفَّلَ.. ومعه بالتحديدِ يصبح السكوتُ فريضةً.."يوسف" في أيامِه الأولى كان لا يتحدث كثيرًا . في جولتي معه في "الشارقةِ" أردت أن أُخفف قليلًا من حزنه الذي لا أعرف سببَه، أثرثر كثيرًا في كلِّ شيءٍ، فانتبه إليّ حين حدثته عن شجرةِ"الرولة" لكنه لم ينبهر، فقط ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ ساخرةٌ، مضتِ الأيامُ حتى تعرَّف على "تمارا" بنتِ أحدِ أصحابِ الشركاتِ في"الشارقة"..لا أعرف كيف تعلَّقَ بها وهو الجالسُ بجواري طوالَ اليوم..؟لم يكن يتركني إلا

ساعاتٍ من الليل فقط ليسيرَ وحيدًا، احترمتُ تلك اللحظاتِ حتى رنّ الهاتفُ في الشقةِ، وعرفت أن هناك فتاةً اسمُها "تمارا" تريد "يوسف" حكى لي بعد ذلك كيف تعرَّف عليها، ورغم أنه لم يكن من النوعِ الذي يهوى النساءَ ولكنَّه أحبَّ علاقتَه بها، حذرته من مثل تلك العلاقاتِ هنا خاصةً..! إنه مسيحيٌّ وهي مسلمةٌ لكنه لم يأبه..وقال لي: إنك لا تدري شعورَ من تمنَّى الموتَ ولم ينلْه..!

أذهب الآن إلى استقباله.. أخبرني أنه سيأتي في مساءِ هذا اليومِ.. أنهيتُ العملَ وذهبتُ إلى مطارِ"الشارقة" الدوليّ لإحضاره..هي المرةُ الأولى التي يطلب مني أن أنتظره في المطار.

❊ ❊ ❊

"قد لايكونُ الموتُ بتوقُّفِ النبضِ فقط؛ فالانتظارُ موتٌ، والمللُ موتٌ، واليأسُ موتٌ، وظُلمةُ المستقبلِ المجهولِ موتٌ"

غسان كنفاني

(خوفٌ متبادل)

أكره أن أقسوَ على غادة.. اليومَ قسوتُ عليها كثيرًا.. ذكَّرتُها بغدرِ الدنيا حين أخذتْ زوجَها فأصبحتَ أرملةً وهي في الحاديةِ والعشرين.. تغيَّر وجهُها بمجرد أن فتحتُ تلك السيرةَ، اتَّكأت على كلِّ كلمةٍ أقولها فانكمشتْ كأنها خافتني.. ربما كلامي بتلك الحدَّةِ أفزعها.. لم أتحدَّث هكذا إلا مرةً واحدةً معها منذ أكثرَ من عامٍ،ولكني في تلك المرةِ لم أرفُق بها، والحقيقةُ أنني لم يعد يعجبني ما هي فيه..فاستسلمت للعملِ كمدخلةِ بياناتٍ للمنظمةِ.. مقالاتُها التي ترسلها إلى بعضِ المراكزِ البحثيةِ لم تحمل أيَّ جديدٍ،فقليلٌ منها يُنشر وكثيرُها يُرفض، والأيامُ تمضي وهي مازالت متمسِّكةً بماضيها مغلقةً على نفسِها كطفلٍ يخشى أن يأخذوه من أمِّه.. لا أحبَّ هذا النوعَ من البشر، أعني المستسلمين للحياةِ تقذفهم أينما تشاء.. إنما أُحبُّ غادة كثيرًا ولا أرضى لها الذبولَ يومًا بعد آخرَ.

قلت لها كلَّ ذلك حينَ أخبرتني بذلك الرجلِ الذي أرسلَ لها جوابًا؛فاقتنصتُ تلك الفرصةَ.. حديثُها يشير إلى أنه لمس شيئًا في قلبها فأردتُ أن لَّا تُضيِّعَه، فأنا لا أضمنه وأعلم أنَّ ألاعيبَ الرجالِ كثيرةٌ،ولكني أريدها كسائرِ البشر_تحبُّ وتعشقُ وتُجرح إن لزمَ الأمر_ أيُّ زلزالٍ عنيفٍ يحركُ المياهَ الراكدةَ في قلبِ تلك الفتاةِ.. أدرك أنني رميتُها في مغامرةٍ لو خسرتْها سيصبح الأمرُ أسوأ،ولكن لو ظلَّت هكذا ستصير أيضًا للأسوأ.. لم أشغل نفسي بماهيةِ الرجلِ.. وكلُّ ما أبغيه هو أن تتحرك .

جلستُنا تلك المرةَ كانت عاصفةً.. قليلةٌ هي الجلساتُ بيننا التي يستفزُّ أحدُنا الآخرَ دون قصدٍ وبدافعٍ من الحبِّ لا غير..! حديثُها عن زواجي من "أحمد" لم أكن أجهلُه.. هي على حقٍّ.. الزواجُ ليس مغامرةً والبيتُ ليس رهانًا.. أجبتها: بأنه لا أمان في تلك الدنيا.. قلتها وأنا أفكر من داخلي: ماذا سيحدث لو استمرَّ"أحمد" على هذا الأمرِ..؟! هل سأقدر على ضبطِه مرةً أخرى مع

امرأةٍ في أحدِ الأماكنِ وأبتسمُ كعادتي..؟ هل مقدرتي على الغفرانِ ستظلُّ كما هي..؟ أنا أغضب منه أيضًا حين أشعر أنه مُصرٌّ على النظرِ لغيري.. ماذا لو نام مع امرأة..؟! أعرف نفسي وقتها سأطلب الطلاقَ فورًا..ولا مساومةَ عندي في ذلك ولا غفرانَ، ولكن كيف سيكونُ الحالُ لو أنجبتُ منه..؟! أُمِّي أقوى مني بكثيرٍ؛ فقد قاومت وحدَها، أمَّا أنا فلا أستطيع..! ابني سينقصه أبٌ.. شعورٌ لا يمكن تعويضُه عن طريقِ الزياراتِ الخاطفةِ.. شطح خيالي وزاد قلبي خوفًا مما قالته.. هل أحتاج إلى الجلوسِ مع "أحمد"لأُذكِّرَه بأنَّ ما فات يمكن التسامحُ فيه، أما المقبلُ فهو بيتٌ وعائلةٌ..أنَّ"الرمرمةَ" لن تجلبَ إلا الخرابَ.. أن يراعي اللهَ في بيتٍ أراد هو فتحه.. أن أعطيَه فرصةً أخرى للتفكير.. تركتني حائرةً وتركتُها غاضبةً..فذهبتُ إلى البيتِ وطلبتَ هي أن تبقى قليلًا .

❊ ❊ ❊

(القصرُ الملعونُ)

أجلس في حجرتي لا أخرج منها إلا للدراسةِ أو قضاءِ بعضِ حوائجِ البيتِ، تركتهم يودعون أبي كما شاءوا، رأيت كبارَ القريةِ في العزاءِ، و"يوسفُ" يشكرهم على سعيهم وهو يدرك أنهم لم يجيئوا لحبّهم في"صادق باشا" سمعت حوارَه مع أُمِّي وعمِّ"صابر" ورأيتُه بعد ساعاتٍ يحمل حقيبَتَه ويغادر.

أما أنا شخصيًا فلم أحزن بسببِ وفاةِ أبي..! رجلٌ في السبعينَ ومات..!حدثٌ طبيعيٌّ جدًا في كلِّ بيتٍ، أم أنَّ المالَ أنساهم أنه بشرٌ..؟! وأنا بوصفي ابنَه المفترضُ بي الحزنُ والنحيبُ والنشيجُ وإظهارُ الحزنِ والأسي والانكسارِ واللطمِ والشجبِ والنواحِ وشقِّ الملابسِ، أو على الأقلِّ الامتناعُ عن الأكلِ والشربِ لأنَّ سندي في الدنيا رحل..! لا أحبُّ الاصطناعَ.. سئمتُ كلَّ الكذبِ الذي ملأ هذا البيتَ،ومنذ وفاةِ"صادق باشا"و"فردوس" تحاول إقناعَ"يوسف" بما فشلت فيه.. هي نفسُها لم تسامحه؛ فلماذ تقسوا على الولدِ الذي لو لعن أباه ليلَ نهارٍ لكانَ هذا أبسطَ حقِّه..!"صابر" يُمثِّل دورَ المثالي.. يحاول تجميلَ صورةِ رجلٍ لم يفعل أيَّ شيءٍ يجمّل به نفسَه، أمَّا أنا فلا.. لن أكون مثلهم.."صادق باشا" لم يُمثِّل لي سوى رجلٍ غنيٍّ حرمنى أُبوَّتَه حتى أني لم أفكر إلا في أمواله.أنجبني وهو يقاربُ الخمسين، لا أعلم لماذا جاء بي في الوقتِ الذي فقد فيه الشغفَ بأيِّ طفلٍ.. لم يعد بإمكانِه أن يجلسَ معي دقيقةً واحدةً.. يضمُّنى إلى صدرِه، يغضب حينَ أكسر شيئًا يحبُّه، يمسك يدي لأتعلمَ المشيَ.."صادق باشا" لم يكن يملك هذا الوقت ليفعلَ معي كلَّ تلك الأشياءِ العظيمةِ، جئتُ إلى الدنيا وهو نائبٌ لمجلسِ الشعب فتركني لأُمِّي التي تعاملت معي بمبدأ الثوابِ والعقابِ ومن خلالِ الخطواتِ الضروريةِ الواجبِ اتِّباعُها، عشتُ طفولةً بائسةً كرهت فيها أخي "يوسف" الذي استحوذَ على قلبيهما.. لماذا الفرقةُ..؟ كلُّ الحكايةِ أنه وُلِدَ قبلي بعدَّةِ سنواتٍ، نظرةُ أُمِّي له أظهرت أنه لا حاجةَ لأيِّ ابنٍ آخرَ، فلماذا

أنجبوني لا أعلم، اخترتُ طريقي منذ البدايةِ- التعلمُ والتفوقُ والاستمتاعُ بأموالِ هذا الرجلِ -. عامان انتظرتُ خلالهما تلك اللحظةَ..لحظةَ إعلانِ نبإِ وفاةِ"صادق باشا"ما يعني بدءَ حياتي الحقيقيةِ .

- لم أُخلق لأجلسَ حبيسةَ تلك الجدرانِ الأربعةِ أُشاهد عائلةً تتفكك ورجلًا طماعًا وأناسًا منافقين وولداً حائرًا.. تلك التراجيديا التي تجسدت في هذا القصرِ الكبيرِ لم تمنحني سوى الرغبةِ في الهجرةِ.. وتحديدًا إلى فرنسا.

أعلن الطبيبُ الخبرَ فأدركتُ أنَّ عليّ خوضَ المعركةِ الكبرى في حياتي.. في الطبِّ علمونا أنه في العمليات الخطرةِ يجب موافقةُ أهلِ المريضِ بعد إخبارِهم بمدى الخطورةِ.. الآن أنا أدرك كلَّ شيءٍ..واحتمالاتُ الفشلِ لن تمنعني المحاولةَ.. لا.. لا.. ليست محاولةً.. إنها قرارٌ سيُنَفَّذُ رغمًا عن أيِّ فرد..! اعتزلتهم في الأيام الأولى معلنةً عدمَ اكتراثي بكلِّ ما يدور.. انتظرتهم يفرغون ما في صدورِهم.. من حَزِنَ حَزِنَ ومن هاجرَ هاجرَ..! الآن دوري في ذلك اليومِ الذي خرجتُ فيه من حجرتي.. أُمي تجلس في الصالةِ الكبيرةِ شاردةً كعادتها، تفكر في "يوسف" بالتأكيد.

التفتت إليّ بمجرد أنِ اقتربتُ منها، أدركت أنَّ هناك ما أريد قولَه، بدأتُ الحوارَ الذي انتظرتُه منذ شهرٍ وخفت كثيرًا من أنْ أقولَه رغم اقتناعي به:

- هو يوسف هيجي امتى ؟

- وبتسالي ليه؟!

- علشان نقسم الميراث، هومش المفروض ده اللى يحصل.

- ميراث! إيه اللى انتى بتقوليه ده انت اتجننتي؟

- قبل أن تثور أكملت حديثي، بالراحة كده ومن غير عصبية، أنا عديت الـ٢١ سنة وليا حق في الميراث ومش عاوزه اخده بالقانون، انا عشت معاكم ساكتة طول عمري، مدخلتش نفسي في أي حاجة تخصكم لاني مخصكمش ومن غير مبررات انا عاوز حقي علشان اسافر

واستقل وابدأ حياة جديدة بره مصر، ابعتي ليوسف قوليليه يجي علشان نخلص، وخليكي فاكرة يا ماما ده حقي مش هتنازل عنه ومش هفرط فيه .

لهجتي الآمرةُ دفعتها إلى الصمتِ، لم تتوقعْ مني أنْ أقولَ ذلك.. ذُهلت وأنا أتكلم.. أنا نفسي ذُهلت.. لم أدرك أني بتلك الصلابةِ.. الحقيقةُ أنني أردتُ إنهاءَ الموقفِ سريعًا؛فقلتُ لها ما أريد وعدتُ إلى حجرتي بعد أنْ ألقيتُ كلامًا اختزلتُه سنواتٍ، ولو وقفتُ دقيقةً أخرى لانهرت، ولكنَّ تلك الثواني أشعرتني بقوةٍ غريبةٍ اجتاحتني، أنا قويةٌ لدرجةِ أني أستطيع انْ أطلبَ ماذا أريد بكلِّ قوةٍ وإصرارٍ.. نعم لا رجعةَ فيما طلبت .

❊ ❊ ❊

"إنَّ الصمتَ هو صراخٌ من النوعِ نفسِه،أكثرُ عمقًا ، وأكثرُ لياقةً بكرامةِ الإنسانِ"

غسان كنفاني

(راضي لا يُرفض)

إجازةٌ طويلةٌ من كلِّ شيءٍ-العملِ وأسماءِ المعتقلين ونظراتِ"أبانوب" ومناقشاتِ"ندى" التي تسكن معي في نفس البيت، أحتاج إلى هزةٍ عنيفةٍ بداخلي.. إنذارٍ يلفت نظري إلى الرمالِ التي بدأتُ أغوص فيها.. الليلِ الذي تأخَّرَ فجرُه..

أُريد الخروجَ من هذا التابوتِ الذي سكنته، في حديثنا الأخيرِ"ندى" كانت الإنذارَ وإن ظنَّت أني غاضبةٌ منها، فأنا لم أغضب منها قطُّ.. طلبي أن لَّا أعودَ معها في ذلك اليومِ عادةٌ لم أتخلَّص منها حين أُصابَ بالتوترِأُريد أن أبقى وحيدةً .هي محقَّةٌ.. أنا في حالةِ ركود.. لا أتحرك خطوةً.. في البدء كنت أحلم.. تأجَّلتِ الأحلامُ وأعطيت لها مواعيدَ لأطمئنّ نفسي أني بخير.. الآن لا أحلم وليست هناك مواعيد.. أدفع الساعةَ آملةً في أنَّ المقبلةَ أفضلَ منها فتأتي مثلُها، وهكذا مرَّت الشهورُ ساعةً فساعةً دون أنْ أتحرَّك من مكاني..أُداعبُ أحلامي التي تنسحب ببطءٍ كنكهةِ النيكوتين من روحٍ أقلعت عن التدخينِ للتوّ..أحسّها وأشعرُها تتسرب.. تخرج من أظافري كالدمِ الفاسدِ رغم أنها ليست سيئةً هي في الأصلِ أحلام..! مقالاتي التحليليةُ باهتةٌ.. منذ ستةِ أشهرٍ وأنا لم أقرأ أيَّ بحثٍ جديد.. لم أتحدَّث مع بعضِ اساتذةِ جامعتي التي تربطني بهم علاقةٌ قويةٌ، دومًا يؤكدون أنهم يبحثون لي عن طريقٍ للالتحاقِ بمركزِ الأهرامِ.. أين ذهبت غادة..؟ لا أدري، لماذا أنتظر كلَّ هذا الوقتِ أيضًا لا أدري، لا أدري شيئًا .ذلك اليومُ أصبح حدَّاً فاصلًا.. توقفتُ قليلًا وفكرتُ لأولِ مرةٍ منذ ثلاثِ سنواتٍ: ما الخطوةُ المقبلةُ.."ندى"و"ربيع" يدفعاني إلى حبِّ هذا الرجلِ المختبيء وراءَ جواباته، والقسُّ"بولا"متواطيءٌ بشكلٍ أو بآخر، وجميعهم يريدونني حبيبةً، وأنا أخاف التجربةَ، فالأمر ليس هيّنًا، وأنا لم أجرِّب جرحَ القلوب، سنواتُ دراستي أعقبها بشكلٍ مباشرٍ زواجي، وحتى قصتي مع "أبانوب" خاليةٌ من الذكريات التي عادةً ما تبقى لتؤنّبَ المحبين وتذكرهم بأنهم كانوا يومًا متشابكي الأيدي.. يومًا ما قلبًا واحدًا وروحاً في جسدين، هو خذلني وهذا كلُّ ما في الأمر، أما هذا الرجلُ فقد بدأت ذكرياتُه في اليومِ الأولِ الذي عرفتُه فيه عندما ترك لي ورقةً تذكرني به دومًا؛ فخفتُ أكثرَ أن يكونَ سرابًا، أو رجلًا عَرف أني أشتاق للحبِّ فاستغلَّ الفرصةَ..والآنَ: هل يمكن ذلكرغم أنه لا يعرفني..؟!هل يظهر في عينِ المرأةِ اشتياقُها للحبِّ.؟! . لن أندفع

إليه..إذ لو كانَ قدرًا فسيأتي إليّ رغمًا عني، فلكلِّ شيءٍ تحت السماءِ وقتٌ؛ أما ما يستحق الانتباهَ الآن فهو أنا.. هربتُ منّي كثيرًا.. أهملتُ نفسي عن قصد .عدتُ إلى البيتِ في ذلك اليومِ صامتةً..فَ"ندى" لم تتحدث معي،وتركتني طوالَ الليلِ وإنْ بدا في عينيها الأسفُ،فقد أردت التخفيفَ عنها ولكن لم تسعفني قوايَ التي انهارت هذا المساءَ،وفي اليومِ التالي تبادلنا الحديثَ كالمعتاد -أسئلةٌ عاديةٌ واتِّفاقٌ على أنَّ الشقَّةَ تحتاج إلى تنظيفٍ.. بدونا سخيفتينِ ونحن نخفي حديثًا نريد قولَه

- ندى مفيش حاجة حصلت ..كلامك عن راضي مضايقنيش دي حقيقة.

- والله العظيم ما اقصد، انت اختي وأنا بحبك.

- ولا يهمك والأيام الجاية أحسن بكتير، كنت محتاجة حد يفوقني ، شغلي محتاجني أما الجوابات فمش هغامر.

- اللى يريحك بس المهم إنك تتحركي.

- ارتاحت كثيرًا حين قلت إن ذكر راضي لم يغضبني، في الحقيقة سيرته دومًا تعني لي أيام هادئة، لا يمكن الغضب من رجل عشت معه سنة وإحدى عشر شهرًا لم يجرحني فيهم بكلمة، لم يقل لي أف،ابتسامته أحد أسباب عدم رفضي للزواج منه كأنه رسالة سلام جائتني ورحلت.

جاءني "راضي" وأنا في آخرِ سنةٍ من دراستي في الكليةِ، وأنا لم أكن أهتمُّ بأيِّ شيءٍ سوى بما أفعلَه- خروجي من البيتِ قليلًا واستطاع هو أن يلمحني كثيرًا في تلك المراتِ القليلةِ- حكى لي بعد زواجِنا كيف مشى ورائي من البيتِ حتى محطةِ القطارِ وكيف عرف مواعيدي من أُمِّه التي تبعد عنا بثلاثِ بيوتٍ فقط. هو جاري وبين عائلته وعائلتي علاقةُ نسبٍ، وهو شابٌّ أبيضُ صاحبُ جسدٍ رياضيٍّ يهتمُّ به.. له عينانِ تميلان للسوادِ وشعرٌ ناعمٌ قصيرٌ، هاديءٌ كثيرًا ولديه ابتسامةٌ لا تشير إلى أنه يعمل طبيبَ جراحةٍ.. منذ عامين وسمعتُه في البلدِ جيدة،تقدم لي ولم أعرف عنه أيَّ شيءٍ.. أذكر اليومَ جيدًا.. كنتُ توًا عائدةٌ من الكليةِ بعد يومٍ لم تكن فيه سوى محاضرةٍ واحدة، وتناولت قبل ركوبِ القطارِ"ساندوتش شاورما" ولمَّا وصلت إلى البيت وما إن جلستُ في حجرتي حتى دخل عليّ الحاجُّ"عبداللاه" مبتسمًا كعادته.. ومرَّرَ يدَه الحانيةَ على شعري فنظرتُ لعينيه اللتين تريدان قولَ شيءٍ .

- في حد جيه عاوز يخطبك.

كانت تلك هي المرَّةَ الأولى التي أسمعفها تلك الكلمة.. بمفهومِ بنتٍ صعيديةٍ هناك من تفحَّصَ جسدي جيدًا وأرادني لنفسِه.. ليس لي سابقُ خبرةٍ.. أبي رفضَ كلَّ من طلبوني للزواجِ قبلَ أن أراهم حتى:

- البنت لسه صغيرة..

هذا هو ردُّه على جميعِ من تقدَّم لخطبتي، وكان يخبرني بعدها، أما اليومَ فجاء من يريد خطفَكِ فطردتُه.. يقولُها ويحتضنُنى فأضحك كالطفلةِ حين أُجيبُه:

- انا عاوزة حد بطعامتك.

أما مع "راضي" فقد اختلف الأمرُ.. إحساسي ذاتُه.. اضطربت وقلقت واحمرَّت وجنتاي وارتعشتْ يداي تلقائيًا، فهو الوحيدُ الذي لم يتحرَّك لأمرِهِ قلبي..بعد تلك الثواني واستجماعِ عقلي أدركت أنَّ مجيءَ أبي يعني موافقةً ضمنيةً عليه..آآآهٍ لو يعلم "عبداللاه"ما معنى أنْ يوافقَ علي شيءٍ كهذا..أفقدني القدرةَ على الحديثَ بعينيه المبتسمةِ.. أخبرني باسمِه فابتسمتُ أنا الأخرى؛ما جعله يظنُّ أنَّ ابتسامتي تعني الموافقةَ..! والحقيقةُ أنَّ أولَ صورةٍ خطرت على بالي لِـ"راضي" وهو مبتسمٌ؛ فلم أملك إلا أن أبتسم. "أبانوب" مازال يشغلُني،ولكن منذُ المرةِ الأخيرةِ التي حاولتُ فيها أن أعترفَ له وأنهىَ الحوارَ سريعًا لم أعد أُفكِّرُ فيه، واليومَ عاودت التفكيرَ.. سأذهب مع رجلٍ آخرَ، وسيكون هذا هو المحرِّكَ الأقوى له.. لا يمكن أن يصمتَ أكثرَ من ذلك..! وعلى غرارِ الرواياتِ الرومانسيةِ سيأتي الى البيتِ ويهتف: إنه يحبني، لن يمانع أبي لو رفضتُ"راضي" وقتها،وسيفعل ما أُحبه .

مضت الساعاتُ واتفقَ أبي على كلِّ شيءٍ ولم يتحرك "أبانوب"..! ولم يأتِ للبيتِ ويهتف.. ولم يخبر أحدًا حتى من بابِ التأسِّي أو الشتيمةِ.. رهاني خاسرٌ وأحلامي طفوليةٌ..لم أشعر أيضًا باقترابي من بيتِ رجلٍ سأعيش معه .

ومنذ أنْ تُوفِّيَ وأنا أفكِّرُ في تلك الأيامِ بالتحديد.. حالتي غريبة.. لا أحبه ولا أكرهه.. أرفض زواجَه ولديَّ رغبةٌ فيألَّا أعلنَ ذلك.."راضي" كان يملك سرًّألَّا يرفضَه أحدٌ..!وليس هذا رأيي بل هو رأيُ كلِّ من تعامل معه، فإنَّ لديه طريقةَ تعاملٍ وابتسامةً وأدبًا تجبر الجميعَ على أنٍ يقولوا له نعم..! كما أنه يمتلك

القدرةَ على تلبيةِ كلِّ طلبٍ منه حتى لا يخذلَ أحدًا.. ظننت أنَّ ذلك وجهًا يرتديه في البداية ولكنها كانت طبيعتَه.. يا اللهُ! كيف أبحث عن الحبِّ وأمامي رجلٌ رُؤيتُه تبعث على الارتياحِ والطمأنينةِ، ويداه الدافئتان تشعل جسدي بلهيبٍ لا ينطفيءُ حتى يتركَها.. ملأ"راضي" حياتي بمجردِ إعلانِ خطبتنا.. فهو مخلصٌ ويحبني كثيرًا؛ أمَّا "أبانوب"فلم يَظهر ولم أشأْ أن أُفكرَ فيه، فكل شيءٍ مضى بسرعةٍ حتى ذلك اليومِ الذي تزوجته فيه -يومَ رآني "أبانوب" وسكت وتوارى وخاف وخجِلَ وجبُنَ وخذلني.. فرحةُ أبي وأمي و"راضي" جعلاني سعيدةً قررت أنْ أحبَّ"راضي" في اليومِ الذي دخلتُ معه إلى شقَّتِنا التي اشترطتُّ أن تكونَ كبيرةً بجانبِ شروطٍ كثيرةٍ لا أعلم لماذا اشترطتُها، ولا أعرفُ كيفَ وافق عليها "راضي" بكلِّ رضا..

❋ ❋ ❋

"لايستطيعُ أحدٌ إرجاعَ الزمنِ إلى الخلفِ، وبدءَ حياةٍ جديدةٍ؛ ولكنه يستطيع الآنَ أن يضعَ بدايةً جديدةً ليسطرَ نهايةً جديدةً. . !"

غسان كنفاني

(العودة)

المرةَ الأولى التي أشتاق فيها إلى مصرَ.."تمارا" جعلت حياتي جحيمًا خلال الأسبوعين الماضيين، لم تقتنع أنَّ وفاةَ أبي سببُ قلةِ كلامي معها.. هي محقةٌ..تعرفني جيدًا وتعرف أني لا أُحبه.. رغم أني لم أحكِ لها عن أيِّ شيءٍ..كانت كلماتٍ عابرةً فقط عرفتْ من خلالِها أني لا أنتمي إلَّا لنفسي؛ فاكتفت بذلك ولم تخُضْ في تفاصيل .

عرفتها بعد أيامٍ من وصولي إلي الشارقةِ.. كنت أتسكَّع في شارعِ"الزهراء" بعد منتصفِ الليل.. اعتدتُ ذلك لأختليَ بنفسي قليلًا قبل أن يناديني أحدُ الأشخاصِ بصوتٍ خافتٍ: إن كنتُ أبحثُ عن مكانٍ لأسهرَ فيه..! لم أرفض، فلم يكن لديَّ مانعٌ من أيِّ نوعٍ، وماذا يضير التائهَ من الوصولِ إلى مكانٍ حتى لو لم يكن يريده.. أصواتُ صخبٍ وفتياتٌ يتراقصن في مكانٍ يبدوا من الخارجِ مهجورًا، ويقفُ عند بواباتِه عليه عملاقان يسألان الداخلَ والخارجَ: أين يذهب رغم أنه لا إجابةَ عن ذلك..! لم أدخل من قبلُ مكانًا كهذا،فالدخانُ الكثيفُ والأضواءُ الحائرةُ والموسيقي الصاخبةُ لم تزعجني.. ربما يكون ضجيجُهم أهونَ كثيرًا من ضجيجي الداخليّ..وعلى اليمين رأيتُها ترقص بصخبٍ عنيفٍ كأنها تُعارك الهواءَ، تنفث دخانَها بغضبِ مَن يمتلك همَّاً أكبرَ من همِّي..!

استغرقتُ في التفكير.. فوجدتها مقبلةً عليَّ، فعرفت أنها شبهَ مقيمةٍ هنا وتعرف أيَّ وافدٍ جديدٍ، فاقتربتْ مني "تمارا" ومدَّت يدَها بسيجارةٍ فرفضتها؛ فأنا لم أكن من المدخنين.. دقائقُ مرَّتْ وجدتني فيها أُحدِّثُها عمَّن أكونُ أنا، وماذا أعمل وحكت لي هي أيضًا عن حياتها..فهي ابنةُ مديرٍ عامٍّ في إحدى شركاتِ البترولِ.. ثريةٌ في الثانيةِ والعشرين من عمرِها.. بيضاءُ ذاتُ جسدٍ ممتليءٍ قليلًا ونهدين كبيرين يُطلَّانِ من فستانها المفتوحِ قليلًا، مع عينين سوداوين مرسومتين على طريقةِ نساءِ الخليج.. لم تكن ترتدي عباءةً أبدًا هذا ما عرفته لاحقًا.. تكره البلدَ الذي تعيش فيه.. حرمها أبوها من السفرِ فقررت التمردَ على كلِّ شيء.. أقسمت: إنها أحبتني في تلك اللحظةِ ولا يفرق إن كنتُ مسيحيًّا وهي مسلمةٌ..!ففي النهايةِ نحن لم نخلق للزواج، حكت كلَّ شيءٍ والموسيقي صاخبةٌ ولكن سمعتها وسمعتني دون أن نضطرَّ إلى أنْ نصرخَ لكي يسمعَ أحدُنا الآخرَ.. كأنَّ هالةً فصلتنا عن الجميع..!

ووجدتُ معها الأنسَ المفقودَ في حياتي.. طلباتها بسيطةٌ: أن لّا أحبَّ غيرَها إن لَّم أحبَّها.. لم أكن قابلتُ صاحبةَ الشعرِ الكيرلي بعدُ، لذلك وافقتُ بسهولةٍ، وحكيت لِ"نادر" عنها..ولم يكن لي علاقاتٌ عاطفيةٌ قبلَ السفرِ،ولم تكن لي أشياءُ كثيرةٌ أدركتها بعد ذلك.

ولم نمارسِ الجنس.. كنتُ أجلسُ ساعاتٍ أنا وهي.. تُعرِّفُني الكثيرَ عن البلدِ الذي أسكن فيه، وأحكي لها عن البلادِ التي زُرتُها.. الحدودُ بيننا وُضعت دونَ أن نقول.. لا تسألني عن عائلتي ولا أسألها لماذا قررتِ التمردَ.. عرفنا أنَّ لدينا ما يكفي من المبرراتِ لنفعلَ ما نفعلَه الآن .

وحين وقعتُ على صاحبةِ الشعرِ الكيرلي أدركتُ أنَّ لِ"تمارا" وقتًا محدودًا..فهناكَ فرقٌ واضحٌ في كلِّ شيءٍ بين الاثنتين- تمارا تُجسِّدُ التمردَ وصاحبةُ الشعرِ الكيرلي تمثِّلُ الصفاء، الأولى أنانيةٌ الإماراتِ والأخيرةُ عطاءُ أثينا، الأولى كحياتي الجديدةِ، والثانيةُ المحطةُ التي أنوى الوصولَ إليها، الأولى لم أكتب لها والثانيةُ هرولتُ بحروفي نحوها-.

منذ أن رأيتُ صاحبةَ الشعرِ الكيرلي لم أعد أرَ"تمارا" كثيرًا.. ساعدتني الظروفُ التي أحاطت بي لكي أهربَ منها.. في بدايةِ الأمرِ اقتنعتْ ومع مرورِ الأيامِ اشتمَّتْ أنَّ في الأمرِ(إنَّ).. "تمارا" لا تهدأُ إلا حينَ تعرف ما تريد، وما يحدث حولي لم يدع لي الفرصةَ لأن أقولَ شيئًا.. وأنا لم أعرف اسمَ المرأةِ التي أسرتني حتى الآن .

أخبرني "نادر" بمجرد أنْ رأيته أنَّ عليّ أنْ أرى "تمارا".. وحذرني من أن أغدرَ بها فشخصيةٌ مثلُها قد تفعل بي الكثيرَ وأنا في بلدٍ غريب..! ربما خفتُ في أيامٍ ماضيةٍ، أما الآن فلا داعي لهذا.. منذ خرجت من بيتي وأنا أعلم أني عائدٌ له -متي وكيف- لا أدري ولكن لا يمكن أن يظلَّ الوضعُ هكذا..فلن أظلَّ طريدًا..! هناك لحظاتٌ تأتي لكي أستريحَ..أطمئنَّ..أعودَ إلى فراشي وأحضنَ ملابس القديمة .

جلستْ أمامي ويبدوا عليها النعاس، هي لا تستيقظ في الظهيرةِ أبدًا، وتبدوا عليها آثارُ سكرٍ من ليلةِ الأمس، وبدت لعينيَّ امرأةً فقدت عمرَها الذي لم يبدأ بعد، حضّرت كلَّ شيءٍ ممكن قولُه، ولم أهتمَّ لغضبِها كثيرًا.. كلُّ شيءٍ لا بدَّ من أنْ ينتهيَ.. بدأت هي في الحديثِ:

- شفتلك حدا غيري؟
- مش مهم علاقتنا كان لها يوم وهتنتهي انت نفسك قلتي كدا.
- بس كمان قلتلك متحبش حدا غيري.
- انا محبتش.

- كذاب ، انت مفضوح قدامي، بدك تمشي الباب يفوت جمل بس مش هتقعد في المدينة يوم واحد، انت عارف ممكن أعمل إيه؟

نظراتُ الشرّبدت في عينها واضحةً..كلُّ شيء فيها تحول–جبينُها، لونُ بشرتِها، حركاتُ يديها الآمرة.. لم أدرك: هل أشعر بالإهانةِ أنَّ مثلَها يُحدِّثُني هكذا، أم ألوم نفسي لأني أنا مَن بدأ تلك القصة..؟! قالت كلماتِها بحسمٍ فأدركتُ أنها صادقةٌ وتستطيع أن تفعلَ ما تريد.. غادرتها صامتًا لا أنوي فعلَ شيءٍ.. لم يتملَّكْني أيُّ إحساسٍ.. روحٌ سائرةٌ على الأرضِ تعبث في الفضاءِ وحدها .

قضيتُ الأيامَ الماضيةَ من العملِ إلى البيت، أفكرُ في صاحبةِ الشعرِ الكيري، وأنتظر عودتي التي لا أعرف كيف ستكون إلَّا حينَ جاءني صوتُأمِّي يطلب مني أنْ أعودَ إلى القاهرةِ..أُمِّي تحتاجُني دونَ أيِّ تفاصيلَ أخري.

لم أستأذن صاحبَ العملِ،ولم أطلب من "نادر" التوسُّطَ لكي يعطيَني إجازتي.. حزمتُ حقيبتي التي جمعتُ بها كلَّ ملابسي تقريبًا وحجزت أقربَ طائرةٍ للعودة.إنها النهايةُ.. يعلم "نادر"ذلك وهو يراقبني من بعيدٍ أُحكم حقيبتي على كلِّ شيءٍ لي في تلك الشقة،وقد تأملتها كثيرًا وودَّعتها بأدبٍ جمٍّ، فهي تحملتني وهي لا تعرفني.. لم تحمل ذكرياتي ولم ترَني إلا عابثًا قلقًا فزعًا كلَّ ليلة، وشكرت سريري الذي صبرَ على صوتِ استيقاظي من كابوسٍ متكررٍ.. دولابٌ لم يحمل إلا ملابسَ مهندسٍ.. جدرانُها التي استوحشتها فلم تنكرني، وكنت قد ظننت أنَّ الأيامَ مرت بسرعةٍ هنا؛ولكنْ في تلك اللحظةِ أدركت أنها ثقيلةٌ جدًا وحاملةٌ للكثيرِ من الأسرارِ والخفايا وإن كان المشهدُ يبدو متكررًا، لكن مع كلِّ تكرارٍ هناك تغييرٌ ما.

"نادر" صامت.. نظر إليَّ نظرةَ مَن لا يملك من الأمرِ شيئًا، فهو الذي كرر أكثرَ من مرةٍ أنَّ مجيئي هنا مؤقتٌ، وأنَّ العودةَ مكتوبةٌ.. يحزن الآن لإني أتركه.. حقيقةً هو أفضلُ ما في رحلتي العجيبة.. يا اللهُ: كيف لم تمنحني "نادر" آخرَ في مصر.. ربتَ على كتفيَّ واحتضنني قائلًا:

- توصل بالسلامة يا صاحبي.. قلتلك أكتر من مرة مصر أحسنلك..

- اديني راجع.

- ارجع وانسي كل حاجة وأبدأ من جديد.

- وانت؟

- قدامي سنة وابعت لبنت عمي هنا واتجوزها، احنا مش زيك ولاد بشوات، الغربة لينا أفضل بكتير والناس هنا متعاونين معايا.

- ليه عملت معايا كل ده؟

- مش عارف بس زي ما تقول ان ربنا بعتني ليك كده علشان لازم يبقى في حد معاك.

تعجبت من ردّه.. أغلقتُ بابَ الشقةِ فملأ الهواءُ رئتَيّ.. لم يكن هواءَ"الشارقة"..! لقد عرفته جيدًا خلال السنواتِ الماضية.. هو هواءُ من سيستعيد روحَه ويستردُّ كيانَه..شعرت بأعصابي تنتفض بعد فترةِ استرخاءٍ، كأنَّ الدماءَ جرت فيه للتوِّ، دماءُ الحريةِ والعودةِ إلى الأصلِ وصاحبةِ الشعرِ الكيرلي.. صدق "مندور" من منعك عن المجيء رحل.. تستطيع العودةَ في أيِّ وقتٍ .سأغلق بابَ"صادق باشا".. أُمّي وأُختي يحتاجان إليّ، هناك حيث العزبةُ يمكن أن تكون هناك بدايةٌ جديدةٌ، لا أعرف سرَّ الأملِ الذي سرى في جسدي فجأةً فأحياها كما تُحيي المياهُ الأشجارَ اليابسةَ.. تسرَّب إلى كلِّ بقعةٍ وأعطى لها أوامرَ الفرحِ.. أنا لم أكن أبدًا هنا..لم أحبَّ الشارقة..! لم أرتح لها،فالمصريون معذورون..لقمةُ العيشِ لا تمنحهم رفاهيةَ الاختيارِولكني أملكها.. حاولت التأقلمَولكني فشلت.. مبانيها الشاهقةُ زادت من عزلتي.."تمارا" التي آنَسُ بها أوحت لي بكيفيةِ السيرِفي طرقاتٍ لم أكن أدري معالمها.

وفي الطائرةِ نظرت كثيرًا إلى السماء، ودعوت الربَّ أن يُصفِّي قلبي تجاهَ كلِّ شيءٍ حتى أعودَ كما كنت.. شابًا لا يحمل بغضاءَ ولا كرهَ لأحد..لم يرَ الموتَ، ولم يسمع صرخاتِ أحمد، ولم يعش في غربة،ولم يبعه أبوه، ولم تحزن عليه أُمُّه.. أريد ذلك كلَّه.. فهل له أن يعاونني وهو المانحُ لكلِّ شيء، وسأقبّل قدم أمي وأحتضن أختي وأعيشَ معهما .

وسأطلب الزواجَ بصاحبةِ الشعرِ الكيرلي..وسأشترى مكتبَ هندسةٍ صغيرًا، وأعمل على بعضِ المشروعاتِ الخيريةِ، وأبني لي بيتًا صغيرًا أو أشتريه من مالي.. شرطَ أن يكونَ قريبًا من قصرِنا كي لا أبعدَ عن أمي.. آآآهٍ ياربِّ حققْ لي كلَّ هذا.. امنحنى القوةَ.. عوضني عمَّا فات.. استحلفك بالبتولِ ألَّا تكسرَ قلبي أبدًا .

❊ ❊ ❊

"كنتُ أظنُّ القمرَ يقطنُ في أعالي السماءِ حتى اكتشفتُ ليلةَ نزهتِنا أنه يقطن في عينيكَ"

غادة السمان

(طمأنة)

خطبتُها بالأمسِ وصمَّمتُ كأيِّ مخطوبين جددٍ أن أذهبَ إلي بيتِها لأقطعَ طريقَ القاهرةِ الإسكندريةِ ٤ مرات في ٤٨ ساعة .

ضغطت على جرسِ الشقةِ التي مازالت تُزيّنها أضواءُ أمس، فخرجت "ندى" بوجهٍ مضيءٍ تحاول أن تحجبه عن شعاعِ الشمسِ المتسللِ مباشرةً إليها ليزيدَها نورًا على نورِها، ببيجامتِها البيتي وحذاءٍ قطيفيًا،ونظرتْ إليّ بدهشةٍ، فلم أقل لها: إني قادم .

- انت ايه اللى جابك؟

- دي كلمة تقولها لخطيبك برضه.

رنت الكلمة الجديدة في أذنيها، أخذتها لليلة أمس التي لم تفق منها حتى الآن

- أيوة خطيبي ايه اللى جابك بقى؟

- مش المفروض الواحد بيزور خطيبته تاني يوم وتبقى محضراله غدا وكده؟

- آه انت جاي تاكل بقى؟

- طبعًا.

- بجد إيه اللي جابك؟

- وحشتيني.

تبتسم أكثرَ مع كلِّ كلمةِ غزلٍ، تحاول أن تبدو حازمةً فتفشل، راق لها وقوفي على الباب.."ندى" تحبُّ من جديدٍ،وأنا أيضًا يتملكني نفسُ الشعورِ

- وحشتك إيه احنا امبارح كنا مع بعض طول اليوم؟

- وليلة واحدة متكفيش مش منير قال كده؟

- اه بس قالها لجيهان نصري وانا مش هي.

- يعني انا اللى منير مثلًا؟

ضحكنا في نفسِ اللحظة، وأصواتنا تداخلت كموجاتٍ تلفزيونيةٍ لتعطي معنى واحدًا، يا الله كم هي جميلةٌ تلك الضحكةُ في ذلك الصباح، وخرجت أمُّ"ندى" كعادتها لي وسلَّمت عليّ ثم غادرتنا على الفورِ كأنها لا تعرفُنا أو ربما تكره هذا المشهدَ السخيفَ لأيِّ عاشقين جددٍ، أو خوفًا من الحنين إلى ما عاشته قبل ذلك..! أسبابٌ كثيرةٌ دفعتها إلى أن تتركنا "نحب بعضنا على الباب" دون أن تكترثَ بالجيرانِ وما يمكن أن يقولوه .بدأت في الحديثِ، نبرةُ صوتها تبدلت وحلَّت نبرةُ قلقٍ حَاولت أن تخفيه وسطَ الكلمات، وأنا ايضًا مثلها، لم أنَم طوال الليلِ بسببِ ذلك الشعورِ الذي اجتاحاني لحظةَ أن أمسكتُ بيديها ووضعت خاتمًا يحمل اسمي.. احتضاني ليديها وسطَ أهلي وأهلِها ونظراتِ من حضروا الحفلَ الصغير، وكذا مع ابتسامةِ أبي التي تدلُّ على اطمئنانِه.. وزغرودةُ أمي التي منحها الله نفسًا طويلًا بالأمس فقط.

هل هكذا تفعل الخطوبة..؟!شعرت أني اتَّخذت أولى الخطواتِ لأحافظَ عليها:

- انت فعلا مقتنع باللي عملناه امبارح..؟!

بدأَتْ في الإفصاحِ عمَّا بداخلها؛ فقد سئِمَتِ الكتمانَ وسئمتُ أنا انتظارَالبدءِ بالحديث، فاختارت أن تتكلم بصيغةِ الجمع.. الحقيقةُ: أنا مقتنع.. ربما خشيت أن أفهمَ أنها هي فقط غيرُ المقتنعةِ رغم يقيني أنها فقط تريد أن تطمئنَّ لي.

- انا عمري ما اقتنعت بحاجة زي النهاردة،عارفك قلقانه مش من النهاردة لا من أول ما قلتلك هخطبك، قلتي المجنون ده هيعمل ايه، زمان كنت بستحمله يصيع لكن البيت والجواز حاجة تاني، مش هقولك عرفت ازاي نبرة صوتك بتكشفك، صدقيني عمري ما كنت مبسوط ومؤمن بحاجة زي اني هجوزك.

- نبرة القلق مازال تصاحبها وإن هدأت قليلًا ..ليه؟

- عارفة أول يوم دخلت شقتنا لقيتك قاعدة مع امي من غير ما أعرف، كنتوا وقتها بتضحكوا اوي، مرات قليلة اللي لقيت امي بتضحك أوي كده، كانت واخداكي تحت باطها وبتعملك ضفيرة وانت في حضنها، مش هنسى الموقف ده ابدًا وقتها حسيت ان مينفعش منكملش مع بعض أول مرة كنت أشوفك مراتي.

- يا سلام وفضلت ساكت من وقتها؟

- مش لما اخلص الشقة الأول أو على الأقل حاجة فيها انتي فاكراها بالساهل كده، وكمان كنت محتاج وقت افكر انا برضه مش أي حد، قلتها بضحك أثار استفزازها، سرعان ما ذهب حين عدلت لهجتي وأنا اضم يديها متقلقيش انا مبقاش ليا ملجأ غيرك؟

- بس انا مش ملجأ ..قالتها وهي تضحك من أطمئن بعد قلق كبير.

❊ ❊ ❊

"أريد أن أستريحَ، أتمددَ، أستلقي في الظلّ وأفكر أو لا أفكر، لا أريد أن أتحرّكَ قطُّ.. لقد تعبت في حياتي بشكلٍ أكثرَ من كافٍ..!

إي والِله أكثر من كافٍ".

غسان كنفاني

(لن تتراجعَ)

أعرف ابنتي.. ملامحَها الحادةَ وهي تتحدث تؤكّدُ على أنها لن تتراجع، فعلى امتدادِ أيامِ عمرِها وهي لم تتراجع في شيءٍ.. عنيدةٌ ومتمردةٌ لا تُظهر حبًا ولا تحمل أيَّ مودةٍ.. لخصتْ كلَّ شيءٍ في قولها "مخصكمش"..أعلم أنها غارت طوالَ حياتها من "يوسف":

- مسكين ابني لا البعيد سايبه ولا القريب حابه، محسود من الجميع.. لا يدرك أحدٌ معاناته إلا أنا.. أنا التي لمحت فيه الطيبةَ منذ أولِ مرةٍ جاء يطلب مني فاكهةً لجميعِ زملائه في الفصلِ حتى لا يشعر أنه فقط من سيأكل.. إصراره ألّا يشتريَ سيارةً أسوةً بكلِّ أقرانه من الأغنياءِ.. طلباته من والدِه لحلِّ مشاكلِ رجلٍ فقيرٍ رآه على أطرافِ العزبة.. حبُّه للخيرِ والجمال وكرهه للصوتِ العالي ومشهدِ الدماء.. يوسف لم يكن يعتني للمال اعتناءَ مَنيُحِبُّه بل كان من أجل أن يسافر به فقط للسفر..!

"نهال" غيره تمامًا، فهي تُشبه أباها..تحب الوصولَ لما تريده، طفولتُها كلُّها رفضٌ لكلِّ ما أطلبه منها.. أشعر أنها تفعل ذلك حتى تغضبَني فقط أو بمعنىً أدقَّ: تعاقبني على حُبِّي ليوسف.. هي لا تدرك السرَّ، "يوسف" ابن عمري الذي انتظرته عشرَ سنوات.. الطفلُ الوسيمُ.. أول فرحة وأول نِصفةٍ في الدنيا لي، مشاعري له أكبر من أمٍّ لولدِها.. هو روحي التي يحملها معه أينما ذهب.. أشعر في أوقاتٍ أني ظلمت "نهال"ولكنى أعود وأقول لم أظلمها.. هي بنتي..فهل يمكن أن أكرهَ"ضناي" كلُّ ما في الأمرِ أنها لم ترضَ إلا بحبِّ"يوسف" وهذا أمرٌ أنا لن أقدر عليه .

اليوم جاءت تطلب ميراثها.. تعلن بصوتٍ قويٍّ أنها لن تتراجعَ في قرارِ سفرِها مهما كان الأمر، لا يمكن أن يحدثَ هذا..! شعرت بالضعفِ وأنا أمامها، فقد تكلمت بلهجةٍ أربكتني.. أين صادق..؟! كان ينظر إليها فقط فتدخل إلي حجرتها دون أن تُكررَ طلبًا يرفضه.. لأول مرةٍ أشعر أني أرملةٌ.. امرأةٌ بلا رجلٍ غيرُ قادرةٍ على "الشخط" فيها، تحسست الهاتف.. أين يوسف..؟!

تلك المرة لم ألجأ إلي "مندور".. أعرف رقمَه وسأكلمه أنا.. لا يمكن للبيتِ أن ينهارَ بتلك السهولة.. آن عليه أن يعودَ ليأخذَ مكانه الطبيعيَّ كرجلٍ للبيت، ويغلق تلك القصةَ القديمةَ..!فلا وقت لما حدث..أخته تريد أن "تطفش" وتتمتع بالأموالِ في بلادٍ لا يُعرف عنها شيء .

جاء صوته بعيدًا كالبلادِ التي يقطنها، وبهدوءٍ حدَّثته يجب أن تحضرَ إلى القاهرةِ لبعضِ الأمور.. يوسف لا يمكن تصريفُ الأمورِ بدونك، قلتها بهدوءٍ عانيت للوصولِ إليه، ارتباكه من صوتي كان ظاهرًا؛ فأجابَ أنَّ لديه بعضَ الأعمالِ التي سينجزها ويأتي خلالَ أسبوعين .

هَدأت روعتي بعد أن هاتفته.. حبيبي هو..يدركني وأنا قلقةٌ ولا يجادلني كثيرًا.. يستشفُّ حالتي من صوتي، قولة "حاضر" لا تفارقه حتى وهو يخبرني أن قدومَه سيتأخر قليلًا.. قالها وهو يعتذر.. صوتُه يدوايني كثيرًا ويمنحني الطمأنينةَ، أما "نهال" فاعتكفت في حجرتها لا تخرج إلا للدراسةِ وتعود، خاصمتني.. لم تكتفِ بما قالته بل قررت أن تكملَ عقابها.. شعرت بحزنٍ عَصَرَ ذلك اليومِ، قبل مجيءِ يوسف بيومين، فهي في حجرتها وأنا أجلس لأتناولَ طعامي وحيدةً، يا عدرا كم هو مؤسفٌ حالي مع أني لم أرتكب أيَّ خطيئة.. يقول "متَّى" المسكين "إذا زادت خطيئتُك فسيشعر بها قلبُك"ولكنَّ قلبي لم يشعر بشيءٍ.. امرأةٌ قاربت الخمسينَ ولديها ولدٌ وبنتٌ عكفت عليهما..زوجٌ راعته وصانت عِشرته.. رحل هو والولدُ مسافرٌ والبنتُ تضنُّ عليَّ بجلوسِها معي، فهي لا تريد ذلك.. تمقت أن ترى وجهي.. بنتي أنا التي حملتها تسعةَ أشهرٍ هي من تفعل ذلك، رفضت الأكلَ سدت نفسي وصليتُأن يأتي "يوسف" ليس فقط من أجل أخته بل لأطلبَ منه ألَّا يتركَ أمَّه وحيدةً هكذا..!

❋ ❋ ❋

"لا أحدَ على أيِّ حالٍ يعرف كيفَ تُرتِّبُ الحياةُ نفسهَا ،

أحيانًا يحسب المرءُ أنَّ قصةً ما . . انتهت، فإذا بها تبدأ"

غسان كنفاني

(باحثةٌ بمركزِ الأهرامِ)

منذ أسبوعٍ لم أجيء إلى المركز.. جئت اليومَ فقط لأشاركَ في الحفلةِ التي أصرَّ الأستاذ "صدقي"على إقامتِها احتفالًا بِـ"أبانوب" الذي نجح في إنشاء منظمتِه الحقوقيةِ الخاصةِ بمنحةٍ من الاتحادِ الأوروبي . "لتكن مشيئتك".. كانت تلك الجملةَ التي قلتُها يومَ الخميسِ الماضي قبل أن أستيقظ على رسالةٍ من أحدِ أساتذتي في الجامعةِ يخبرني أنه وجد لي فرصةَ عمل كباحثةٍ بمركزِ الأهرامِ، يا الله ..أخيراا.. قفزت من على السريرِ.. جريت في الحجرةِ وحذفتُ المخداتِ بيدي وأنا أصرخ بعلو صوتي:

- اوووووه أخيرًا..دخلت عليَّ"ندى"التي فزعت من المشهد، فهي لم ترَني هكذا من قبلُ .

- أخيرًا يا ندي دكتور في الجامعة لقالي شغل في مركز الأهرام، هحقق كل أحلامي.. هكتب في أكبر مركز في الشرق الاوسط.. انتي متعرفيش اصلا ده حلمي من وأنا في الجامعة، كل يوم اقعد افكر لو دخلته بس.. ندى أنا مش مصدقة.. امسكى الموبايل وشوفي في حد كلمني من شوية ولا انا اتجننت.

- اهدي بس، ايوا حقيقي ربنا كرمك، شوفتي بقى مش قلتلك فوقي لنفسك ، اهي دي البداية متفرطيش بقى.

لم أنم ليلتي..أتقلب على الجنبين..أقوم في منتصفِ الليل..فللفرحةِ سحرُها وقلوبُنا لم تُفطم بعد، أشرقت الشمسُ ومعها حلمي الذي انتظرته لسنواتٍ، الهواءُ له مذاقٌ خاصٌّ دفعني إلى فتحِ نوافذِ الشقةِ أشتُّمه لأملأ به رئتَيَّ..وفردتُ ذراعيَّ وبدأتُ في اختيارِ ثيابي، حيرتي زادت عن المعتاد.. فكرت أن أرتدي "فورمال" تراجعت في آخرِ لحظةٍ.. أبدوا كئيبةً بها، فكرت في الزيِّ العادي -بنطلون جينز وبلوزة- لكنه لن يليقَ بالمكان.. الساعةُ وصلت السابعةَ ونصفَ، وموعدي عند التاسعةِ، الطريقُ من "بولاق" إلى الإسعاف غيرُ مضمونٍ في أيِّ وقت.. أمسكت بفستانٍ مليءٍ بالوردِ وارتديته دون أن أُفكر.. لا أعرف كيف حدث هذا .أمام المؤسسة التي تتعدي أدوارُها الثلاثةَ عشرَ طابقًا وقفت قلقةً قبل أن تقودني قدمي إلى الدورِ الثالثَ عشرَحيث مركزُ الأهرام..ليُقابلني أستاذ "محمود" أحدُ الباحثين المسئولين عن قسمِ الشئونِ العربيةِلأبدأ العملَ بتدريبٍ في البدايةِ حتى يصدرَ قرار تعييني.ساعاتٌ قليلةٌ حولتني من "غادة" مدخلةِ البياناتِ إلى باحثةٍ في مركزِ الأهرام.. خرجت ولم يسألني أحدٌ لماذا ارتديتي فستانًا مليئًا

بالورد.. فأحيانا يتملَّكُنا إحساسٌبأنَّ هناك من يراقبنا وسيسألنا عن كلِّ شيءٍ..! اطمئنْ..فأنت تافهٌ لدرجةِ أن لَّا أحد سيهتم بك..! ضحكتُ كثيرًا على حيرتي الصباحية.عدت إلى البيتِ سيرًا على الأقدامِ..أريد أن أُطيلَ وقتَ الفرحِ؛ فنادرٌ هو حينَ يظهر وسريعٌ كقطارٍسائقُه على موعدٍ، وفي الثالثةِ عصرًا وصلتُإلى البيت فارتميت على السريرِ.. نمت هادئةً مطمئنةُ، ثمَّ أخبرت الحاج "عبداللاه" الذي فرح كطفلٍ صغيرٍ شعر بالفخرِ، أمَّا أُمِّي فأحسَّت أنَّ هناك فائدةً من وجودي في مصرَ الآنَ .

جئت اليومَ لأحتفلَ بِ"أبانوب" أستاذ "صدقي" لم يفوِّت الفرصةَ ليباركَ لي ويجعلَ من الاحتفالِ احتفالين، وقفت أمام "أبانوب" مرةً أخرى منذ لقائنا الأخيرِوأنا لم ألتقِ به.. لم أرَه سعيدًا كتلكِ اللحظة.. ضحكته جميلةٌ حين يُغمض عينيه،فهي غيرُ مصطنعةٍ ونابعةٌ من القلب.. وقفتنا بجوارِهِ منحته إحساسَ الإنجاز، أدركت منذ آخرِ مرةٍ أخبرني أنه يسعى لإنشاءِ منظمةٍ خاصةٍ أنه حلمه،فدعوتُ اللهَ سرًا أن يحققه له. وانتهى الاحتفالُ فاقترب مني مباشرةً..فابتسمت له مُباركةً فأخبرني أنَّ مكاني محفوظٌ لو أحببت العملَ معه، فأجبتُ بكلِّ كذبٍ: طبعًا.. - فهو يدرك أنني لن أقبلَ،وأنا أيضًا أعرف ذلك—وربما كان هذا محاولةً أخيرةً منه أو مجاملةً لا أعرف.. انتهى الموقفُ باستئذاني للرحيلِ..والحقيقةُ أني لم أُرد أن أبقى أكثرَ من ذلك.. أشعر بالذنب في كلِّ وقتٍ أتذكر فيه "أبانوب" لن أتحمَّل أن أبقى أمامه كثيرًا .من "جاردن سيتي" إلى كنيسةِ"الدوبارة" استمعت إلى "فيروز" قبل أن أقتربَ من سورِ الكنيسةِ.. الشعور ذاتُه يراودني.. القلبُ مضطربٌ.. الخفقان يعود ولكن تلك المرَّةَ بقوةٍ..! منذ أولِ جوابٍ أصبح قلبي يخفق كلما اقتربت.. أشعر أنَّ جوابًا ينتظرني في يدِ القسِّ"بولس" اليومَ صار الخفقانُ أكبرَ.. عرفت أنَّ في انتظاري شيئًا مختلفًا، فخطوت مسرعةً نحوَالقسِّ"بولس" الذي وجدني مبتسمةً فأعطاني الجوابَ، نسيت في ذلك اليومِ أن أصلِّيَ أو أنْ أقرأَ المزمورَ الخمسين.

في الكنيسةِ فتحت الجوابَ، فابتسمتُ بمجردِ أن وقعتْ عيني على اسمِه "يوسف".. الله..كم أحبُّ ذلك الاسمَ.. أكملتُ السطرَ الأولَ الذي عرفت منه عمرَه ومهنته وأين يعيش، ورسمَتْ مخيلتي صورةً له في ثوانٍ-سيكون طويلًا يملك صدرًا عريضًا، هكذا تمنيتُه قبل أن تقعَ عيني على كلمةِ أُقيم في "الإمارات" هو يأتي فقط لزياراتٍ قصيرةٍ، لاأعلم لماذا انطفأ وهجي بعد قراءةِ تلك الجملةِ .

أكملت الجوابَ..وتعاطفت مع كلِّ كلمةٍ كتبها، وأحسست بالذنبِ على أني لم أواسيه في وفاةِ أبيه.. كيف لا أكون بجوارِه..؟"يوسف"– قرأتُها بعفويةِ مَن يعرفُه لسنواتٍ - يعاني من مشاكلَ كثيرةٍ.. بدا ذلك واضحًا في باقي كلماته، ولأولِ مرةٍ أقرأ عن ميدانٍ يُسمَّى "الرولة" ما القصةُ التي يريد أن يحكيَها، وكيف يظنُّ أنه سيراني..؟! .دقائقُ مرت قبل أن أستجمعَ قواي وأفيقَ من هذا الخيالِ الذي هبط عليَّ فجأةً، وأخذني بعيدًا حيث يقيم هو، خرجت من الكنيسةِ مرتبكةً كثيرًا، فأنا لم أُجرب أن يفتحَ أحدٌ خزانةَ أسراره أمامي على هذا النحوِ..! تكلم "يوسف" بصدقٍ استشعرته من كلماته.. وأحسست به يناجيني لأنتشلَه من كلِّ تلك الأحزان، يستنجد بي لأمدَّ له يدي.. غريقٌ ولكن كيف يراني..فهل أنا قشَّتُه..؟ لا أعرف..!.

عدت إلي البيتِ وأنا أفكر في جملةٍ واحدةٍ.. الأسبوعُ الماضي مات أبي.. كتبها بتلقائيةِ طفلٍ صغيرٍ، لاحظت "ندى" ما أنا فيه فاقتربَتْ مني قلقةً قبل أن أطمئِنَها أني بخير، فأخرجتُ لها الجوابَ باستسلامٍ تامٍّ كي تقرأَه.. وبعد دقائقَ أغلقت الورقةَ بهدوءٍ.. غريبٌ"يوسف" اقتحمني دون أنْ أراه والآن "ندى" تتعاطف معه..؟! استجمعَتْ قواها قبل أنْ تتحدث:

- هتعملي ايه؟

- مش عارفة.

- هتردي؟

- برضه مش عارفه.

- طيب.

انتهى الحديثُ المقتضبُ ودخلت إلي سريري أتقلَّب عليه طوال الليلِ أفكر في أن أكتبَ له، أخذتُ على نفسي عهدًا ألَّا أفكِّرَ في الأمر.. عملي الآن يحتاجاني أكثرَ من أيِّ شيءٍ؛ فأخيرًا قد بلغتُ حلمي ولابدَّ من بذلِ كلِّ شيءٍ، ولكن ثمَّةَ شعورٌ يجتاحاني بأني سأخذله إن لَّم أكتب.. وأعودُ لأسألَ نفسي: وما النهايةُ..!لم تطاوعْني يدي المرتعشةُ حين أمسكت الورقَ، ففي المرةِ السابقةِ أردت الكتابةَفسال الحبرُ ينطق بكلِّ ما أريدُ، أمَّا اليومَفكلُّ شيءٍ يعلن العصيانَ، فوضعت القلمَ بجواري ونمتُ كأنَّ شيئًا لم يكن .

"أنا أعرفك، أعرف كبرياءك، ولوسألكَ أحدُهم:

هل أنتَ سعيدٌ. . ؟

ستقول: أناأُحبُّ الوِحدةَ"

غسان كنفاني

(إرث صادق باشا)

وصلتُ البيتَ ليلًا.. ساحُة البيتِ مضيئةُ والبابُ الحديديُّ مغلقٌ.. لا بأس.. فأنا أحتفظ بمفتاحِه منذ آخرِ مرةٍ جئت فيها إلى هنا، حين وضعتْهُ أمي دونَ أن أدري في حقيبةِ ملابسي. ليس هناك حرسٌ.. رحلوا.. لن يفكر أحدٌ في إيذاء أُمي وأختى، أو ربما اعتذرتْ لهم "فردوس" التى تملك تعيينهم مدى الحياة، لكن "صادق" رحلَ وليس لهما أيُّ أعداء.البابُ مفتوحٌ قليلًا.. دخلت منه بهدوءٍ محاولًا ألَّا أزعجَ أحدًا، وفي ركنٍ على اليمينِ وبجوارِ صورةٍ تجمعني بصادق باشا وجدتها تجلس في ضوءٍ يظهر نصفَ وجهِها مضيئًا والآخرُ في الشِّقِّ المُظلمِ كصورةٍ سرياليةٍ.. لاح خيالي أمامها فاستيقظت من سباتٍ عميقٍ أخذها وهي مفتوحةُ العينين، بدت لي أُمي حزينةً..فمنذ شهرٍ مات زوجُها ولم تكن حزينةً هكذا.. بل مكسورةً.. هكذا ظهر في عينيها التي حملقتْ فيَّ قليلًا كأنها تتأكد مني حتى هرولت إلى صدري تتلمَّس وجهي بيدها وتبكي.. هزَّتني تلك اللحظةِ كثيرًا.. ماذا حدث.. الموتُ لم يفعل ذلك في تلك المرأةِ الصابرةِ الصامدةِ النرجسيةِ وهي لا تدري.. نعم تعالت على الموتِ وأجبرت ابنَها على أن يأتيَ ليأخذَ عزاءَ والده.

انتظرتها تسكب دموعَها على صدري.. صدري الذي كانت تدفِّئه أيامَ الشتاءِ بلحافٍ وحدَه لإنها تعتقد أن البردَ يدخل من الصدرِ فقط..! اشتدَّ عودي الآن لأتحمَّلَها، ثمَّ صمتتْ دقائقَ قبل أن تُجفِّفَ دموعَها وهي تقول حمدًا للهِ على السلامة .

لم أتكلم..جلست بجوارِها وهي تنظر إليّ كأنها تراني لأولِ مرةٍ، قصدت أن أجلس على الأرض لأمرِّرَ يدي على قدميها.. تحبني دومًا وأنا أقوم بذلك منذ أن كنتُ صغيرًا.. اعتدتُ على هذا الأمر.. عيناها تلمع لمعةَ العاجزِ عن الحديثِ، ومنذ أن رأيتُها هكذا وأنا لم أتوقف، وبعد ذلك اتَّخذتها وسيلةً حين تكون غاضبةً..فقطأُمرِّرُ يدَيَّ على قدميها .

مرت دقائقُ الصمتِ قبل أن أتكلم:

- مالك يا أمي؟

- جوزي مات وابني سافر والتانية عاوزة تهاجر تفتكر في بعد كده حزن؟

- مضغت كلمتها التي عاتبتني بها عن سفري، ثقيلة نطقتها وحزينة وهي تردد حروفها، انتبهت إلى الكلمة أخرىز

- نهال عاوزة تسافر.

- لا عاوزة تطفش، تاخد نصيبها من الميراث وتطفش، انا تعبت يا يوسف شيلت فوق طاقتي ومبقتش قادرة، عملت كل اللى يتعمل علشان أحافظ على البيت لكن واضح اني مقدرتش

- اهدي يا امي إن كان عليا مش هسافر ونهال هتكلم معاها كل حاجة ممكن تتحل إلا قعدتك ديه.

- بجد يا يوسف هتقعد..؟!

نسيت أمي في لحظةٍ طلبَ"نهال" وردَّدت:

- هتبقى صحيح معايا.. اقولك أقعد علشان خاطر الربّ وأحلف دلوقتي كمان انك مش هترجع في كلامك.. خايفة أموت وتيجي بعد ما ادفن..

وارتمت في حضني مرةً أخرى وهي تقولها فأبكتني أنا الآخر، وامتزجت دموعُنا في سكونِ الليلِ تحكي الكثيرَ، أوجاعُ ثلاثِ سنواتٍ، تألّمتُ وتعذَّبتُ واشتقتُ وكرهتُ وبغضت ولعنت وسامحت وغفرت، وتحولت إلى مسخٍ حتى عدتُ لتدبَّ فيَّ الحياة.. ثوانٍ هدأت فيها هي وازداد نشيجي، أنا الذي لم يكن في مخيلتي أن أسافرَ أو أن أتعرَّضَ للموتِ وأفقدَ أبي وتبكي أمي.. البيتُ الهادىءُ السعيدُ اقتحمته كلُّ الأحزانِ وأصابته اللعنة .كعادتها هدَّأتِ من روعي وحملت حقيبتي في إصرارٍ لتوصِّلَني إلى بابِ الحجرة.."نهال" تسمعنا..هكذا شعرت حين مررتُ من أمام بابِ حجرتها فسمعتُ صوتَ قدميها يبعدانِ عن البابِ، لي معها نقاشٌ طويل.. ولمَّا استيقظت في الصباح الباكرِ..وشعاعُ الشمس كان قد تسلل إلى حجرتي حاملًا معه نسمةَ هواءٍ رطبةٍ أنعشت أنفي؛ فتحت عيني لأجدني هنا.. هنا في حجرتي، فخُيِّل إليَّ لبعضِ الوقتِ أنَّ السنواتِ الماضيةَ كابوسٌ، وإني سأنزل لأجد "صادق باشا" في مدخلِ البيتِ في انتظارِ طعامِ الإفطار، ابتسمت لتلك الذكرى وأنا أنظر إلى حجرتي.. سريري الذي اشتقت إليه، آخرَ مرةٍ نمت عليه كان يؤرقني كلامُ عمِّ"صابر" أما الآن فأنا هادىءٌ مثلُه تماما.أمام بابُ"نهال"فقد وقفت قليلًا قبل أن أطرقَه لتخرجَ لي.. وضعت عينها في الأرضِ بمجرد أن رأتني، فهي تعلم أني هنا منذ ليلةِ الأمس ولم

تُسلِّم عليَّ،ولكني لم أغضب منها، فقط قلت لها أريد تناولَ الإفطارَ معك فأجابت: حاضر، حمدًا للهِ على سلامتك.

"فردوس" تغير وجهُها..غابت مسحةُ الحزنِ عن عينيها حين جلستُ أنا و"نهال" بجوارِها نتناول الإفطارَ. بدت تشتاق لتلك الجلسةِ منذ زمنٍ وأدركتُ كم عذَّبتْها "نهال" نعم تتقن أختى فنَّ القسوةِ وتغار مني.. ربما تعاطفت معها..نعم دلالي في البيتِ يثير الحنقَ..! وكنت أهرب من هذا التدليلِ حين تكون "نهال" جالسةً،ولكنَّ أُمِّي لا تعرف موعدًا لذلك..!

أستعد للحديث.. أعرف أنَّ أيَّ معارضةٍ مع "نهال" لن تجدي لِعِنْدِها؛ فمن الممكنِ أن تقلبَ الدنيا رأسًا على عقبٍ، هي تشعر أننا لا نريدها لذلك يجب التعامل معها بحرص، تخاف من الوحدةِ لكنها تتقبلها إن كان الأمرُ مصيريًّا، صمتنا ثلاثتُنا ونحن نتناول الإفطار.وأنا أختلس النظراتِ إلى نهال.. يداها ترتجفانِ قليلًا، تلك بدايةٌ جيدةٌ للحديث:

- عاوزة تسافري يا نهال؟

- آه.

- ليه؟

- اكمل دراستي بره.

- وأنا موافق.

نظرت أمي بإندهاش تجاهلته كما تجاهلت اندهاش نهال التي لم تظن إني سأوافق بتلك السهولة، حاولت أمي التدخل فأكملت حديثي:

- فين؟

- لسه مش عارفه احتمال يبقى فرنسا.

- طيب وليه الميراث؟

ارتبكت وارتعشت شفتاها، لم تدرِ بماذا تجيب.. إذا كانت تريد أموالًا للسفر فلها أن تطلبَ بكلِّ أريحيةٍ، أمَّا طلبُها الميراثَ فهو السؤال الذي لم تتوقعه، وبعد تردد جاء صوتُها خافتًا بعد أن سمعتُ صوتًا بتلاعِها لريقها:

- علشان أقدر اسافر.

- تقدري من غير ميراث حتى لو كنتي محتاجة فلوس كمان، بس بلاش دراسة تقدري تعملي دبلومة سنة ولا أتنين وترجعي.

- ايوا بس أنا عاوزة استقل بحياتي.

- ظهر صوتها في تلك المرة قويًا صارخًا بلهجة أعرفها جيدًا، فردوس تتابع الحوار وأنا انظر إليها كي لا تتكلم.

- انتي تقدري تعملي اللى عاوزاه، عاوزة تبني بيت هنا ليكي لوحدك ابنيه، تشتري شقة في مصر مفيش مشكلة، لكن هنا انت حرة زي هناك وصدقيني الغربة مش حلوة أوي زي ما انت فاكرة كنت فضلت هناك، اشتغلي وسافري خدي الدبلومة وارجعي بس خلي البيت زي ما هو بلاش تهديه وكفاية اللى حصل.

هدّأت كلماتي من حدتها قليلًا، لم يعد هناك حجةٌ تملكها؛فكلُّ ما تريده ستقوم به، تدرك أني صادق وتدرك أنها ستفعل ما تريد، وأنا أريد أن لّا أخسرَ أحدًا، فأمي لن تقبل بهجرةِ وأختي.. لن تقبل بالجلوسِ لم يكن أمامي سوى الحلِّ الوسطِ الذي وافقَ عليه الجميعُ قبل نهايةِ الحديثِ سألتني نهال:

- ليه مش عاوز توزع الميراث؟

- علشان يبقى في حاجة لسه رابطة بينا.

- حتى لو الحاجة ديه هي الفلوس؟

- لو في غيرها كنت حلفتك بيها.

قصدتُ كلماتي فانتابها الخجلُ، هكذا هي "نهال" حين توافقُها على شيءٍ تغضبُ، وإذا رفضتَ لها شيئًا تغضب، ولكني أدرك كيف أتعامل معها،فالموافقةُ المبدئيةُ على ما تفعل وإظهارُ الاقتناعِ به، ثم تبدأُ في قولِ ما تريده..وأيُّ طريقةٍ اخرى سترفضها، تعجبت "فردوس" وهي تراها توافق وأنَّ المشكلةَ قد انتهت، فاقتربتُ من أُمي وقلت أمامَها عامان حتى تستطيعَ السفرَ من الممكنِ أن يحدثَ الكثيرُ، فابتسمت لي داعيةً الربَّ أن يحميني دومًا، على حينِ قررتُ أنا أن أخرجَ إلى العزبةِ التي لم أرَها منذ سنواتٍ.

"إنَّ الحياةَ صعبةٌ جدًا إذا كانت للجميعِ"

غسان كنفاني

(الكابوس)

من المفترض أن يسيرَ كلُّ شيءٍبشكلٍ جيدٍ.."ندى" سعيدةٌ منذ ذلك اليوم الذي خطبها فيه أحمد.. حكت لي بعد ذلك أنَّ الأجملَ من ذلك ما فعلَه في اليومِ التالي لخطبتهما حين جاءها ليراها:

- تصوري يا "غادة" جه اسكندرية ٤ مرات في ٤٨ ساعة كان شكله منامش اصلًا.. أتذكر نبرةَ صوتها المنتشيةَ بالفرحِ وهي تؤكد لي أنَّ أشياءَ كثيرةً تغيرت..ففرحت لها وبها.. البيت زاره الفرح بعد ٣ سنواتٍ عجافٍ يبسَ فيها كلُّ شيءٍ حتى عروقنا، أنا الأخرى بدأت في عملي وأصبحت أدخل مبني الأهرام بكلِّ تلقائيةٍ كأنني ولدت فيه، في الأيامِ الأولى كان موظفي الأمنِ يسألونني إلى أين، أما الآن فيكتفون بالابتسامة، أعرف أنَّ الله قريبٌ جدًا ولكنني لم أدرك ذلك إلا حينَ تغيَّرَ حالي في هذا الشهر.. ترتيلُ المزمورِ الخمسين أتي بنتائجه.. كلُّ شيء يوحي بالسعادةِ ولكنَّ شيئًا ظلَّ يؤرقني.. يوسف.. بدونه أنا سعيدةٌ إلا ربع..!قادني قلبي إلى الكنيسةِ..الشمسُ لم تخرج في هذا اليومِ الغريبِ من أيام فبراير.. لم يكن بردًا.. فقط لمسةُ هواءٍ عنيفةٍ يتخللها حرارةٌ تُلامس وجهَك بين حينٍ وآخرَ،ولكنَّ الشمسَ غائبةٌ.. غائبةٌ تمامًا، من الإسعاف إلى وسطِ البلد لم تكن بالمسافةِ البعيدةِ، موعودةٌ أنا بالمسافاتِ التي يجب أن أمرَّ بها من أمامِ تمثالِ"طلعت حرب" في البدءِ"جاردن سيتي" والآن من الطريقِ الآخرِ"فيروز" لم تفارق أذني وهي تشدو:"وأنا بأيام الصحو ما حدا نطرني" تذكرني بي دومًا.. وحيدةٌ منتظرةٌ .قلبي لم يخفق في تلك المرةِ.. لم يتوتر قبل دخولِ الكنيسة.. الآن أنا شفيتُ من ذكرِ ذلك الرجلِ الذي اقتحمني بجوابِه، منذ أن رفضتُ أن أكتبَ له وأنا لا أذكره كثيرًا أو هكذا يُخيَّل لي.

بمجردِ دخولي الكنيسةَ قابلت القسَّ"بولس"..فابتسم وغادر فعرفتُ أنَّ شيئًا لا ينتظرني، فوقفت كعادتي أرتِّلُ المزمورَ الخمسين،وفي منتصفِه سمعتُ أصواتَ قدمٍ تقترب..وهو يحاول أن يُخفيَ ذلك الصوتَ بالمشي على أطرافِ قدميه، فقطعتُ ترتيلي في اللحظةِ التي جاءني فيها هذا الصوتُ:

- زي ما شوفتك أول مرة..

يفترض الآن أن أتوتَّرَ.. تزيدُ نبضاتُ القلبِ الذي خانني فخفقَ حينَ غابَ وغابَ حينَ حضر..مفترضٌ أشياءُ كثيرةٌ لم يحدث منها أشياءُ كثيرةٌ، وجدتُني هادئةً أستمتع بصوتِه.. كلماتُه التي

اشتقتُ لها منطوقةً.. غزلُه المفعمُ بصدقٍ يخرج من طفلٍ صغيرٍ، يا الله أربكتني كلماتُه وأذابني صوتُه.. ماذا أفعل الآن..؟! تلك لحظةٌ لم أنتظرها-يا عدرا ساعديني، كيف يمكن الهروب من ذلك القدر المختبيءِ ورائي..؟- لا شيءَ يلوح في الأفقِ، فنظرتُ بطرفِ عينَيَّ يمينًا ويسارًا فلم أرَ أحدًا، فالكنيسةُ خاليةٌ تمامًا حتى القسُّ"بولس" لم يكن من عادته أن يختفيَ هكذا، أين ذهب الجميعُ وماذا أفعل الآن..؟ أفكر في ذلك كلِّه متوهِّمةً أني مازالت أُرتل المزمورَ الخمسين على الرغمِ من أنَّ شفتَيَّ لم تتحرك، فحاولت الاستفادةَ بالوقتِ قدرَ ما أستطيع وهو صبورٌ فوقَ ما أتحمَّل، نطق كلماتِه الأولى وصمتَ كأنه يريدني أن أبتلعَ حروفَه وأحفظَ نبرةَ صوتِه جيدًا قبل أن يُكملَ ..غادة.. نطقَ اسمي الآن.. سمعته من بين شفتيه.. يقولها بحنانٍ ممزوجٍ باشتياقٍ.. فالتفتُّ إليه صامتةً ونظرت إلى عينيه في البداية، غاباتٌ من الحزنِ تُشكِّلُ سوادَ تلك العينِ في وجهٍ أبيضَ وشعرٍ ناعمٍ ووجهٍ خالٍ من الشاربِ والذقن..!

أكمل كلماتِه كأنه ساحرٌ يروق له استسلامُ متفرجيه فيبدعُ أكثرَ:

- انا جاي علشانك.. يكفي.. لن أتحمل أكثرَ من تلك الكلماتِ كي أسقطَ. أنقذَني دخولُ أطفالٍ فجأةً.. كدتُّ هرول إليهم أو أخرجَ مسرعةً قبل أن أنطقَ يوسف.. قلتها متسائلةً عمَّن لديه يقين بالإجابة.. ابتسم قليلًا حين تذكر أنى لم أخبره باسمي فقال "غادة" هكذا أخبرني القسُّ"بولس"

- ممكن نتكلم شوية؟

-أفقت قليلًا وبدت نبرةُ صوتي تعود؛ فأشرتُ أني ليس لدي مانع:

- ايه رأيك هنا؟

- هنا؟

- الكنيسة دي انا بحبها ، زمان حبتها علشان الثورة دلوقتي حبتها اكتر لما شوفتك فيها.

أردت إنهاءَ الغزلِ المندفعِ من فمِه ليسري في جسدي كالمخدرِ، فسرنا نحوَ ركنٍ من الكنيسةِ سبقني هو وأعطاني الفرصةَ كي أرى جسدًا متوسطًا ذا أكتافٍ عريضةٍ، يرتدي "تي شيرت" أبيض و"بنطلون جينز" أزرق وحذاءً يلمع، يبدوا أنه على مشارفِ الثلاثينات تمامًا كما قال.

جلسنا وبدأتُ أنا تلك المرةَ بالحديث.. عزيته في والده.. لا أدري لماذا بدأتُ حديثي معه بالعزاءِ كأنني أتخلص من ذنبِ الجوابِ الأخير؛ فابتسم شاكرًا على تلك المبادرةِ قبل أن يسألَ:

- انتي مين؟

- أنا غادة.

- وبعدين ؟

- خلينا في دلوقتي بعدين كلمة محدش يملكها.

- قولي ايه القصة اللى محكتهاش في جواباتك وليه مزعلتش على ابوك؟

- قصة طويلة جدا.

- احكيها.

- ليه؟

- لإني عاوزة أعرف أنت مين.

- هبدأ معاكي من الأول.. الأول خالص لما امي قعدت ١٠ سنين علشان تخلفني، اتولدت أول طفل لرجل غني،غني جدًا وليه نفوذ، مكنش ليا شقة كان قصر، الجدران عالية والساحة مفتوحة والخدامين كتير، كنت بسيبهم كلهم واروح لأمي مكنش هاممني كل دول امي كنت بحس فيها بالحب لكن الباقي بينفذوا اوامر، كبرت مبحبش الفلوس، حبتها ساعات لما كنت بسافر أو بشتري حاجة حابيها لكن غير كده لا.صممت ابقى شاطر في المدرسة وحبيت كلية الهندسة، طول الوقت صادق باشا – ده اسم ابويا- كان بيدعمني، فرح لما شافني مش صايع يمكن حسبها بحسبته اني مش هبدد ورثه لكن انا مكنتش بفكر كده ، انا كنت عاوز اعمل حاجة ليا، اختي نهال كانت دايما غيرانة مني لكني متأكد انها بتحبني، عشت ٢٥ سنة في البيت مش واجع دماغي بأي حاجة انا عادي جدا ساذج كمان لو جاز القول !

- وبعد ما وصلت لـ٢٥سنة ايه اللى حصل؟

في يوم ناداني صادق باشا وطلب مني اني اطلع رحلة مع شباب إلى اليونان، مكنتش فاهم ليه الطلب في الأول انا سافرت قبل كده طيران، وافقت على اساس انها رحلة وفعلا اتجهزنا مع شباب كتير وبعد اسبوع سافرنا الفجر، ركبنا مراكب صغيرة وكان الكل خايف وقتها الا انا، مكنتش عارف إيه اللى بيحصل اصلا.

انقبضَ قلبي قليلًا ووقف قفةَ من يبتلع ريقَه قبلَ أن أسأله أن يُكمل.

- على المركب عرفت انها هجرة غير شرعية، وعرفت أن ابويا بيعمل كده من زمان، اتقبض قلبي ورفض عقلي الفكرة رغم ان كل حاجة حواليا كانت بتقول كده، أو على الاقل كنت عارف ان الغني ده مش من فراغ، احمد اللى وقف معايا على المركب لساعات كان هو اللى فهمني ده كله، قالي ان الناس كانت رافضة تدفع علشان خايفة، أبويا المبالغ اللي بيطلبها أعلى من اي حد لكنه مضمون، وعلشان يطمنهم جابني علشان اكون في الرحلة، محدش هيقول انه هيغامر بابنه فالكل اطمن ودفع، ايوا زي ما سمعتي انا كنت الضمان قالهالي وهو مش مصدق اني معرفش حاجة عن ده كله وقلق أكتر قبل ما الموج يبدأ يكتر ويضرب في البحر.

- وبعدين؟

- الموج كتر ..لحظة أول مرة اشوفها في حياتي ومكنتش متخيل إنها ممكن تيجي، الأصوات عليت مرة واحدة وكله بقى بيجري زي خلية النحل علشان ينقذ المركب لحد ما أول واحد نط في البحر، كان إنذار ان اليأس وصلنا.. أنا وقفت في مكاني، شكل الناس في المصايب بيتغير، وفي لحظات ملامحهم بتتبدل، كل اللى كانوا كارهين الحياة عملوا المستحيل علشان يتنفسوا، تصدقي الصدمة هي اللي خلتني أقف.. شلتني ومتحركتش وفجأة مبقتش أسمع حاجة حواليا.. معقولة أبويا تاجر بيا، راهن على حياتي علشان صفقة، كل مرة افتكر ده عقلي بيتشل، المركب غرقت وكله بقى في البحر وأنا غرقت في حزني، بشاعة أجسامنا في عز الليل، كل حاجة ساقعة حواليا، واستسلمت رغم إني بعوم كويس، لكن حطيت ضهري على الميه ومقاومتش، كنت عاوز أموت في اللحظة ديه، أول مرة اتمني الموت ، اصواتهم بدأت تعلى اللي يستشهد واللي ينادي الرب واللي يدعي على صادق لحد ما جالي صوت من بعيد ناداني باسمي، هو أحمد اللى عرفت انه من بنها، وصاني على أبوه، غمضت عيني وسبت الميه تسحبني زي ما هي عاوزه أكتر من ساعة لحد ما بدأت أعوم، الميه بتسحبني لليونان، قربتني مسافة كبيرة كأنها مش عاوزاني أموت ..٣ سنين المشهد ده كابوس ليا كل يوم،بعديها رحت الإمارات وعشت هناك .

ذرفتْ دموعي وهو ينهي كلامَه.. يا اللهُ؛ كم تعذَّب يوسف.. كم رأى من أهوال.. لم أتخيل أن ألقى من قابلها.. رقَّ صوتي كثيرًا وأنا أسأله

- علشان كده كرهته..؟

- ياريت، حتي ديه فشلت فيها تصدقي، صادق باشا سياسي شاطر وبيعرف يوازن الأمور، فضل يديني كل حنان الدنيا ومرة واحد باعني، ٢٥ سنة وهو بيقولي إنه بيعمل كل حاجة علشاني وبعدين تاجر فيا كده بكل بساطة علشان صفقة، مكنش بيكسر بخاطري علشان في الآخر يكسرني..!

- ومكرهتوش ليه..؟

- لأنه سابلي ذكرياته الحلوة جوايا، متعرفيش الحاجات اللى بتترزع فينا واحنا صغيرين مستحيل تتشال، العقل ساعتها بيبقي فاضي والروح صافية علشان كده الحاجات ديه بتعيش جوانا ومهما مر الزمن بتفضل هي ثابتة لإننا صدقناها، عارفه دراسات علم النفس بتقول أن شخصية الانسان بتتشكل ٩٠% منها لحد ٧ سنين ده اللي بيفضل طول العمر الباقي بيتغير مع كل مرحلة، وهو سابلي كل حاجة حلوة وأنا صغير، معرفتش اكرهه حتى لما سافرت قررت أنساه، مفكرتش هحبه ولا أكرهه، صحيح حنيت ليه لما اتشل بعد خبر غرق المركب، لكن المرة الوحيدة اللى فكرت لما قابلت عم صابر صاحبه وقالي مش هتعرف تكرهه، أقولك على حاجة، أنا كنت بكذب أوي وأنا بلعن فيه قدام عم صابر، صوتي مهزوز وأعصابي بتترعش، هو فهم أصلًا، بَصلي بصة إني بكذب فصوتي لقيته وطي لوحده ، قالي إنك بتحبه وسابني ومشي ولما سافرت عرفت إني بحبه فعلا ، طبعا انتي متعرفيش عم صابر عمومًا هو صاحبه

- هي دي القصة اللى قلتلي عليها..؟

- مقلتش لحد على القصة ديه غيرك.

- وعايش في الإمارات..؟

- كنت...– لاحظ الفرحة التي ارتسمت على وجهي دون أن أدري – لكن جيت.. ما أنا مش هفضل غريب كتير جيت لأمي وليكي.. أيوا انتي يا غادة، يااااااه متتصوريش الراحة اللى أنا فيها دلوقتي لما كلمتك وقولتلك على كل حاجة،هم وانزاح من على قلبي.

- أنا كمان مبسوطة إني عرفتك، جواباتك خلت عندي شغف أعرفك.

- إنتي كمان بتحب الجوابات..؟

- من زمان أوي.

- دي مرض بالنسبالي، كنت بكتب لمجرد إني عاوز أكتب لكن عمري ما بعتها لحد.

- عمري ما كتبت جواب إلا ليك أنت..!

- عاوز أعرفك..؟

- أنا مختلفة عنك خالص، مش بنت باشا، بنت راجل اسمه عبداللاه ثروته كلها بناته، تحس إنه اتولد في مكان غلط هو صعيدي، إحنا أصلنا من المنيا، لكن هو حاجة تانية خالص تحسه كده مولود في ايطاليا حنيته وحنانه وايمانه بينا هي الحاجة اللى وقفتنا على رجلينا.. "عبداللاه" أكتر حاجة بحبها في الدنيا.

- وإيه تاني كملي؟

- مفيش متفوقة في الدراسة ودخلت كلية علوم سياسية وفي القاهرة بقالي ٣ سنين عايشة مع ندى أختى اللى لقيتها هنا، حلمي إني اشتغل في مركز الاهرام وحققته – من شهر بس.

- والحب..؟

- أنت عرفت الحب..؟

- معرفتوش إلا لما شوفتك.

ارتبكت كثيرًا قبل أن يكملَ باندفاعه.

- مكنتش غاوي بنات، وأي بنت أشوفها أحط راسي في الأرض، بنت واحدة بحب اشوفها كانت بتيجي الكنيسة كل حد لحد ما عزل ، زعلت شوية وخلاص الموضوع مبقاش في دماغي مع إني مش من النوع اللي بيعادي الحب لكن مجاليش أو تقدري تقولي إنه في الوقت اللي المفروض أحب فيه كنت بحارب علشان أفضل أعيش وأنتي..؟

- معرفتش الحب لكن عرفت الجواز، صدمته الإجابة كثيرًا شأن أي فرد يعلم إني كنت متزوجة، لكن صدمته تحولت لشحوب أفزعني قبل أن تعود قسمات وجهه إلى ملامحها، رأيته عاشقًا مصدومًا شحوبًا في دقائق معدودة قبل أن يسألني إيه اللى حصل؟

- مات ربنا يرحمه.

- محبتهوش ؟

- الموضوع مكنش ليه علاقة بالحب، عارف الناس اللي مينفعش تكرهها راضي كده والحاج عبداللاه كان مطمن عليا وأنا معاه، وقتها اتهيألي إني بحب جارنا أبانوب لكن هو متحركش وأنا قبلت وراضي طمني ليه واتجوزته .

- اتجوزتيه من غير ما تحبيه؟

- بعد الجواز عرفت إن في حاجات مهمة تانية غير الحب،الأمان، تبقى متأكد إنك في حضن راجل هيفديك بحياته لو مكروه فكر يمسك، الضحكة والدفا اللى في عيونه بيخليني أطير من السعادة، طبطبته عليا وطولة باله لما اتنرفز، قولة حاضر لما أطلب منه حاجة، صحيح مكنش فيه حب وشغف وذكريات قبل الجواز لكن معاه محستش إني ممكن أكون محتاجة حاجة تاني، الست لو لقت ده كله مش هتفكر في حاجة تاني بالعكس قلبي فرحان جدا وزعلت عليه لما سلم روحه لربه، زعلت لدرجة إني قعدت ٣ شهور قافلة على نفسي الباب وبشم ريحته في كل مكان، سابلي كل حاجة حلوة زي ما كان هو حاجة حلوة في الدنيا

- مات ازاي ؟

- مات هادي، من غير ما يزعج حد زي ماكان في الدنيا، نام ومصحيش تاني وكان مبسوط ، شوفت ابتسامته في عينيه، آخر كلمة قالهالي هتوحشيني قلتله وانا جنبك؟! رد بتوحشيني وأنا نايم مكنش يعرف أن المرة دي هيوحشني أنا، مش هعرف أشوفه تاني.

- دمعت عيناي وأنا أتحدَّث عن ذلك الملاكِ الذي قضيت معه ١١ شهرًا ورحل، وأحسَّ يوسف بذلك فتأثر هو الآخرُ ودمعت عيناه؛ الأمرُ الذي أجبرني على أن أُنهيَ الحديثَ عن "راضي" وأكمل وكأني أريد أن أفرغ ما اختزنتُه في صدري لثلاثِ سنوات بعديها رجعت للحياة تاني وقررت آجي اشتغل هنا، بدأت من جديد، حياة تانية وناس مختلفة ومستقبل بحاول ارسمه وفي وسط كل ده كان قلبي بينبض من جديد بس المرة دي متمرد، متمرد عليا ، أعلن رفضه لأي حاجة ممكن تحل مكان الحب كأنه حس مرة واحدة إنه محتاج..!

سألني بقلقٍ من انتابَه اعتقادَ أنّي أحببته:

- أأحبتيه..؟

- لا.

فأكمل بعد أنِ اطمئنَّ قليلًا:

- ليه..؟

- لأني بدور على حد أكمل بيه الحياة، يقدر يحميني ويضلل عليا ويحبني فعلا، ميتعبش في وسط الطريق ويعافر لإني مش هعرف أعافر لوحدي،مش مهم يكون شبهي بس يكملني..!

- عرفت ليه دلوقتي قولتيلي إنك تشبهني في الجواب..؟

- ليه.

- لإني كمان كده.

ابتسمنا في وقتٍ واحدٍ قبل أن يظهرَ القسُّ"بولس" بصوتٍ خافتٍ يحاول من خلالِه أن يخبرَنا أنَّ المساءَ قد حلَّ ونحن لم نزل نجلس تلك الجلسةَ لأكثر من ٣ ساعاتٍ نتحدث دون أن نشعرَ بشيءٍ.. لم أرَ من دخل الكنيسةَ ولا من خرج منها، كيف ذهب الضوءُ شيئًا فشيئًا..؟! ومن أين لي بتلك القدرةِ التي جعلتني لا أُغَيِّر جلستي لمدة ٣ ساعات، توحَّدنا معًا فأصبح لا يهمُّ أينَ نحن ولا متى..؟! . التفتُّ إلى القسِّ"بولس" محرجةً منه وقام "يوسف" عارضًا عليَّ أنْ يُوصِّلَني إلى بيتي، ومن ثَمَّ خرجنا معًا من الكنيسةِ التي احتضنتنا.. المكانُ الذي وُلِدَ فيه حبُّنا برعايةِ المسيحِ الذي شعرت أنه سمعَ كلَّ كلمةٍ قلناها.

وفي الخارجِ سيارتُه، سوداءُ اللون، كبيرةٌ من النوعِ الذي يوحي بأنَّ صاحبَها ابنُ باشا حقًا، فأشار إليَّ باتجاهِها؛ فقلت إني اعتدت على الذهابِ مشيًا إلى بيتي ببولاق ولا داعي للسيارةِ إن كان يريد أن يكملَ الطريق؛ ابتسم برضا من لا يهمه الأمرُ، لا أعرف لماذا طلبت منه ذلك..؟ هل كنتُ أريد أن أُجبره على حياتي العاديةِ أم أني أردتُ فقط أن أُطيل وقتَ الحديثِ الذي تحوَّل إلى ترياقٍ يزيد كلما نهلتُ منه..! من بداية طلعت حرب وحتي بولاق سرنا معًا، أخبرني عن شعري الكيرلي الجميل وتموجاته التي أسرته منذ الوهلةِ الأولى وأخبرته أنَّ عينيه جميلتان كبراحِ البحرِ لحظةَ غروبٍ، روى ليعن اليونان وميدان أمونياوعن دالاس، ورويتُ له عن الشجرة التي كنتُ أختبئُ فوقَ أغصانِها وعن الأنبا بيشوي الذي مات من ٣ أشهر، ودرجة السلم المكسورة، حتى طلب أن أُهدِّيَء خطوتي السريعةَ فرفضتُ لأنه بطيء، فكشف لي أنه يخاف قيادةَ السيارةِ ليلًا وأخبرته أني لا أنام إلا والبابُ مغلقٌ بالترباس، ضحك حين تذكر غباءَ ممرضةِ اليونان وهي تسألَه:

- مش تسأل أنت فين..؟!

وحزنت حين سمعت ذلك فأردف راويًا طريقةَ هروبِه في شوارعِ أثينا المظلمةِ، ووصف لي "فردوس" وأكَّد أنها نقطةُ ضعفِه، فوصفتُ له "رابحة" وأكَّدت أنها مصدرُ قلقٍ..واندهشنا من تقاربِ الصفاتِ؛فكلتاهما تخاف علينا رغم تجاوزِنا العشرين، لمس يدي متلمِّسًا طريقَه لأن يقبض عليها فتركتُها لها مبررةً أني لا أجيدُ عبورَ الشارعِ، فأطبق عليها كما يُطبق العطشانُ على كوبِ ماءٍ باردٍ، فنظرت إلى عينِه المبتسمةِ وتركتها له، عبرنا منطقةَ الدقي فتذكر شجرةَ الرولة حين مرَّ على إحدى الأشجارِ القديمة، واستمتع أكثر باندهاشي وأنا أسمع عن أناسٍ يُقدِّسون شجرةً ويبكونها، حدثني عن "نادر" فحدثته عن "ندى" واتفقنا أنَّ ثمَّةَ إخوةً كُتب علينا ملاقاتُهم على حينِ كُنَّا في احتياجٍ إليهم،حكى عن حبِّ صديقِه لابنةِ عمِّه وكيف تغرَّب لكي يتزوجَها، وحكيت له عن "ندى" و"أحمد" وكيف تمَّت خطبتُهما منذ أسبوعٍ، حكينا كثيرًا وكثيرًا وكثيرًا، وضحكنا أكثرَ حتى سكتنا مرةً واحدةً كان يحاول أن يفيقَ من هذا الحلمِ فضغطتُعلى يديه حتى يجعلَنا نُكملَه للنهاية . وصلنا إلى البيت.. وقف أمامه فأشرتُ له أين أسكن.. طلب رقمَ هاتفي فأعطيته له، وسألني متيمكنُ أن يراني قلت له دونَ أنْ أُفكِّرَ: غدًا .

لم تحملني قدماي لأن أصعد درجاتِ السُّلَّمِ، فكنتُ بعد كلِّ درجتين أقف، كلماتُه مازالت تسري في جسدى تدغدغني مع لمستِه التي أشعلتِ الحرائقَ في كلِّ جلدي،وبمجرد أنْ دخلتُ وقفتْ"ندى" أمامي مذهولةً من شكلى..! فابتسمت وبحركةٍ طائشةٍ أطيَّرتُ بها حذائي من كلتا قدَمَيَّ ورميت جسدي على الكنبة . قابلته يا ندى:

- يوسف قد ايه جميل ورقيق وحنين وذوق.. عارفة الناس الذوق دول اللى بيفهموا يعاملوا الستات أزاي، رقة جواباته متجيش ١٠% من رقته، اتعذب كتير بس محبش قبل كده، مشينا من وسط البلد لهنا مشي وهقابله بكره، انا مبسوطة أوي يا ندى.

لم تملك "ندى" أن تتكلم.. ابتسمت فقط وتركتني أعيش سعادتي التي ظهرت فورًا على ملامحِها، الله كريم إنه منحني ذلك اليومَ قلتها قبل أن أدخل في النوم .

❋ ❋ ❋

"ولننسَ كلَّ شيءٍ عن كلِّ شيء إلا اللحظةَ. .أنا وأنت"

غادة السمان

(وحكينا)

نمت هادئًا.. لم أفكر في شيءٍ ولم أترك لنفسي حتى فرصةَ التفكير.. ارتميتُ في الشقةِ التي استأجرُها بوسطِ البلد تاركًا لقلبي المجالَ فسيحاً ليتمتعَ بتلك اللحظاتِ التي لم يعرفْها من قبلُ .لم أدرك بعد دعوةِ أمي لي براحةِ البالِ وهدوءِ القلب.. اليومَ شعرتُ بذلك.. كلُّ جزءٍ في جسدي مرتاحٌ وسعيدٌ، عيناي تغمض لترى في السرابِ يدي تحتضن يديها وسطَ شوارعِ وسط البلد..أصابعي مازالت دافئةً تحتضن رائحةَ يديها التي عانقتُها لأكثرَ من ٥٠ دقيقة، أعصابي كلُّها مرتخيةٌ كسولةٌ حتى عن التحركِ، وقدمي واحدةٌ فوق أخرى، أما أنفاسي فخرجت بانتظامٍ شديدٍ ندرَ أنْ عشتَه .النوم لا يريد أن يأتي.. كنتُ كطفلٍ يحبُّ لأولِ مرةٍ..! يستنشق هواءه ويركض قلبُه وتضحك عيناه تلقائيًا..الحبُّ يفعل كلَّ ذلك..ينعشنا بالروح وينفضنا بقدومه..هو كما قرأت عنه..لا يستأذن ولا ينتظر الإذن..يأتيك فجأةً ويسكن فيك.. أمسكت هاتفي بصعوبةٍلأبحثَ عن أغانٍ تليق بالموقفِ حتى وقعت عيني على "سيرةِ الحب" لِـ"أم كلثوم" فقمت بتشغيلِها تاركًا موسيقاها الرائعةَ وصوتَها الشادي يأخذني إلى أماكنَ أخرى لم أذهب إليها قطُّ حتى ذهبت في النومِ وهي تقول: "الله على الدنيا وحلاوتها في عين العشاق"

في الصباحِ رأيتني مبتسمًا.. هكذا دون أنْ يحدث شيءٌ..أُغنِّي وأختار ملابسي بعنايةٍ، فاحترتُ كالفتياتِ فيما أرتدي.. في اليومِ السابقِ لم أُدرك أني سأراها.. لُمتُ نفسي سرًا على ملابسي..أني لم أتعطر استعدادًا للقائها.. أنْي لم أترك لها شيئًا كما تركتْ هي رائحتَها على يديَّ، ولكن اليومَ فعلت كلَّ ذلك واستغرقتُ أكثرَ من نصفِ ساعةٍ.. بوابُ العمارةِ تعجَّبَ مني قائلًا:

- صباح الخير يا عريس..

هكذا بدوتُ وأنا أتَّجه إلى الكنيسةِ لألقاها.

مختلفةٌ تلك المرةُ، فلم تُفاجأ بي كعادتها ولم أسأل نفسي: هل ستكون موجودةً..؟ لا مكان للتكهُّنات الآن، فإنَّ لدينا موعدًا.. نحن من حددناه.. ما أجمل أن لَّا يكونَ هناك مفاجآت.جاءت مبتسمةً شعرُها يتناثر فوق خدَّيها تُداعب الريحَ ويداعبُها..تركتها تتلو مزمورَها الخميس..اليومَ هي تعرف أني جالسٌ..ما أجمل النور .

- أين ستجلس؟

- هنا.

بدلالٍ ردَّت:

- ولماذا هنا؟

- حيثُ التأمُّلِ الجيدِ لخصلاتِ شعرِكِ وهي تغطِّي نصفَ وجهِكِ وتُظهر شفتيك التي تُرتلُ بموسيقى أسمعها في قلبي..

ابتسمت ولم تردَّ.. ذهبتْ إلى هناك ثم عادت..

- هنروح فين؟

- عاوزة نروح فين؟

- أي حتة وكل حتة، انا مروحتش في حياتي غير الشغل والبيت والكنيسة وأحيانا بعض الكافيهات مع ندى واحمد..

- ولا أنا كمان روحت في حتة شكلنا لبخة.

- خلاص متحيرش نفسك نتمشي وزي ما تودينا رجلينا هنروح.

- موافق على الاقتراح ده.

- ربنا يستر.

ضحكت بعد أن أنهتْ كلامَها.. لم أرَها تضحك من قبلُ..فهي دومًا ساكنةٌ تتأمَّلُ..! الآن ضحكت.. لم تبتسم.. بل ضحكت.. سمعتُ صوتَها.. رأيت فمَها يُفتحُ كحديقةٍ من الأشجارِ وأزهارِ الزنبق.. شفتاها افترقتا فخرجت رائحتُها تُذيبني بنَفَسٍ يحمل عطرَ"الجاردينيا" أما عيناها فانغلقتا حين أمالت رأسَها إلى الوراءِ قليلًا فأكملت لوحةً جماليةً لم أرَها في حياتي.. لن أكذب ولا أُبالغَ حين أقولُ أنَّ في تلك اللحظةِ سطعتِ الشمسُ أكثرَ فأنارَ وجهُها الذي أصبح ذهبيًا الكونَ في بضعِ لحظاتٍ؛ما جعلني أنظر إلى كلِّ قطعةٍ في وجهِها الملائكي.

لاحظت ذلك فعادت لطبيعتها خجلةً، فابتسمت قبل أن أعانقَيديها لنخرجَ إلى شوارعِ وسط البلد، كالأمسِ..وانطلقنا من "طلعت حرب" باتِّجاه "ميدانِ التحرير"أكملنا حديثَنا الممتدَّ من الأمسِ فأخبرتني

عن "أبانوب" الذي أحبَّته وأخبرتُها بِ"تمارا" التي تركتها للتوِّ.. ظهرت عليها ملامحُ الغضبِ والغيرةِ فابتسمتُ مؤكدًا أنها لم تكن أكثرَ من ملجإٍ للهروبِ من غربتي المفروضةِ عليّ.. روت لي كيف تزوجتْ"راضي" وشعرتْ معه بالأمان.. الأمانِ الذي افتقدتُه منذ أن رحلَ، ورويتُ لها عن السكنِ الذي أبحث عنه بعد أن عشتُ آخرَ سنواتي مطارَدًا من ذكرياتِ"صادق باشا" حكت عن جِنانِ"سالي" وحكيت عن تمرُّدِ"نهال" وتعجَّبتْ من تعاملي معها بهدوءٍ، فذكَّرتُها أني الآخرَ هاجرتُ لوقتٍ من الأوقاتِ ولن أصادرَ حقًّاً منحته لنفسي.

وصلنا إلى ميدانِ"الأوبرا" فوقفتْ تتأمل مبناها، عرفتُ أنها شغوفةٌ بالأماكنِ القديمةِ التي لم ينل الزمنُ منها، فأردفتُ: وأنا شغوفٌ بكلِّ ما ينتمي للبحر، لذلك أحببتُ اليونانَ.. سألت، فأجبت نعم.. ولذلك أيضًا لم أترك بحرًا من صِغري إلا وغصتُ فيه تاركًا جسدي يتشبع بمياهِه..

- والآن هل كرهته.. أكملت

- فأردفت: لم أستطع، بل إنَّ شعورَ سعادةٍ راودني لحظةً حين قفزتُ من المركبِ لأني سأموت في مكانٍ أحببته، انقبض قلبها فأمسكتُ بيديها:

- لا تقلقي مازلتُ هنا الآن .

- أنا أخاف الموت.. أخاف ذلك الزائر الذي لا يقدِّس شعورَ أحدٍ.. لا يراعي حرمةَ البيوتِ ولا يلفتُ انتباهَه لحظةُ حنين، يحوم حولنا دون أن يراه أحدٌ.. ينتظر.. يراقب ..يجل..ثمَّ يهبط علينا من السماءِ شاهرًا سيفَه ومُكشرًا عن أنيابه..يأتي قويًّاً ونحن ضعفاءُ..لا لأننا لا نستطيع مقاومتَه، بل لأننا لا نراه..ما أبشعَ الموتَ الخفيَّ..! يأتي ليفرِّقَ بيننا وبين من نحبُّهم هكذا في غمضةِ عينٍ، ولا يخبرُنا حتى متى سنراهم ثانية.. هكذا ذهب "راضي" آمنا على نفسِه فيما كان الموتُ فوق رأسِه، ما أحزنني أكثرَ هو أني لم أشعر به كنت أُهَيِّءُ نفسي لقضاءِ أسبوعٍ في "شرم الشيخ" احتفالًا بمرورِ عامٍ على زواجِنا، اليومَ لم يختلف عن سابقِه..البيتُ هادِيءٌ ولم يُشرِ إلينا أحدٌ أنَّ الموتَ ينتظرنا على الباب ..

قالت تلك الكلماتِ وتصبَّب العرقُ منها فيما بدت أصابعُها ترتعش.. شاركتُها نفسَ الإحساسِ:فأنا الآخرُ أكره الموتَ لأنه أخذ "صادق باشا" دون أن يعتذرَ لي لأسامحَه.. أعلم أنَّ الفرصةَ سنحت لي لثلاثِ سنواتٍ كاملةٍ، لُمتُ نفسي بعد وفاتِه كان يمكن أن يكونَ الأمرُ أفضل .

وصلنا إلى برجِ القاهرةِ،وهناكَ سألتها هل صعدتي إليه يومًا..؟ قالت: لا

- ولا أنا.. فلنصعد معًا لنشتمَّ هواءَ القاهرةِ من أعلى نقطةٍ، حيث التفاءُ العاشِقِيْنَ كلٍّ منهم بحبيته في مدارته الدائرية.

- كيف ترى الحبَّ..؟

سألتني:

- إذا وُصِفَ بَطَلَ.

- وأنتِ؟

- حين تنظر إلى عينِ حبيبك؛ فتدرك كلَّ لحظةٍ أنك بخيرٍ.

- الأمان..؟

- لا أحد يملكه.

- تملكه امرأةٌ ترى صورتَها في عينِ زوجِها كلَّما نظرت إليه..!

- الحنين..؟

- أن تُعذِّبَ نفسك.

- بل أن تبتسمَ في ليلٍ معتمٍ

- الذكريات..؟

- أن تُعذِّبَ نفسَك بإرادتك.

- بل أن تعيشَ أيامًا مضت.

- لكن في النهايةِ نتألم بسببها.

- يكفي أنها أعادتنا إلى الوراء.. هناك حيثُ نجدُ من أحببناهم يومًا.

- أنتِ تتحدثين عن رأيك.

- وأنت أيضًا.. هل نكمل..؟

- فلنكملْ.

- الاشتياق..؟

- لذةُ المحبين.

- وعذابهم إن رحلو.

- الحقيقة..؟

- هي وجودُك الآن بجواري.

- بل وجودُنا معًا بعدَ عشرِ سنواتٍ هنا.

- الزواج..؟

- بدايةُ الحياةِ.

- بل سعادةُ روحين ملتصقتين برباطِ الحبِّ.

- الوفاء..؟

- أن أفعلَ ما أعدُ به.

- بل لا تعد إلا بما تستطيع فعلَه..!

- الصدقُ..؟

- أن لَّا أكذبَ

- بل أن تكونَ صادقًا.

- وما الفرق..؟

- أن لا تكذبَ معناه أن تُجيبَ بالصدقِ.

- والثانيةُ.

- أن تكونَ صادقًا دونَ أنْ يُطلبَ منك.

- السعادةُ..؟

- أن أراكِ تضحكين.

- أن أظلَّ دومًا أضحك.

- الفراقُ..؟

- استحالةُ الحياةِ..!

- أو انتهاءُ اللعبةِ..!

- أي لعبة..؟

- لعبة الحبِّ التي تغوي الرجالَ.

- الأطفال هم من يلعبون..

- بل هم من يحبون بصدقٍ.

- الورق..؟

- مرسالُ المحبين.

- ودليلُ كذبِهم إن رحلوا.

- الأهلُ..؟

- نقمةٌ أو نعمةٌ.

- في الحالتين نحتاجهم.

- الغربة..؟

- أن تشتاقَ لصورةِ أُمِّك ولا تستطيع رؤيتَها.

- أن تشتاقَ لصورةِ أُمِّك ولا تستطيع رؤيتها.

- أنت تكررين الإجابة..!

- أنا أؤَيِّدُها فقط.

- الدين..؟

- طريقةُ الربِّ التي ارتضاها لعبادِه.

- وطريقُ الكُهَّانِ لتنصيبِهم أنبياءَ.

- فيروز..؟

- ترنيمةُ الصباح..!

- بل قل: سببُ الحياةِ..!!

- أنتِ تصادرين رأيي؟

- بل أُريدك أن تراها بعينيَّ أنا.

- هل رسبتُ في اللعبةِ..؟!

- بل نجحت.

- وكيف هذا..؟

- إذا رأيتَ ما أرى فليس هناك داعٍ لأنْ نُكملَ..!ألم أقل: لا أريد أحدًا يُشبهني، أرى الحنينَ ابتسامةً ويراه عذابًا، يعدُّ الصدقُ أن لا يكذبَ وأعدُّه أنا أن يكونَ صادقًا، يعتقد أنَّ الأطفال هم من يلعبون وأعتقدهم أنا الأكثرَ صدقًا، بتلك الطريقةِ يُمكن أنْ نستمرَّ.

- لكنكِ أيَّدتِ رأيي في الغُربةِ.

- لأني أشتاق لوجهِ أُمِّي كثيرًا .

حلَّ وقتُ الغروبِ، نزلنا معًا وأكملنا سيرَنا إلى بولاق، صمتنا كثيرًا وكلٌّ منَّا يسترجع إجاباتِ الآخرِ، لم أكن أتخيلُها بهذا العمقِ.."غادة" تحمل الكثيرَ والكثيرَ داخلَها، تسكت لأنَّه ليس ثَمَّةَ مجالٌ للكلامِ أو ربما لأنَّهم قليلون من يفهمون تلك الإشاراتِ.. حين أرادت معرفتي حوَّلت الحديثَ إلى لعبةٍ من سؤالٍ وإجابةٍ تعرف منه الشخصَ الواقفَ أمامَها.. بالأمسِ كنت أُحبُّها واليومَ احترمتُها كثيرًا، صنع هذا المزيجُ هالةً من نورٍ بداخلي.. زاد قلبي توترًا أردت أنْ أُخبرَها أني أُحبُّها في تلك اللحظةِ التي نظرتْ إليّ وقالت: اليومَ أو غدًا كلانا يُحِبُّ الآخرَ.. قالتها بكلِّ عفويةٍ كأنَّها لا تعنيها.. وكأنَّ اعترافي لن يزيدَ شيئًا بداخلِها.. تتركني لتصعدَ إلى بيتِها لأقفَ أنا حائرًا في شوارعِ"بولاق" المزدحمةِ .

❊ ❊ ❊

"الإنسانُ الذي يُحسُّ أكثرَ من اللازم، خيرٌ من الإنسانِ الذي لا يحسُّ بالمرة"

غسان كنفاني

(أخاف غروبها)

قلقةٌ على غادة، فبالأمسِ خرجنا معًا أنا وهي وأحمد ويوسف بعد أنْ عرّفتني عليه.. صورتُه لا تختلف كثيرًا عن وصفِها له.. عيناه بها ذلك الحبُّ الذي لا يمكن إخفاؤه، ولكنني شعرت بحزنهما، ربما لأني أعرف قصَّته أو ربما لسببٍ آخرَ، يطيل النظرَ إلى "غادة" كثيرًا كأنه يتأملُها لأولِ مرة ، التفتَ إليَّ في حرجٍ حين شعر بمراقبتي له.

كان يمكن أن أكون أسعدَ إنسانةٍ بحبِّ غادة، أنا التي دفعتها إلى خوضِ تلك التجربة.. أن تجيبَ نداءَ الورق.. أن تخوضَ الأمرَ بكلِّ احتمالاته، ولكني لم أتخيل أن يحدثَ حبٌّ كهذا.. أسطوريٌّ بكلِّ ما تحويه الكلمةُ من معنى.. حوَّلَها إلى امرأةٍ تُشعُّ فرحًا..كتابتُها أصبحت أكثرَ نضجًا، تقضي ليلها في البحثِ ونهارَها نصفُه في الشغلِ والنصفُ الآخرُ مع "يوسف" هكذا لأكثر من ١٠ أيام.كلُّ شيءٍ تغيَّر تمامًا، فالمرأةُ حين تُحبُّ يتورَّدُ خدَّاها وتلمع عيناها ولا تختفي الابتسامةُ أبدًا، هذا بالضبطِ ما حدث مع "غادة" التي تضحك ليلًا فأنظر إليها فتروي لي موقفًا مع يوسف، مرةً حين ذهبًا ليشتريا "أيس كريم" ومرةً أخرى حين جلس على المقهى ليروي لها أنَّ أولَ مرةٍ له في المقهى بعد أن تجاوز العشرين؛ فأبوه كان يعتبرُ ذلك لا يليق بأبناءِ الباشوات.كان يمكن أن أكونَ اسعدَ إنسانةٍ بكلِّ هذا، ولكنْ ما تسبب في قلقي هو: ماذا لو انتهت تلك القصةُ، فالسعادةُ الكبيرةُ يقابلها دومًا حزنٌ كبيرٌ، تذكرت كلماتِ"غادة": أنا لا أريد أن يُجرحَ قلبي، قالت هذا قبل أن تحبَّ يوسف، أن تشرقَ كلَّ هذا الشروقِ، ثمَّ يرحلُ هذا القادمُ إليه يعني انطفاءَها طوالَ العمر.

أعرف "صادق باشًا" جيدًا وإن آثرتُ الصمتَ في وجودِ"يوسف" لإني لم أُرد إفسادَ الجلسةِ ولإني أعرف جيدًا علاقتَه بوالدته، ولكنْ"غادة" لا تعرف عمَّن يتحدث "يوسف" إنه الرجلُ الذي ظللتُ لأكثرَ من سنةٍ أُطالع أخبارَه كأحدِ كبارِ الفاسدين في تلك الدولة، فقد عَمِلَ في كلِّ شيءٍ بدايةً من الاستيلاءِ على أموالِ الدولةِ حتى الهجرةِ غيرِ الشرعية، كنت وقتها في بدايةِ عملي الحقوقيِّ ومطالعتي لكلِّ ما يحدث في البلاد، وهل سترضى أسرةُ"يوسف" بزواجِه من "غادة" بنت الحاج "عبداللاه"الرجل الهاديءِ الذي يدخل في الجمعياتِ لتحسينِ صورةِ البيتِ..؟ ثمَّةَ أشياءُ أخرى في الزواجِ لا تعرفها المرأةُ

إلا حين يحين موعدُها،وفي مجتمعِنا حَدّثْ ولا حرجَ مهما وصل الأمرُ من تفاهم، فقد تعجَّبت من أُمِّي وهي المرأةُ المتحررةُ من كلِّ شيءٍ حين تحدَّثت مع "أحمد" عن ثمنِ الشبكةِ ومكانِ الفرح، يوسف نفسُه لم يفكر في هذا، يملكان من الحبِّ ما يجعلهما لا يفكران في شيءٍ،ولكن "غادة" التي أعدُّها بنتي جعلتني أفكر في هذا ومع كلِّ خاطرةٍ يزيد قلبي توترًا أكثر..!

لم أستطع أن أنم ليلتي وأنا أُفكر، تحدثت مع "أحمد" كثيرًا عن خوفي وشكِّي وقلقي على غادة، فكرت أن أُحدثَها لكنه حذرني من أفعل ذلك؛فربما تكون كلُّها مجرد هواجسَ، لكنه أكدَلي شيئًا واحدًا: أنَّه إن كان يريدها فستزول كلُّ العقباتِ، الرجلُ هو من يقرر في تلك الأشياء، كلماتُه أراحتني كثيرًا، فعلًا الرجلُ هو من يقرر.. ربما لذلك السببِ عشقت "أحمد" كثيرًا بعد خطوبتِنا، رجلًا في كلِّ شيءٍ، شعرت أني أكتشفه لأولِ مرةٍ، لكني أدركت أنها حقيقتُه التي أخفاها حولَ"رمرمته" طوالَ السنواتِ الماضية .

❊ ❊ ❊

"لماذا أنا أشتاق إليك كلَّ هذا الشوقِ إذا كانت "أنا" تعنينا نحن الاثنين.. كما اتفقنا...؟"

غسان كنفاني

(تتجوزيني يا غادة. . ؟)

جاءني بعد أسبوعٍ غيابٍ، اعتدت خلالَ الثلاثةَ أشهرِ الماضيةَ أنْ يأتي للقاهرة يومَ الأحدِ أو الأثنين.. بيتُه لا يبعد أكثرَ من ساعةٍ بالسيارةِ، لكنه يُفضِّل أن يجلسَ في حجرتِه بوسط البلد، ومنذ أن عرفني أصبح يترك سيارتَه لنمشي متشابكي الأيدي في الشوارعِ التي نحبها .يكفي أن يكونَ يومُ الأحدِ لأبتسم.. اليومَ سيأتي يوسف..سأذهب للكنيسةِ لأُصلِّي ويأتي هو ليراني في نفسِ المكانِ ويتعجَّب القسُّ"بولس"هذا في الماضي..! لم نكن نعرف بعضًا، أمَّا الآن فكلانا يتنفس الآخرَ .اشتقت له كثيرًا.. ستةُ أيامٍ كثيرةٌ ياربي.. كثيرةٌ على من تشتاق حبيبَها وهي معه.. قاسيةٌ لحظاتُ الليلِ دون صوتِه وجافَّةٌ أوجهُ البيوتِ وهو لا يسير بجواري، أعلم أني أدمنتُه.. أتنفَّسُه صباحًا وأتذكره ليلًا وأستجدي صوتَه وهو يحدثني.. هل يعلم هذا الرجلُ أني أحبُّه مثل هذا الحب..؟! "ندى" تراقبني وأنا أرتدي ملابسي وأُغنِّي "شايف البحر شو كبير فردت بدندنة وأنا بأيام الصحو ما حدا نطرني" ضحكنا في نفس واحد ونحن نردِّد: "لا بقى في اللى ناطرني" وابتسمتَ أكثرَ وهي تراني أفتح البابَ وأقفز على السلالمِ كالأطفال. أنهيت صلاتي وأنهي ملاحظتَه لي لنبدأَ السيرَمعًا.. تلك المرةَ لم نتحدث إلي أين.. اعتدنا أن تقودَنا خُطانا..! قال لي إلى أيِّ حدٍّ اشتقت له..؟ فأخبرته بأنه لن يعرفَ معني الاشتياقِ إلا حين يشعر بما أشعر به

- غادة أنا ادمنتك.

- ومن لي بطبيب يخرجُك من مساماتِ جلدي..؟!

خجل حين قلت كلماتي ونظرتُ في عينيه التي أشتاق أن أرى لونهما المائلَ للزرقةِ.. من قال إنَّ خجلَ النساءِ جميلٌ؛ فهم لم يعرفوا بعدُ خجلَ الرجال أو خجل يوسف..! ابتسامةُ فمٍ أنهكَه الزمنُ فأمسك بلحظةِ فَرحَ فيها قلبُه وراق بالُه وسمع كلماتٍ جعلته يفتح ذلك الفمَ الصغيرَ المعتَّقَ برائحةِ نَفَسٍ أحسسته داخلي، إغلاقُ عينيه ليدرك روعةَ لحظةٍ تلمَّسها قلبُه..عرقُه الذي يظهر فجأةً.. كلماتُه المبعثرةُ التي رفضت الخروجَ في ذلك الوقت، ضحكتُ أكثرَ فوضع يديه على وجهِه كطفلٍ يداري ملامحَه..!فقد احتاجَ لثوانٍ يجمع فيه شتاتَ نفسِه قبل أن نصلَ إلى "كافيه الأمريكيين" بوسط البلد.. جلس وطلب لي "آيس كريم" ثم ابتسم مرةً أخرى قبل أن ينطقَ.

- فتحت مكتب الهندسة خلاص..!

- بجد يا يوسف؟

- آه فضلت مخبي عليكي شوية علشان افاجئك.

- فين وشكله إيه وسميته إيه وفي شغل ولا لا؟

- جنب البيت، والحمد لله الشغل بدأ من أول ما اعلنت عن المكتب أما اسمه فانا سميته «الغد» حاجة من اسمك.

دومًا يجيد فرحي وإرباكي بفعل اشياء أحبها ولا اتوقعها منه حتى لا أظلمه بهواجسي رددت عليه:

- بس غادة مش معناها بكره.

- عارف، وعارف كمان إنها الشجرة المتمايلة لكن برضه غادة معناها الشجرة الكثيفة اللى بتضلل على الناس والمكتب هيبقى الشجرة اللى بتضلل علينا وعلى بيتنا.. رنت الكلمة في أذني بيتنا، يوسف لم يقل لي حتى الآن أحبك، يعبر عنها بكلمات أخرى منذ أن قلت له اليوم أو غدًا سنقولها.

- تتجوزيني يا غادة؟

- أذهلتني الكلمةُ.. صمت وتحوَّلت ملامحُ وجهي وقتَها إلى أكبرِ فضيحةٍ علنيةٍ.. الدمعُ عرف طريقَه إلى عينيَّ دون أن أدري.. ملامحي التي حملت الاشتياقَ لتلك الكلمةِ تولَّت المهمةَ، واحمرارُ خدَّيَّ دفعه إلى الربتِ على يدِي التي تململت داخل يديه كأنها لا تريد أن تهدأ، للحظةٍ تذكرت "أبانوب" الذي قال لي أُحبُّك.. يوسف قال: تتجوزيني، فرقُ ما بين الاثنين أنَّ أحدَهما يريدني حبيبةً والآخرَ زوجةً، أحدُهما يتحسَّس طريقَه والثاني يعرف أين يذهب، أحدُهما يريدني معه لنكملَ المشوارَ والثاني سيكملُه بي.. تعبت وأريد أن أستريحَ على كتفِ رجلٍ..!

- هرجع البلد بكره وأكلم أهلي.

- لا.. استني أكلم أنا أهلي الأول.

- خلاص على راحتك أنا هستني.

- يوسف أنت عارف إحنا داخلين على إيه؟

- عارف.

- هتقدر.

- سيبك من أي حاجة ممكن تحصل خلينا نشوف.

- أوصلني إلى بولاق وغادر مودعني أجهزي يا عروسة!

"الفكرة إذا ولدت فليس بالوسع التخلص منها . . بالوسع خيانتها فقط"

غسان كنفاني

(الزواجُ الثاني)

- ادينا جيت يا ستي وقعدنا، في إيه بقى طول الطريق مش عاوزة تتكلمي وامبارح تكلميني وش الفجر تقوليلي عاوزه أشوفك.

- قلقانه.

- من إيه؟ فيكي حاجة؟ أو ماما حصلها حاجة؟

- لا أمي كويسة قلقانة على غادة .

- لا حول ولا قوة إلا بالله إنتي مش مكلماني من يومين وقولتيلي أن يوسف طلبها للجواز وانها هتروح لأهلها تقولهم.

- آه.

- في إيه تاني؟

- ماهو ده اللي قالقني.

- انتي حالفة ما تفرحي؟

- ابدًا أسمعني بس أنت عارف موضوع جواز غادة ده صعب جدًا.

- ازاي؟

- غادة قالتلي ان في بلدهم مش بيسمحوا بالجواز غير مرة واحدة مسلمة أو مسيحية، هو النصيب مرة واحدة والست لو حبت تتجوز تاني هي في نظر الناس مش عارفة تملك نفسها جنسيًا وبالتالي بتبقى منبوذة.

- دول ناس متخلفين.

- مش كده وبس دول لما بيعرفوا إن واحدة هتتجوز تاني بيقعدوا معاها وينصحوها متتجوزش !

- إيه التخلف ده دي حاجة ملهاش علاقة بالدين وغادة هتعمل إيه؟

- امبارح كلمتني وقالتلي انها خايفة علشان كده طلبت من يوسف انها هي اللى تقول الأول لاهلها، ومعتمدة على الحاج عبداللاه هو اللى هيفهمها.

- وامها؟

- تصدق كمان خايفة من امها، مش بقولك انا خايفة على غادة دي حبت يوسف بطريقة جنونية، ومواجهة اهلها والناس مش سهل عليها خصوصا انها تحت ضغط دايما بسبب عيشتها في القاهرة.

- ويوسف عارف ده؟

- أيوه.

- يا ستي يمكن تقدر تواجههم أو تقابل حد متفتح متقفلهاش.

- يارب يا احمد متتخيلش انا هفرحلها قد ايه.

- اول مرة الاقيكي مرتبطة بحد كده وخايفة عليه.

- غادة حتة مني، طفلة صغيرة وقلب كبير هنجرح لو هي انجرحت.

- لا ان شاء الله يا حبيبتي مفيش جرح.

- ثم تعالي هنا امبارح اتصلت بيك ساعة علشان ترد واول ما ترد تقولي في ايه ده بدل ما تقولك مالك يا حبيبتي !

ضحكت حين قالت ذلك، عادت "ندى" لطبيعتها.. صوتُها دليلٌ على أني طمأنتُها قليلًا أو ربما تناست الأمرَ، رددتُ عليها:

- أنا آسف مش هتحصل تاني.. فهدأت أكثر، أفكر فيما قالته، وأحاول ألَّا أُزعجَها.. إن الأمرَ يبدوا صعبًا، لأن صديقتَها على وشكِ الجرحِ إن وقف أمامها المجتمعُ الذي لن يستطيعَ أحدٌ هزيمتَه.. الحاج "عبداللاه" طريقُها الوحيدُ للفرحةِ كما كان طريقَها الوحيدَ للحياة .

❋ ❋ ❋

"أنتِ في جلدي"

غسان كنفاني

(باب جهنم)

جاءتني مختلفةً تلك المرةَ.. من أولِ وطأةِ قدمٍ عرفت أنَّ في الأمرِ شيئًا، بنتي كيف لا أعرفها كما أعرفُ كِفَّةَ يدي، بل إنها الأقربُ إلى قلبي من إخوتها الآخرين، نعم هي السند، يرونَني مجنونًا حين أترك أخاها وأقول عنها السند لكنهم لا يدركون المعني، يرون أنَّ السندَ ابنٌ يأخذ عزاءك.. يحمي إخوته وأمَّه، ولكنَّ السندّ الذي أتحدَّث عنه هو حين أمرض ألقاه إلى جواري.. حين أسقط تمتدُّ يده لتنهضني..يداويني بطيبةٍ.. ويحزن بصدقٍ ويبكي طويلًا لألمي أو اقتراقي عنه. تقدمت إليها كعادتي.. حملت عنها الحقيبةَ فابتسمتْ، ولكنَّ ابتسامتَها تلك المرةَ لم تضُيءْ نهاري.. لم تشرقِ الدنيا في عيني.. لم يفرحِ قلبي، ربتُّ على كتفها ووضعت يديها على يدي فانقبض قلبي.. الحدثُ جللٌ..! حاولت أن أهدِّيَء من روعي.. أنْ أبتسمَ ابتسامةَ أمانٍ يظهر تأثيرُها على ملامحِها..عرضت عليها أنْ نسيرَ معًا وسط الغيطان.. أعرف أنَّ اللونَ الأخضرَ يُريحُها والهواءَ الذي يدخل إلى رئتها يمنحها قُبلةَ الحياة، فمنذ كانت صغيرةً وأنا أفعل معها ذلك كلما غضبت أو تشاجرت مع أُمِّها، ولمَّا وصلنا إلى المكانِ ضحكت فقلتُ:

- عارفه انا برتاح هنا اكتر منك.

- ليه يا حاج عبداللاه؟

- علشان انت بترتاحي هنا، وراحتك ديه أكتر حاجة بتريحني، وانتي صغيرة كنت بجيبك هنا وامسك ايديكي ونتمشي فاكره.

- وبقولك على اسراري ساعتها.

- بتقوليها علشان متأكدة أني مبطلعهاش لحد صح ،ولما كبرتي شوية وبقيتي آنسة كنت بأنكجك سوا زي الحبيبة.

- ما انت حبيبي يا عبدالاه.

- وأنتي أغلى حاجة عندي.

هدأتْ قليلًا بعد تلك المداعبةِ، ثمَّ سألت عن حالِ أُمِّها وإخوتِها، فقلت لها:

- دقائق وترينهم ولكن الآن ماذا حدث.. سكتت؛ فزاد توتُّري فرفعتُ وجهَهَا الناظرَ للأرضِ متوجهًا إلى عينيها مباشرةً:

-غادة في حاجة؟

- في يا بابا بس مش عارفة هقولهالك ازاي؟

وأمام لعثمتها وارتعاشِ شفتيها اصطنعت ضحكةً مزيفةً:

- قوليها زي ما انتي عاوزة، بصوت واطي أو عالي، بالمستخبي أو الصريح، وانتي بتعيطي أو وانت بتضحكي المهم اعرفي أن أي حاجة هتقوليها وقلقاكي للدرجادي مهمة عندي..!

- في حد عاوز يتجوزني.

- رنت الكلماتُ في أذني.. صدى الصوتِ أعادها عليّ حرفًا حرفًا، ومع كلِّ حرفٍ أري مشهدَ "غادة" الرضيعةِ التي لم أرَ أجملَ منها.. الطفلةُ التي تعلَّمت كلمةَ "بحبك يا بابا" قبل أنْ تقولَ أُمّي.. الطالبةُ التي ضربت كلَّ أصدقائها وجاءتني تبكي.. الشابةَ التي تلاحقها كلُّ العيونِ بسببِ تفوّقِها الدراسي.. أولَ يومٍ تذهب فيه للقاهرة.. عيونَها التي تلاحق "أبانوب" أولَ عريس تقدَّم لخطبتِها.."راضي" الذي جاءني عاشقًا لها.. يومَ زفافِها وهي ترتدي الفستانَ الأبيض.. إخباري لها أنَّ زوجَها تُوفِّيَ.. وجهَها وهو حزينٌ في ذلك اليوم.. صمتَها بعد ذلك.. عراكَها مع أُمِّها.. طلبَها الذي سيرفضُه الجميعُ.. أملَها ألَّا أخذلَها، خمسةَ عشرَ حرفًا بخمسةَ عشرَ مشهدًا، لم تُدرك كم استغرقتُ في صمتي ربما طافتْ بِمخيِّلتِها هي الأخرى مشاهدُ أخرى ..

بكلماتٍ أخرجتها بمشقةِ الروحِ ليبدوا صوتي هادئًا:

- ده اللى قالقك..؟ طلبك لا هو حرام ولا عيب يحلها الرب من عنده، المهم دلوقتي نروح ونستريح

سارت بجواري صامتةً وإن ظهر عليها الاطمئنان قليلًا بسبب حديثي، وددتُ لو قلتُ لها أكثرَ، أن أُقسم لها أنكِ ستتزوجين ممَّن يريدك، فقد زوَّجتُكِ مرةً بمعرفتي ولا يمكن أن أحجرَ عليك رغم أنَّ الربَّ يعلم أني ما زوَّجتُها "راضي" إلا بعد إحساسي بأنها لا ترفضه وأنها تميل إليه.. أريد قولَ الكثيرِ ولكني آثرتُ الصمتَ؛فالأمرُ ليس سهلًا حتى يُؤخذَ فيه القرارُ بتلك السرعة..وصلنا إلى البيتِ صامِتَين.. فلاحظت "رابحة"وجومي رغم محاولاتي أن أبدو طبيعيًاً، و"غادة" فشلت أيضًا.. "سلام روتيني" وصعدت "غادة" إلى حجرتِها قبل أنْ تلحقَ بي "رابحة" لتفهم ماذا يجري، أغلقت البابَ وقلتُ دون مُقدِّمات .

- غادة جايلها عريس..!

- يا مصيبتي..!

بداية غير مبشرة لكني أعرف زوجتي كلامها الأول لا يدل عليها فرددت:

- مصيبة ليه هي هتعمل حاجة حرام ولا هتخالف ربنا؟

- عبداللاه أنت فاهم أنا قصدي على إيه.

- ايوا فاهم بس ده كمان مش سبب علشان نحرمها من حد بتحبه، البنت جيالي وعينها بتقول ألف كلام، بنتكبتحب يا رابحة ، مش بس كده دي واقعة كمان.

- أنا قلتلك من الأول بلاش سفر.

- إحنا نزعل لوعملت حاجة غلط لكن راجل هيدخل البيت من بابه إيه الغلط.

- الغلط إننا هنبقى سيرة الناس كلها اللى هيقول معرفتش تمسك نفسها واللي هيقول آدي آخرة الغربة ومش هنسلم منها.

- سيبك من الناس، يومين وهينسوا يعني هي غادة قاعدة معانا، ثم أنا مش هعرف أتعس بنتي علشان كلام الناس.

- هتفتح علينا باب جهنم.

- بالعقل طيب، هي لسه صغيرة وإحنا مش قاعدين ليها، هتفضل كده يعني لا جوز ولا عيل حتى، افتكري لما جبتلها راضي ربنا يرحمه وافقت ومعارضتش ولا خرجت عن طوعنا وشافت نصيبها وقسمتها معاه ، عاوزاني دلوقتي أقولها لا؟

- اللي أنت شايفه.. مطلوب مني إيه؟

- ولا حاجة طمنيها بس.

- حاضر يا عبداللاه.

- خرجت "رابحة" وأغلقت بابَ حجرتي..أُفكر في الأمرِ، فكلامُ الناس ليس بالأمرِ السهلِ، فالموروثاتُ حائلٌ ثقيلٌ يُكَبِّلُنا جميعًا، ولا أريد كسرَ خاطرِ ابنتي.. كيف لي أن أقولَ لا وهي من قالت نعم في كلِّ شيءٍ.. يا عدرا ساعديني.

❋ ❋ ❋

"إنَّ الحياةَ ليستْ سوَى الانتظارِ"

غسان كنفاني

(الانتظار)

ثلاثةُ أيامٍ هي الأصعبُ في حياتي..حتى الآنَ لم أُجرِّبْ أن يكونَ للبنتِ طلبًا لدى عائلتِها، طوالَ حياتي معهم راضيةٌ بكلِّ شيءٍ حتى ملابسي لم أطلب شراءها إلا حين يطلبوا مني، لا أُعيرُ تلك الأشياءَ اهتمامًا..!ولكن في تلك المرةِ أدركت كلَّ ما فاتني؛ خاصةً أني حين بدأتُ.. كانت البدايةُ طلبًا صعبًا جدًا وأُمي صامتةٌ منذ أن جئت.. تحاول أن تبتسمَ لكنَّها لم تتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ، شعرتُ أنَّ ما بداخلِها ليس غضبًا قدرَ ما هو همًّا، فالغضبُ يتبعه دومًا صراخٌ ومعاتبةٌ ولومٌ وقراراتٌ إن لزمَ الأمرُ، ولكنَّ الهمَّ لا يعرف سوى الصمتِ الذي يُطبقُ على الشفتين فلا يجعلهما تتحركان، والحيرةُ التي تسكن الأعينَ.. أُمِّي لا ترفض زواجي لكنَّها تحملَ عبرَ ٥٠ عامًا عاشتها في تلك الدنيا تقاليَد وموروثاتٍ وقِيمًا لا يمكن التخلِّي عنها بسهولةٍ، تتحفَّظ على البنتِ التي تسافر وتؤكِّد أنَّ اختيارَها لزوجِها "دلع" لا لزومَ له وتقتنع أنَّ كلامَ الناسِ لا يمكن التغاضي عنه، خاصةً أننا في بيئةٍ صعيدية، ظَّلت هكذا حتى رنَّ هاتفي بالأمسِ فأحضرتْهُ"سالي" لتقولَ لي "المُزُ" هكذا نطقتها بكلِّ عنفوانٍ وحيويةٍ أصابتني وأبي وأمي بالربكةِ.

ابتسم أبي وهو يراني عاشقةً مرتبكةً، لم يرَني هكذا من قبلُ، أوربما لم يظنَّ أنه سيلقاني في تلك الصورة، أوحَى إليَّ أنْ أردَّ فابتعدتُ قليلًا، جاءني صوتُه بعدَ أكثرِمن يومين لم أستطع أنْ أحادثَه.. غيرَ أنَّ يوسفَ همَّ مندفعًا بكلِّ عباراتِ الغزلِ، فلم أستطع أن أردَّ كلمةً واحدةً مما يقول..فأدرك موقفي دون أن أُحدِّثَه فاستغلَّه ليطيلَ كلامَه الذي يُخبرني أني في تلك اللحظةِ أجملَ من كلِّ جميلٍ في الدنيا، وأن احمرارَوجهي لوحةٌ يتمني رسمَها كلُّ صاحبِ أناملٍ ذهبيةٍ..!

- يوسف كفاية كده مش عارفة أتلم على أعصابي.
- منا عارف.
- يعني قاصد؟
- جدا وبستهبل واستعبط كمان.
- طب أنا هقفل أنت مش متخيل هنا في إيه.
- أيَّاَ كان هجوزك..!

قال تلك الكلماتِ التي جرت في مساماتِ جلدي فأعادت إليه نضرتَه، وتسرَّبت إلى وجهي فهدأت كافَّةُ ملامحي، فطِنَ"عبداللاه" إلى هذا التغييرِ حين انتهت المقابلةُ واقتربتُ منه، فقال وهو ينهض:

- على خيرة الله.. أنا موافق الجواز يبقى في مصر واللي عاوزة ربنا هيكون.

بدا قرارُه مفاجئًا حتى لأُمِّي، منذ ساعةٍ لم يكن حسمَّ أيَّ شيءٍ وإن فكَّرَ خلالَ الأيامِ الماضية، فهل ما بدا عليَّ أثناءَ حديثي هو ما دفعَه لاتِّخاذِ القرار.. هل لم يكن يُصدِّقني أو ربما ملامحُ المرأةِ العاشقةِ أصدق من أيِّ حديث..! .

لم أستطع الفرحَ وإن أردتُ الصراخ.. فقط ابتسمتُ واقتربت منه ففتح يديه ليضمَّني على صدرِه.. بكيت كثيرًا.. دموعٌ لم تكن من أجلِ الفرحِ فقط بل الأمان.. الأمان الذي يمنحُه هذا الرجلُ لي.. يا الله هل تكون نعمَك عليَّ إلى تلك الدرجةِ التي تمنحني فيها مثل ذلك الأبِ..؟ هل قد وصل رضاك عني إلى تلك الدرجةِ..؟ كيف صنعت لي شخصًا مثل "عبداللاه" وكيف يمكن أن تكونَ حياتي بدونِه؟؟! أراحني.. لمستُه على شعري وهو يحتضني مسحت عني جميعَ أحزاني وكلَّ ما أساءني.. اقتربت منه أكثرَ وأنا أضمُّ يديَّ عليه بقوةٍ، فمنذ كنت طفلةً وأنا أتشبَّث به ليُعينَني على الحياة، وفي كلِّ مرةٍ لا يخذلني أبدًا، ربت على كتفي ومسح دموعَه بيدي، فنظرت إليه وقبَّلتُه..وأُمِّي تراقب المشهدَ الذي هزَّها من داخلِها فصمتت لكنَّها أبتسمت في النهاية.

سألني "عبداللاه" عن المقبلِ فأخبرته بأني سأخبرُ"يوسف" الآنَ للتحضيرِ لكلِّ شيءٍ.. تلك هي المرةُ الأولى التي أشتاق فيها للقاهرةِ..!

❊ ❊ ❊

"ولأولِ مرةٍ عرفت كم هي قاسيةٌ ومؤلمةٌ اللحظةُ التي يريد أن يبكيَ فيها الإنسانُ، ورغم ذلك، فهو لايستطيع"

غسان كنفاني

(قلق)

غريبةٌ تلك المرةِ، فباستثناءِ اليومِ الأول الذي قابلَتْ فيه "يوسف" قبل أن تصلَ إلى البيتِ أو تحدثني، الصمتُ يُخيّم عليها.. ليس قلقًا أو خوفًا ولا حزنًا أو فرحًا..أعرفُها في كلِّ تلك الحالات، أمرٌ يثير قلقي هو ما يسكن غادة .

لم أُرد الاقترابَ منها أو سؤالَها عن شيءٍ.. لو أرادت لتكلَّمت.. قاومت رغبتي في الاطمئنانِ عليها مكتفيةً بنظراتٍ حملت إليها أسئلةً كثيرةً حتي أقبلت عليَّ أمس دون أن أُكلِّمَها.. جلستْ بجواري وبدأت تتحدث بصوتٍ عالٍ.. لم تنظر إليَّ فاحترمتُ تلك اللحظةَ .

- عارفة يا ندي، أنا أول مرة أحس إني اتجوزت الأسبوع اللى فات.. كل بنت لما بتيجي تقول لأبوها وأمها أن في حد متقدملها بيبقوا فرحانين، حتى لو ظهر غير كده ، صحيح هما بيتقلبوا وكلاء نيابة وأسئلة لكن في عينهم نظرة فرح، أنا محستش بده خالص لما قلتلهم.. عيونهم سكنها الهّم والحيرة.. أمي قالت يا مصيبتي.. تخيلي!.. أبويا حاول يتماسك بالعافية علشان عارف إن أملي كله عليه، البيت هادي.. حتى سالي اختي مكنتش بإزعاجها المعروف وأخويا مالك بيتابع الموقف من بعيد ويبصلي بصة حد مش فاهم.

افتكرت راضي لما جه، هما اللي قالولي عليه ورشحوه وأنا وافقت.. لو كنت عارفة وقتها أن كل الحاجات الحلوة اللى بتحصل للبنت في أول جوازها هتفوتني مكنتش وافقت.. طب فرضًا لو اتجوزت يوسف تفتكري هيفرحوا ويزغردوا ويوزعوا شربات، هيجوني يوم الصباحية يطمنوا عليا، هتقعد أمي تقولي أعمل ايه ومعملش ايه، كان نفسي أوي أحس معاهم إني لسه ببدأ حياة جديدة زي ما الحياة فعلا ادتني الفرصة ديه، أنا رضيت بكل حاجة قالوهالي لكن هما بدون قصد كشفولي أنا عملت إيه وضريبة الرضا ده، لو مفيش راضي مكنش هيبقى في حاجات كتير أوي ، بس برجع وأقول يمكن لو مكنش فيه راضي مكنش هيبقى فيه يوسف، الرب وحده يعرف الخير فين .أنا قلقانه أوي.. يوسف هيسافر بكره لأهله يكلمهم، هو كمان متوتر رغم إنه حاول يأكدلي بكل الطرق أن مفيش حاجة هتمنعنا من بعض، تخيلي إن تأكيده هو اللي قلقني جدًا، حسيت في صوته إنه بيطمن نفسه.

فرغت "غادة" من كلِّ ما خبَّأته في صدرِها خلالَ الأيامِ الماضية، تحدَّثت فجأةً ثم صمتت فجأةً، لم أدرِ بنفسي إلا ودموعي تنسال على خدِّي.. ياربي كم تعاني تلك الفتاةُ الملائكيةُ، وكم هي دراميةٌ قصتُها، غايتُها الفرحُ، وأمنيتُها أن تعيشَ طبيعيةً كبنت، أعرف أن العائقَ يتمثل في العاداتِ والتقاليدِ التي يظنُّها أهلُها دينًا وهي أبعدُ ما تكونُ عن ذلك، لم أشأ أن أتحدث أو أعيب في تلك الأسطورةِ الخرافيةِ التي تحكم تفكيرَهم، وهي أنَّ زواجَ الأرملةِ يعني عدمَ تحكُّمِها في نفسِها جنسيًا، تلك النظرةُ الدونيةُ لإنسانةٍ سوَّاها اللهُ في أحسنِتقويم، أردت قولَ أشياءَ كثيرةٍ.اقتربت منها فقط فمالت على صدري كطفلةٍ صغيرةٍ تريد أن تتشبَّثَ بشيء، مررت يدي على شعرِها لتهدأَ، فأنا أعرف هذا الشعورَ جيدًا.. هو الضعف الذي يحوِّلُك إلى كائنٍ هشٍّ يمكن أن تحملَه الرياحُأنَّى شاءت.. ضائعٌ لا يملك قرارَه وفاقدٌ لاتجاهِ بَوْصَلَتِه.. الضعفُ هو أسوأُ الأحاسيس.. أبشعُ ما يمكن أن يشعرَ به بشر.. أن يتوقَّعَ ضربةً من أيِّ جهةٍ.. يُدرك أنه عاجزٌ، شعرت بذلك حين انفصلَتْ أُمِّي عن أبي، وقتَها فعلتُ كلَّ ما تفعلُه "غادة" بالضبط.. ظللت متشبِّثةً بأمي طوالَ الليل.بالأمس كانت أُختي والآن بنتي، الغريبُأنَّ شعوري ناحيتَها يزداد يومًا بعد آخرَ، أُحبها وأخاف عليها والآن أحتضنها.. وجودُها في حضني منحني إحساسًا بالقوةِ أو على الأقلِّ هكذا يجب أن أكونَ معها، نامت هي حتى الصباحِ على هذا الوضعِ وكأنها أرادت مكانًا تستريحُ فيه.. تشعر فيه بالحبِّ والطمأنينةِ والصدقِ.. ظللت طوالَ الليلِ بجوارِها حتى الصباحِ حين كانت رأسانا مدلَّاتَيْنِ على عُنقينا لا ندري كيف مرت الساعات .

❋ ❋ ❋

"من أقربِ الأشياءِ إلى الرجلِ و أكثرِها تجذُّرًا في صدرِهِ :

الوطنُ و الحبُّ"

غسان كنفاني

(فرحةُ فردوس)

فَعلتْ كلَّ ما يمكن أنْ تفعلَه..كانت خائفةً.. بدا ذلك في اليومِ الذي تركتني فيه، عينانِ مرتبكتانِ تنظران في كلِّ اتِّجاه.. قلبٌ سمعت خفقانه.. عرقٌ يتصبَّبُ دون داعٍ، أُدرك أنَّ كلَّ بنتٍ في مثل تلك المواقفِ قد يكون هذا حالُها، لكن مع "غادة" اختلفَ الأمرُ، فهي خائفةٌ من مواجهةِ المجتمعِ بحقِّها.. من كلامِ الناس..من نظرةِ أبيها..من غضبِ أُمِّها، طوالَ حياتِها هادئةً وحين فكرت في الحديثِ اختارت الكلامَ الذي سيكرهه الجميعُ..! .حاولتُ أنْ أُطمئنَها كثيرًا.. تحدثت معها.. أظهرتُ عدمَ مبالاتي.. أقسمتُ أني أُحبُّها، ولم تكن إطالتي في الحديثِ إلا لبثِّ الطمأنينة.. أن أقولَ لها لستِ وحدكِ.. هناك حبيبًا ينتظرك ومستعدٌّ لفعلِ كلِّ شيءٍ من أجلك.

غريبةٌ تلك الحياةُ، قادتني من "الإمارات" إلى "قصر الدوبارة" وقادتها من أبي "قرقاص" إليّ.. القدرُهو مَن حدَّد الموعدَ، كتب كلَّ شيءٍ وحين بدت الصورةُ منسجمةً إلى هذا الحدِّ الذي تتيقَّنُ فيه أنها حقيقةٌ كونيةٌ تبدأ التعقيداتُ في الظهورِ، وكلُّ خيطٍ يَكْمُلُ تراه يعود، وعليك تجميعُ كلَّ شيءٍ كما كان، أوعلى الأقلِّ عليك إقناعُ كلِّ خيط بأن لّا يكونَ ضدك.

لم أجرب إحساسَ الطلبِ بالزواجِ..٢٨ عامًا من عمري لم أفكرفي الأمر.. ماذا يقول الأولادُ في تلك المواقف، في قريتي الشبابُ دومًا يقصدون آباءهم، ربما لاقتناعِهم أنَّ مثل تلك الأمورِ يكونُ الرأيُ فيها للرجالِ فقط، أو لأنَّ الأُمهاتِ دومًا توافق إذا كان الأمرُيتعلق بزواجِ ابنِها..! لكن مَن لي بصادق باشا، رحل قبلَ أن يمنحني فرصةَ الغفرانِ، وغاب قبل أن يسمعَ طلبي بالزاوج، وليس أمامي إلا "فردوس" .

أحاسيسي متوترةٌ وأنا أقود السيارةَ التي ستقف بعد أقلَّ من نصفِ ساعةٍ أمام ساحةِ البيت.. جئتُهم اليومَ بما لم يفكروا فيه.. لم يلحظ أحدٌ أني أُحبُّ، نهال فقط سمعتني

أُحدِّثُ"غادة" ليلًا فابتسمت وسكتت، لا أعرف لماذا تلك الابتسامةُ.. هل كانت تظنُّ أني مجردٌ من الإحساسِ أم صورةُ أخيها الكبيرِ عاشقًا هي السبب..؟ طوالَ الفترةِ الماضيةِ وأنا أعرف أنَّ العائقَ يمكن أن يكونَ من عائلةِ"غادة" والآن وقد وافقت فليس هناك عوائقُ.. صحيحٌ أنَّ"فردوس" ستسأل كثيرًا عن "غادة" وأهلِها، ربما تحتاج إلى سجلِّ بياناتٍ كاملٍ عن المرأةِ التي خطفت قلبَ ابنها لكنَّها بالتأكيدِ ستكون فرِحَةً، فدعاءُ سنواتِ بأن تراني في بيتي مع زوجتي قد تحقق.. جئت لها الآن باسمِ وشكلِ وعنوانِ مَن ستسكن بيتي، من دعت لها خلالَ تلك السنواتِ الطوالِ، سأنعمُ بإشراقِ عينيها، ويدخل الفرحُ البيتَ بعد غيابِ أكثرَ من ٣ سنوات .قبل الوصولِ إلى بوابةِ البيتِ حدَّثتُها:"غادة" اليوم سأُحدِّثُ أُمِّي عنكِ، وستفرح كثيرًا، دعت لي وأغلقت الهاتفَ، هذه هي المرةُ الأولى التي يدعو لي أحدٌ غيرُ أمي .

❊ ❊ ❊

"ليس بوسعِ أحدٍ أنْ يملَأَ مكانَ أحدٍ"

غسان كنفاني

(أنت ابن الباشا . . !)

لا وألفُ لا.. يوسف لا يستحقُّ ذلك.. هذا الشابُّ اليافعُ ذو الوجهِ البشوش ..ابنُ الباشا وفلذةُ كبدي.. روحي التي يحملُها بين كِفَّتيه.. أملى الذي يكبر عامًا بعد عامٍ.جاءني بالأمسِ وبه شيءٌ لا أدركه ولا يستطيع هو الإفصاحَ عنه..ابني الذي عرفتُه خجولًا وغاضبًا وقاسيًا لم أستطع أن أعرفَ ماذا يدور بداخلِه تلك المرةَ..؟! ماذا ينوى أن يقولَ، يداه مرتعشتانِ، شفتاه ترتجفان يغطِّيان على صوتِه، بدا مغمغًا أكثرَ منه متحدثًا، أثار قلقي فربتُّ على كفته .كعادتِه جلس تحتَ قدميَّ يُخبرني أنه عاشقٌ، أنَّ هناك امرأةً خطفت قلبَ ذلك الفتي، إنه أصبح يُفكِّرُ في امرأةٍ غيري..آااه يا يوسف..كم انتظرتُ تلك اللحظةَ منذ يومِ ولادتك، يومَ أنِ ارتديتَ أولَ طقمٍ اشتريتُه لك، منذُ كنتَ تستعينَ بي في ربطِ رابطةِ عنقِكَ التي لا تجيدُ ربطَها إلى الآنَ.. ليست هناك أمٌّ لاحظت ابنَها مثلي، تكبر وتكبر وتكبر..وأفرح وأفرح وأفرح، يشيبُ شعري ويظهرُ شاربُك..يضعف صوتي فيخشنُّ صوتُك..أنحني فتصير طويلًا..أضعُف فتقوى، كأنَّ الله يأخذ مني ليعطيك وكم ذلك يسعدني.تذكرت ذلك كلَّه وأنت تخبرني أنك تريد الزواج، أمسكتُ وجهك بيدي أريد أن أتأكدَ مما تقول، نزلتُ على ركبتي وانهمرت الدموعُ التي حبستُها كلَّ تلك السنوات، قاسٍ أنت كثيرًا، لم تحبَّ وحين أحببتَ لم تُلمِّح لي حتى، ظننتُ أنَّ بعد حادثةِ والدِك نسيت الأمرَ، أسئلةٌ كثيرةٌ سألتُها وجاء الردُّ مخيِّبًا، وعلى قدرِ الفرحِ جاء الحزنُ، وحلَّتِ الحسرةُ مكانَ الاشتياقِ وانهمرت دموعٌ أخرى لا أُحبها، لماذا فعلت ذلك بي .

- أرملة يا يوسف..؟!

- أيوه أرملة يا أمي ليه لأ..؟!

- وآه ليه..؟

- آه علشان بحبها انت متعرفيش...

- مش عاوزة أعرف، مش عاوزه كسرة نفس أكتر من كده.

- إيه المشكلة أنا مش عارف.. قالها وهو يقف.

- المشكلة أنها أرملة يا يوسف.. أرملة.. مش بنت بنوت..نامت مع راجل قبلك، حضنته وفرحت معاه..ذكرياتها وعشرتها وأملها هو مش أنت وجاي تقوله ايه المشكلة..هتقولي بحبها ..حب إيه ده اللى

يرميك الرميه ديه..؟! ليه ناقص رجل ولا حسب ولا مال أنت يوسف صادق.. عارف مين هو صادق يا يوسف ولا نسيته؟

- إيه اللي بتقوليه ده..؟

- بقولك الحقيقة اللي عمرك ما فكرت فيها.عارفة يا ابني الحب أعمي لكن الجواز بصير ..إحنا بنحب وعنينا مغمضة لكن قبل الجواز لازم نفتحها.

- إنتي مشوفتهاش يا أمي، مسمعتيش مني حاجة طب أساليني امتي وفين.

- وهيفيد بإيه أعرف.. أنت عارف بتقول ايه ؟

- اللي أعرفه إن الدين محرموش، وإن المسيح أرحم بينا من أي حد وإن قصدك على الناس ولا يفرقوا معايا.

- ميفرقوش معاك لو أنت أي حد أنت ابن الباشا ؟

- باشا باشا .هو أنا مش هخلص منه ابدًا، مطاردني في حياته وموته اللي يحلله الدين ميحرموش عبد يا أمي.

- لكن مش هتسلم من الناس يا يوسف، هنعيش وسطهم وهيفضلوا يبصوا لمراتك على انك اتجوزت أرملة.

- خلاص أخدها وأسافر.

- وتسيبني تاني؟

- عاوزاني أعمل إيه، أنا هتجوزها يا أمي، هتجوزها، فكري في ده كويس، اتحكمتوا في حياتي قبل كده ومش هتتحكموا فيها دلوقتي، انتوا إيه حالفين ما تفرحوني ابدًا، كل واحد فيكم عاوز يتحكم فيا، ويقولي هاممنى سعادتك، اخترتوا كل حاجة وفضلت مسلّم ليكم لكن النتيجة تاجرتوا بيا وبحياتي ولما رجعت انتي أول واحدة قلتيلي أقعد، كنت هتموتي عليا ،وأول ما ألاقي اللي أحبها عاوزة تمنعيني منها.. أفسرها ازاي دي يا امي.. قوليلي افسرها ازاي.. أفهمها تحت أي مسمى.. كل حاجة حلوة وقفتوا فيها ، أنا هتجوزها.. أنا اديّت كلمة وأهلها وافقوا ومش أنا اللي أرجع في كلامي وقصركم وصادق باشا مش هيهموني في حاجة ولا كلام الناس المتخلف هيفرق معايا، كان نفسي اتجوزها برضاكم لكن إنتي اللي رفضتي .

قال كلماتِه بغضبٍ شديدٍ وحزنٍ أشد، قهرني بحروفِه ورحل:

- أنا يا يوسف..! أُمك هي من تقف في وجهِ سعادتك..تفسد عليك أشياءك الجميلةَ..ولماذا تجمعني دومًا مع أبيك كلَّما تكلمت، أليست تكفي ثلاثُ سنواتٍ عذَّبتني فيها ..حرمتني من صوتِك..عاقبتني.. لم أَحْكِ لك حتى الآنَ كيف مرت تلك السنواتُ، أيامُها الطويلةُ، حزنُها الكئيبُ، شمسُها الغائبةُ، وهواؤُها الحامض.

انطفأت شُعلتي منذ رحلتَ، أُقسم لك أني قد أشرق قلبي بقدومِك وخفق بمجردِ أنْ أخبرتني أنَّ هناك امرأةً خطفت قلبَك، تُرى لو لم أكن أُمَّك هل كنتُ غفرتُ لك..؟ قدرَالمحبةِ يأتي الوجعُ، وأنت محبَّتُك لا يسعُها ميزانٌ.. سامحك اللهُ يا ولدي وأكرمَك وكفاك وأعطاك ومنعك الحاجةَ وأعزَّك بين الرجالِ .

لم أُرِدك غاضبًا..أو أنْ تقول تلك الكلماتِ، ولكني لا أرضاها لك.. لا يا ولدي..أنت لا تدرك من هو الرجلُ الأولُ في حياةِ المرأةِ وأنّىَ لك أن تعرف..؟! لا أتحدَّث عمَّا تُسمُّونه الحبَّ الأولَ والأخيرَ لكن أُحدِّثك عن الزواجِ الأولِ، الرجلُ الأولُ لا يُنسى، أول من قبَّلته المرأةُ.. خلعت ثيابَها وأظهرت مفاتنَها أمامه.. ارتمت على صدرِه واحتضنت يديه ونامت، أولُ رجلٍ تراه بجوارِها، صوتُه داخلَ البيت، غضبُه ويأسُه مزاحُه، ماذا يأكل، ما يحبُّ ويكره، زوجُها يا ولدي..! تلك ليست ذكريات كي تُنسى..بل كلُّ لحظةٍ هي عمر.

أعرف أنك تراني امرأةً جاهلة ساقوها من بيتِ أبيها لزوجِها، أنا كذلك لكنَّ المرأةَ تتغير بعد زواجِها، بل في اللحظةِ التي تكون في عصمةِ رجلٍ آخر، تدرك ما لم يمكن إدراكُه إلا في تلك اللحظة، تعرف الكثيرَ وأولُ ما تعرفه هو الرجلُ نفسُه.. تفهمُه وتدرك تفاصيلَه وتفكيرَه وهم لا يختلفون جميعًا ، الرجالُ داخل البيتِ كلُّهم واحدٌ..! تعلمت الكثيرَ والكثيرَ لذلك لا أرضى لك بزيجةٍ كتلك، بامرأةٍ تحمل أسفلَ ثيابِها رجلًا آخرَ، فكلامُ الحبِّ كبيرٌ لكنه كلام، أما الحقيقةُ فشيءٌ آخر.طائشٌ أنت، تضرب بكلامِ الناسِ عرضَ الحائطِ مثل كافةِ الشباب، مثل أبيك لو تعلم..! لكن بمجرد أن نكبرَ نُدرك أننا لا نعيش وحدَنا، وأنَّ هذا الكلامَ الذي ستطيح به سيصير شوكًا يقضُّ مرقدَك، كيف أفرح، أعزمُ الناس، أدعوهم لحفلِ زفافك، أم تريدُها زيجةً سِرِّيةً أو في الغُربةِ، قلت كلماتك وذهبت وتركتني طوالَ الليلِ أُحدِّثُ نفسي وأدعو اللهَ أن يُلهِمَك الهدوءَ والصوابَ ظللت أدعو حتى جاء ذلك الصبحُ الكئيبُ ياإلهي ..

❋ ❋ ❋

فوقي تعبر كلُّ الأشياءِ التي أردتها أن تكونَ لي . .

ولكنها لن تكون أبداً . .

(طعنُ الكلماتِ)

- مالك؟

- مليش.

- هتخبي عليا؟

- مجهد بس شوية الشغل اليومين اللى فاتو.

- اتكلمت مع اهلك؟

- ليه بتقولي كده؟

- مش عارفة.. بس حساك اتكلمت، الحجة بتاعت انك ملقتش وقت تفاتحهم في الموضوع مش مصدقاها، وبقالك يومين في القاهرة مشوفتكش وحاسه ان في حاجة مضايقاك أو بمعني أصح حاجة هتضايقني مش عاوز تقولها؟

- انا تعبان اوي يا غادة.. مكنتش متوقع.. امي رفضت.

- وليه مكنتش متوقع؟! أنا متأكده إنه هيحصل.

- يحصل معاكي انت ماشي، بنت واهلك هيفكروا ألف مرة في جوازتك لكن أنا ليه ؟!

- علشان هبقى مراتك.

- بس ده مش سبب..الرب أرحم من ده كله.

- بس هما مش رب..دول بشر كل ده متوقع!

- لا مش متوقع يا غادة.. مش متوقع، انهم يرفضوا اني اتجوز اللى بحبها مش متوقع، حد غيرها كانت اتكسفت على دمها وفكرت لأول مرة فيا، كانت فرحت ووافقت بعد اللى شفته على ايديهم..، كانت راجعت نفسها وعرفت يعني إني اطلب لأول مرة اتجوز، تعرف إني بحب ومش هتنازل عن ده، لكن كأن ولا حاجة حصلت.

- يا يوسف..

- امي رفضت حتى تعرف اسمك يا غادة.. اي حاجة عنك تصدقي..! مدتنيش فرصة اقول أي حاجة بمجرد إنها عرفت انك أرملة.. قالت لا كده كأنها محضراها، نسيت في لحظة قد ايه كلمتها بتحكم عليا من الموت، بس انا مسكتش قلتلها إني اديت كلمة ومش هتراجع فيها.

- وردها إيه؟

- مدتهاش فرصة..قلتلها كلامي ومشيت ..سيبتلها البيت اصلا.

- أعذرها يا يوسف، هي نفسها مش رافضة، كل أم بتتمني اليوم ده لكن ده مجتمع بيكبلنا بقيود، فينا اللى بيفكه وفينا اللى بيفضل جوه القيود ديه وانت ابنها الوحيد وراجلها وسندها، الموضوع هياخد وقت لكن في الآخر ملكوش غير بعض.

- قصدك إيه..!

- متفهمنيش غلط، أنا هوافق على جوازك حتى لو روحت انا وانت لوحدينا للكنيسة، انت عارف انا مستكفية بيك عن الدنيا بحالها وربنا يعلم ان امي برضه كانت معترضة لكن بابا اقنعها لما عرف قد ايه انا بحبك، انا قصدي الوقت هيحلها وانت ترجع البيت وبلاش تكبر الموضوع جايز بكره تتحل واهو يبقى عملنا اللى علينا.

- بحبك أوي يا غادة.

- تعرف أن دي أول مرة تقولها، دايمًا بتكتبها لكن عمرك ما قلتها.

- آسف لو أعرف..

- مش قصدي ..بالعكس أنا بحسها منك في كل لحظة، لمسة إيدك الدافية ونظرة عينك اللي بتحكي وضحتك الصافية، يااااااه يا يوسف بشوف فيهم اللى اقوى من كلمة بحبك أو أقوى من أي كلمة ممكن تتقال، بحسها بس ..وقلبي بيتنطط من الفرحة كل لحظة وانا معاك، انا أحسن من اللى بيتقالهم بحبك كل يوم ، هما بيسمعوا كلام ممكن يكون كذب لكن انا بشوف احساس مينفعش يبقى مزيف، بس ده ميمنعش ان للأذن عليك حق يا أخ يا يوسف.

- ههههه بس كده حاضر.

- أخيرًا ضحكت..!

- عارفة ..الشهور اللي عرفتك فيهم هما الشهور اللى عيشتها فعلا، غيرتي كل حاجة جوايا ورجعت أحب الحياة أوي، أول مرة أحس ان معايا حاجة مقدرش استغنى عنها، منحة من السماء وهدية من المسيح، تعويض عن كل اللي انا شوفته، وساعات بحس اني نجيت من الموت علشان أشوفك أنت بس وده كفاية أوي عليا.

- طب أقول إيه انا بعد الكلام ده، انت فرحتي يا يوسف، جابر خاطري وحبيب عيني اللى بتتمني تشوف كل لحظة، ربنا ما يحرمني منك.

ساد صمتٌ بعد ذلك..نظرتُ إلى عينيها ذاتِ اللونِ البُنِّيّ، لأولِ مرةٍ لا تخجل ونظرت إليَّ هي الأخرى وكأننا يشتاقُ بعضُنا لبعض أوربما نبحث عن الطمأنينةِ التي شعربها قلبي في تلك اللحظة .

أوصلتُها للعملِ مرة أخرى، اللحظةُ التي اختفت فيها عن عيني عادت الحياةُ كئيبةً مرةً أخرى، فكرت أنِ أطلبَ منها أن تبقى أو أذهبَ معها إلى العمل، بدا تفكيري مثل طفلٍ صغيرٍ يحاول ألا يفقد نجمَه الذي يهتدي به، ذلك الحلُّ الوحيدُ لأن يهدأَ قلبي وعقلي عن التفكير، فتراجعت عن ذلك كلِّه، المشكلةُ الكبرى من ذلك بكثير.

المشكلةُ ليست في في أفكارٍ مجتمعيةٍ خاطئةٍ تمنع أهلَها من أن يقبلوا بزواجٍ ثانٍ وَفْقَ تقاليدِ قريتِهم، ذلك أهونُ بكثيرٍ من نظرةِ أمي لزواجنا، خبَّأْتُ عن "غادة" أنَّ أمي ترفضها لأنها أرملة ليست بنت بنوت، ولأنها نامت مع رجلٍ قبلي وحملت ذكرياتِه وحضنت يديه وأصبح هو أملُها وحلمها، رفضتْها لأنها تعرف كيف تمارس الجنسَ ولأنها تحمل أسفل ثيابها رجلًا آخرَ لا يمكن نسيانُه .

ما أقسى ما قالته "فردوس" طعنتني بالكلماتِ واحدةً تلوَ الأخرى..لم تتواني أو تتورَّعَ في تعريةِ المرأةِ التي أُحبُّها امامي، هيَّأتُ نفسي كثيرًا لأن أُناقشَها في كلِّ شيءٍ إلا ذلك الأمرَ، جرحتني كثيرًا وهي تتَّكِئُ على كلِّ حرفٍ وتصف بيديها كلَّ كلمةٍ حتى خُيِّلَ لي أني أرى "غادة" عاريةً في حضنِ"راضي" كوَّنتُ مشاهدَ في عقلي لم أتخيلها من قبلُ.كيف بدت أمي بتلك القسوة، هل لم أعرفْها حقًّا، كلُّ مرةٍ تبدوا لي في ثوبٍ جديدٍ، مرةً دافعت عن صادق باشا واليومَ تُسمِعُنى ما لم أكن أتخيل سماعَه، هل هي من ربَّتني صغيرًا وانتظرتني عشرَ سنواتٍ كما تحكي لي، وكيف لها أنْ تأتيَ بتلك الصلابةِ وهي تُحدِّثُني، هل تُدرك أني لن أُخالفها مهما كان الأمرُ فتطمئنّ في حديثِها ولماذا لا تُظهر تلك القوةَ إلا أمامي، صراخي في وجهِها

لم يكن إلا صدىً لعقلي الذي صرخ هو الآخرُ:كفاية" لا أستطيع تصوُّرَ مشاهدَ أكثرَ أو سماعَ حروفِ أخرى، علا صوتي أكثرَ ولوَّحتُ بيدي وهربتُ من فردوس..!

لم أقل لغادةَ هذا كلَّه، كيف أُفسِّر لها تلك النظرةَ التي لا تراها أمي لها إلّا مُمثَّلةً في جسدها فقط، العقابُ لإنها تزوجت من قبلُ، وكيف أعتذرُ لها على أني لُمتُها علي لحظةٍ نامت فيها في حضن رجلٍ غيري حتى ولو كان زوجَها، كيف أُخبرها وهي من نصحتني بالعودةِ للبيتِ حتى لا أُغضِبَ المرأةَ التي قالت عنها كلَّ ذلك..! كتمتُ كلَّ شيءٍ في صدري وقررتُ أن أبيتَ ليلتي في القاهرة..

❊ ❊ ❊

"ألست ترى أن التشاؤم هو الشجاعة؟

ألست ترى أن التفاؤل هو كذب وهروب وجبن؟

أنت تعرف أن الحياة قميئة وسيئة، فلماذ اتواصل الأمل بها ؟"

غسان كنفاني

(لأني أرملة)

- مش مطمنة يا ندى؟

- يا بنتي مش كان معاكي امبارح وقال على كل حاجة؟

- آه.

- امال في إيه الراجل مش هيتخلي عنك؟

- امبارح وهو بيتكلم كان زعلان أوي، لا مش زعلان ده بيصرخ، بيطرد حاجة مش عاوزها تيجي في باله أو يتخلها، مش فكرة إن أمه رفضت وخلاص، بان عليه الكسرة، أن حد خذله أو إنه خايف من ده.

- ماهو ده طبيعي يا غادة، مكنتش يتوقع أن أمه هتفكر بالطريق ديه؟

- هتصدقيني لو قلتلك إني مش مصدقه أن أمه رفضت علشان فكرة أني أرملة بس، يوسف توقع ده وقالي ازاي هيقنعها، غضب إمبارح أسبابه أكبر.

- هترفضك ليه إنتى بتقولي إنه ملحقش يقولها اسمك.

- ده اللي حساه، أي أم مش هترضى لابنها يتجوز واحدة أرملة خصوصًا لو كان زي يوسف أكيد ده اللي متوقعوش.

- بطلي بقى تفكري بالطريقه ديه، بطلي تبصي لنفسك نفس بصة الناس العقيمة، نظرتنا لنفسنا هي اللى بتحدد إزاي الناس بتبصلنا وأنا مش عارفه ليه دايما عندك إحساس إنك أقل من أي حد، أسمعي يا غادة مش هقولك أن يوسف لازم يقبلك زي ما إنتي لأنك احسن من أي حد لكن إن كان هيفكر ولو للحظة واحدة بالطريقة اللي بتقولها يبقى لازم تبعدي عنه، البنت مننا مبيسعدهاش في الدنيا إلا راجل يكون شايفها ست الناس، تبص في عينيه تلاقيها ساكنة الناحيتين وملياهم، يحميها ويدافع عنها ويبقى سندها ويقول قدام كل الناس إنه اختار أحسن واحدة في الدنيا غير كده يبقى بلاش

- حاضر يا ندى.

- هو قالك حاجة ؟

- ابدًا والله دنا حتى قلتله متكبرش الموضوع وأرجع البيت مع الوقت هيتغير.
- ولو متغيرش؟
- مش عارفة بس قلتله مستعدة اتجوزك من غير أي حاجة نروح الكنيسة ونتجوز.
- وقالك إيه ؟
- مقالش.
- إن شاء الله هتوافق.
- يارب يا ندى.
- بتحبيه أوي كده ؟
- عارفة كنت فاكره نفسي بحبه أوي قبل الموضوع ده لكن حي ليه دلوقتي يقول أن اللى فات كله كان لعب عيال.
- سيدي يا سيدي.
- تفتكري إنه ..
- ما افتكرش ولو بيحبك هيوصلك إنتي بس خليكي جنبه وعلى قد ما تقدري ساعديه هو أكيد محتاجلك.
- حاضر.
- هتروحي فين؟
- الكنيسة وهرجع البيت.
- مستنياكي.

لم أستطِع أنْ أردَّ على ندى، بالأدقِّ لم أردَّ ذلك..هي لن تفهمَني.. لن تدرك ما أشعر به، ربما لو أخبرتُها ستتظاهر بالفهم تضامنًا معي، تحزن من أجلي أو حتى تهاجم كلَّ ما سأقوله، لكن في النهاية لن تفهمَ وأنّى لها ذلك..؟ هي لم تُجرِّب أن تكونَ أرملةً، أن ينظرَ الناسُ إليها على أنها أرملةٌ، آآآهٍ لو تدرك معنى تلك الكلمةِ..؟! حروفُها المسمومةُ وإيقاعُها على كلِّ مستمعٍ في مجتمعٍ كهذا، صحيحٌ أنها تعرَّضت إلى من نهشوا جسدَها بأعينِهم، ينزعون عنها ملابسَها في خيالِهم..!ولكن في النهايةِ لن يطلبوا الحصولَ

عليها، الأمرُ سيكون صعبًا وعواقبُه كبيرةٌ، أما الأرملةُ فهي الأسهل.. باختصارٍ: لم يعد هناك ما تخسره، حتى "خالد" الذي تحرَّش بي وبها كان أكثرَ جرأةً وخِسَّةً ونذالةً معي، لو تعرف "ندى" ما أقصده، لو ترى معي أعينَ الرجالِ التي تلمع حين يعرفون أنَّ زوجي مات.

أتمنى أن أكونَ قويةً لكن ما يواجهني أكبرُ من قدرتي وإيماني أضعفُ من شكِّي، وحلمي كوخٌ صغيرٌ معلَّقٌ على قمةِ جبلٍ ستتساقط عليه الأمطارُ قريبًا فتجرفُ كلَّ شيءٍ، وما بين المحاولاتِ المتلاحقةِ للاستمرارِ أو الاستسلامِ طاقتي تُهدر على هذه الأرضِ.. يا الله لم تخلقنا عبثًا ولم تعاقبنا بموتِ أحبائِنا؛ فأنت أرحم من ذلك بكثيرٍ.. تمنحُنا الحياةَ ويأخذُها غيرُنا.. تعطينا الفرحَ فيسرقُه آخرون.. تُزوِّدُنا بالقوةِ فيتمُّ استنزافُنا، كن معنا دائمًا .

أتمنى يا "ندى" بل في الأصلِ تلك طبيعتي قبل أن أدركَ ما حدث لي بمجردِ وفاةِ"راضي"..فالأمرُ ليس متعلِّقًا برحيلِ رجلٍ بل بتبديلِ حياة، فكلُّ شيءٍ تغيَّر منذ تلك اللحظةِ.. أنا القويةُ المستقرةُ دائمًا وجدتُنى في مهبِّ الريح، لذلك أكره الموتَ الذي وضعني في هذا المأزقِ، ولذلك ايضًا رفضت "أبانوب"..! فإنَّه لم يكن قادرًا على الوقوفِ بجانبي لنتخطِّي كلَّ شيءٍ، الفرقُ بينه وبين "يوسف" أنَّ"أبانوب" حين شعر بالعجزِ هرب.. هرب مني وكنت أريد أن أهربَ إليه، أما "يوسف" فهو مصممٌ على الهروبِ معي .أشعر أنَّ أُمه حدَّثته كوني أرملةً، وكيف لم تضجر من هذا الخبرِ، تسألُه لماذا، تصرخ فيه:

- أنت تستاهل أحسن كده.. أو ربما نكزته وهي تقول إيه اللى رماك الرمية ديه.. بالتأكيد خرجت منها أيٌّ من تلك الكلماتِ، هي لم تعرف اسمى، وغضبُ"يوسف" لم يكن له سوى هذا المبرر.. يا ربِّ ليس أمامي إلا الانتظار، الانتظارُ مثل الليلِ بجسدٍ واهنٍ ورأسٍ منحنٍ محمَّلٍ بالصبرِ..! وأنا واثقةٌ من أنك بجواري أنتظرُك مع الفجرِ وأنشد لك أناشيدَ الوجدِ والحبِ، خروجُك يقينٌ كالفجرِ وقوتُك ستسعنى من كلِّ هذا.

❋ ❋ ❋

"ألا تفهمين أنَّ هذا الذى ينبض داخلَ قميصى هو رجلٌ شرقىٌّ خارجٌ من عُلبةِ الظلامِ. . ؟"

غسان كنفاني

(الرجلُ عُمر أُمّهِ)

- متلومهاش.

- والله يا حبيبي مش بلومها، بس مش عاوزاها ضعيفة، عاوزها ترفض كل الأفكار ديه، تتحرر، تتمرد وتقرر متبقاش ضعيفة قدام حد حتى لو يوسف اللي روحها فيه، كمان حساها شوية واخدة الموضوع بحساسية زيادة ولا أنا اللى مش فاهمة؟ هو الموضوع معقد كده ؟ تحس إنها أقل من أي حد خصوصًا قدام يوسف..انت متعرفش بتحبه كده.

- طبعا معقد، غادة مش بتتكلم عنها بس هي مكانتش كده ولا اللي زيها اتولدوا كده لكنهم فجأة وجدوا نفسهم في مجتمع منقسم قسمين واحد بيستحلهم بكل ما تحويه الكلمة من المعني والقسم التاني بيشفق عليهم، الإحساس ده شاركنا فيه كلنا عن عمد أو غير عمد، بسكوتنا على استمراره، بعجزنا عن مواجهته، بالأفلام اللي صورت المطلقات والأرامل دايما جاهزين لإقامة العلاقات الجنسية أو ضعفاء مبيقدروش يقاوموا، الأمهات اللي بتندب حظ بنتها الأرملة، كم مرة غادة سمعت أمها بتدعيلها ربنا يفك كربها، قرايبها اللي كل ما يشوفوها يطبطوا ويقولوا بكره ربنا يعوضها ، تخيلي كل ده بشكل دايم ومتواصل ومش عاوزة ده يخلق جواها إحساس إنها فعلا ضعيفة ومحتاجة، أنا بكلم في العام ما بالك بقى في حالة غادة وجوازها التاني، دي شايله كتير أوي، فوق مستوى البشر، الدنيا كلها ضدها ، حلمها قربت منه وخايفة تخسره، أصعب حاجة ممكن تحصل أنك تفقد حلمك.

- متصدقيش إن كل جرح ممكن يروح مع الزمن، كسرة الخاطر ملهاش دوا، اللمعة اللى بتطفي مع حد مبتقيدش تاني، فرحة القلب لو راحت مبترجعش، الضحكة دايما سببها اللى معاك ولو مشي مبتضحكش وتفضل عايش كده اسم وبس.

- والرجالة..؟

- مالهم..؟

- بيشوفوا الموضوع ازاي يعني يوسف هيفكر ازاي..؟

- الموضوع بيبقى مختلف من واحد للتاني، الحب اللي بينهم بيفرق، التفكير والتربية والأفكار كلها حاجات بتأثر لكن في النهاية يوسف هيحس بفرق في الأول، هيفتكر غادة قبل ما يشوفها واكيد لما يتقفل عليهم باب هيحس بالفرق لكن ده في البداية بعد كده الدنيا عادي.

- وليه يفكر من الأساس..؟

- زي ما غادة اتأثرت بالمجتمع اللى عاشت فيه كمان يوسف نتيجة نفس التركيبة، المعتقدات والأفكار ديه جواه مهما أنكرها أو رفضها لكن الحكم هنا مش إنه يفكر بطريقة معينة أو لا لكن هيقدر يتخطاها ولا لا.

- أنت لو مكانه هتفكر كده برضه..؟

- ههههه مش عارف بس مش هقدر أقولك أنا مثالي لاني طالع من نفس الأفكار بس انا فندتها شوية يعني تقدري اتقولي اتمردت عليه.

- وأمه..؟ ده ليها علاقة بالأفكار برضه؟

- أكيد طبعًا .

- تفتكر يوسف هيسمع كلامها..؟

- عارفه الولد لأمه مش مجرد ضنا، الموضوع أكبر من فكرة الأمومة..ده عمرها اللي بينسحب منها يوم بعد يوم ويروحله..شقاها اللى بيكبر قدامها، سندها لما تتعب وسترها لما يوصلوها لحد القبر، عيونها اللى بتفرح وهي بتشوفه، كل نبضة روح فيه هي بتحسها، سيبك بقى من كلام أن التفكير أتغير وأن خلفة البنات أحسن أو اللي مخلفش بنات مشبعش من الحنية، صحيح إنه مشبعش من الحنية لكنه اترحم من حاجات تانية، الست لو مخلفتش ولد بتفضل حاسة أن في حاجة ناقصة حتى لو معاها ١٠ بنات، باختصار الولد نصرة لأي ست، حماها من كلام اهل الزوج، عزها قدام جوزها ان في حد هيشيل اسمه على طول مش بقولك ده صح لكن ده الحاصل.

- طب ده بالنسبة للأم وبالنسبة للواد نفسهم..؟

- الراجل كائن مضطرب دايمًا،قلقان،خايف، محتاج لأي حد يحتويه أي حضن يترمي فيه وميتكلمش ما بالك الحد ده امه، حضنها اللى بيسيع كل الأحزان، لمسة إيديها اللى بتطمن عروقه

القلقانة، نظرتها اللى بترجعه طفل تاني، دعوتها المخلصة اللي بتخليه قادر يكمل، الأم بتبقى عارفه ده كويس علشان كده مهما كانت درجة حب أي أم لمرات ابنها لكنها بتفضل دايما فاكره ان ابنها لقى حضن جديد، ايد تانية هتمسح عرقه وتطبطب عليه، من الآخر ابنها مبقاش محتاج ليها تخيلي حد جاي ياخد شقاك ويقولك المهمة بتاعتك خلصت.

- غريبة عمري ما فكرت فيها كده رغم إني عارفة أن البنت حبيبة أبوها، طب ويوسف تفتكر هيعمل إيه مع غادة وأمه اللى رفضتها..؟

- الأم عادة بتلين قدام إصرار ابنها، لو أم يوسف مش متقبلة فكرة إن ابنها يتجوز أرملة هتوافق بس محتاجة شوية وقت لكن لو رافضة علشان غادة أرملة يبقى هتفضل رافضة.

- مش فاهمة..؟

- يعني لو هي كانت تتمني لابنها جوازة أحسن من كده وبس قدام إصرار ابنها هتوافق لكن لو مشكلتها إن غادة أرملة ومينفعش تكون لابنها يبقى مش هتتغير.

- ويوسف..؟

- الله يكون في عونه.

- مش بسألك علشان تتعاطف معاه.

- ههه.. أمال إيه بس..؟

- تفتكر هيتصرف ازاي..؟

- لو حطيتي أي راجل قدام إنه يختار حبيبته أو أمه هيختار الأخيرة حتى لو كانت غلط، لو ضد إرادته، لو مش هيتجوز.

- يا سلام ليه يعني..؟

- لأنه ببساطة مش هيعرف يتخلى عنه أمه، يعيش إحساس إنه عاصي ليها، لو عمل كده هيبقى داس على كل حاجة، مع أول مشكلة مع مراته حتى لو كلمة ملهاش لازمة هيفكر إنه استغنى عن أمه علشان اللى بيتخانق معاها دلوقتي، المخ هيوقف كل حاجة ويفتكر ده بس، لو يوسف خسر أمه هيخسر الحاجة الوحيدة اللى سنداه في الحياة.

- كلامك بيقول إنه هيسيب غادة..؟

- مش بالظبط لكن ممكن يقدر يقنع أمه وجايز ياخد قرار وأمه توافق بعد كده مش عارف أنا بقولك أنا بحسبها ازاي.

- بس دي حسبة ظالمة..؟

- إن جيتي للحق كلنا مظلومين هنا.

- أحمد هو انت لو كنت مكان يوسف وانا غادة كنت هتعمل إيه..؟

- يا حبيبتي انتي مخلتيش ليا فرصة أتخيل أي موقف، استوليتي على أُمي وأبويا قبلي.. مكنش فيه فرصة.

- قصدك إيه يعني..؟

- قصدي إني عمري ما كنت هلاقي زيك، حد يملي عليا حياتي، يقتحمني ويغيرني، يلمني من الصرمحة ويصبر عليها، حد يخلي كل أملي إني أجتمع معاه تحت سقف بيت واحد، مكنش ينفع لي غيرك أصلًا .

- يعني لو مكنتش اقتحمتك ماكُتنش سيادتك هتخطبني..؟

- ده حقيقي.

- نعم..!

- لكن كنت هحبك، دي الحاجة الوحيدة اللى متأكد منها، إني هلاقيكي زي ما انتي كده، اسمك وشكلك، مش حاجة طبق الأصل لا أنت، ازاي وفين مكنش هاممني بس كنت حاسك بكل تفاصيلك، غضبك وضحكك، جنونك.. صوت نرفزتك.. حركة رجلك وانت قلقانة.. بصتك الناحية التانية لما تتكسفي، انا كنت مستنيكي ده اللي لازم تعرفيه.

- طب ومكنش هتخطبني ليه لما انت مستنيني كده..؟

- خايف بعد ما الاقيكي تزهقي مني..!

- طب ودلوقتي مستني إيه..؟

- مستنى الجمعية علشان النقاشة.. أناكل الفلوس اللى بجمعها في شهور بتروح في يوم في الشقة يا حبيبتي..!

- هههههه.. يا حرام.

- آه يا ختي وانت غرمانة حاجة، دنا كل فلوسي خلصت على المحارة بس.

- اللي يريد الحلو يصبر على مره..!

- بصبر يا حبيبتي، انا حاسس اني هموت قبل ما اخلص الشقة.

- لا كمل جميلك وخلصها علشان اعرف اسكن فيها.. مبعرفش اقعد في حاجة مش متوضبة.

- بس كده تؤمري يا فندم.

- قولي صحيح.

- نعم؟

- جبت الفلسفة دي كلها منين، عمال من أول القاعدة وانت مقضيها تحليلات نفسية وعلاقة الأم بابنها وكل وحد هيتصرف ازاي..؟!

- يا سلام ما انت قاعدة تسمعيني وتسألي.

- ما انت كلامك مقنع الصراحة.

- هو أكل وبحلقة يعني؟

- كده ماشي.

- ندى.

- نعم.

- لو يوسف بيحبها كل حاجة هتعدي ولو مش بيحبها هيتخلى عنها وفي الحالتين هي الكسبانية

- بس انت مش عارف هي بتحبه قد إيه.

- أيًّاً كان..! صدقيني رغم الجرح مش هتخسر.

❊ ❊ ❊

"أيمكنُ أنْ يكونَ القدرُ مُرتَّباً على هذه الصورةِ الرهيبةِ. .

ياإلهي. . أيمكن. . ؟!"

غسان كنفاني

(محدش ليه ذنب)

نادرًا ما يسهر في ساحةِ البيت، بل هو دومًا في حجرتِه التي أصبح يهجرُها طويلًا خلال الأسبوعين الماضيين، منذ أن قلتُ له لا. تحوَّل المنزلُ إلى "بنسيون" ينام فيه وبقيَّةُ اليومِ في مكتبِه الذي بدأ يكبر وفرحت بذلك كثيرًا.

في الركنِ يجلس شاردًا، تحتَ مِظلَّةٍ من أشعَّةِ النورِالهاديء، يبدوا أنَّه مُستغرقٌ في لحظةِ تفكيرٍ استدرجته حتى إنه لم يشعر باقترابي منه..! لم يسمع وقعَ أقدامي..لم يرَني إلا حين ناديتُه..! فاعتدل في مجلسِه قليلًا:

- أمي..تعالى.

- بدايتُه شجَّعتني كثيرًا على الحديثِ معه..لم يُحدِّثني طوالَ الفترةِ الماضيةِ حتى اشتقتُ صوتَه.

- عارف إنك زعلان منى.

- مش زعلان يا امي.

- لا يا يوسف، زعلان ومضايق..شايفني ست ظالمة، بتحكم في حياتك زي ما ابوك عمل، مش هاممنى غير نفسي لولا انك ابني اللى اعرفه كنت قلت انك شتمت عليا كمان.

- يتقطع لساني يا أمي لو قلت كده.

- بعد الشر عليك يا حبيبي..حتى لو شتمت هسامحك برضه، هبقى عارفه انه من ورا قلبك.

- ليه رافضة غادة يا أمي؟..دي الوحيدة اللى حبيتها..بنت مؤدبة ومثقفة ومتعلمة وأصلها طيب وبتحبني.

- بس أرملة.

- ملهاش ذنب في ده.

- عارفه انها ملهاش ذنب..وانك حبيتها..عارفة كمان إن أي حد معرض للي هي اتعرضتله.

- طب لما انت عارفة انها ملهاش ذنب ليه رافضة..؟

- لأن إحنا كمان ملناش ذنب.

- ملكوش ذنب في ايه ؟

- منفرحش بيك ونطمن عليك مع حد يناسبك ويليق بيك.

- وغادة حاجة متفرحش؟

- بص يا ابني جايز يكون فيها حاجات كتير حلوة، لكن زي ما بيقول المثل كل فولة وليها كيال، دي ينفعلها حد زي حالاتها أرمل، أو حد فاته قطر الجواز لكن انت..انت يا يايوسف..ابن الباشا واللي في عز شبابه ..أمل أمه والعيلة كلها.. طب ازاي؟

- ليه مصممة تقللي منها كده من غير أي سبب..؟

- مش أنا يا ابني اللى قللت منها..الحياة هي قللت منها لما خلت حتة منها مع راجل مات، طريقها اللى انكتب، صحيح ممكن تكون اتظلمت أو قست عليها الدنيا بس ده مش معناه انك ترمي نفسك معاها في نفس الطريق.

- إيه العيب إنها أرملة يا أمي..علشان مش بنت بنوت..ده اللى فارق معاكي..علشان مش هيبقي في فرح..مش هيبقى في صباحية ده اللى هامك ومش هامك سعادة ابنك..؟!

- تبقى عبيط لو فكرتني رافضة علشان كده، لكن هاتلي سبب واحد يخليك تعيش مع واحدة ساكن جواها واحد تاني قبلك، راجل عاشرته وكانت عاوزة تكمل حياتها معاه.

- بس الراجل ده مات يا أمي..!

- لكن عايش جواها.

- لا غادة بتحبني.

- مقلتش مش بتحبك لكن في جزء مش ليك.

- دي حاجة تخصني ومتخصش حد غيري.

- الجواز مش قرارك لوحدك..ده نسب وعيلة..ست هتخلف منك طفل يحمل اسم عيلة صادق..يعني مبقاش قرارك لوحدك.

- ولا حاجة من اللى قلتها مقنعة.

- علشان أنت مش شايف غيرها، مش قادر تفهم يعني إيه تتجوز غادة، اسمك ومقامك، الناس وكلام العيلة، الراجل اللي سبقك ليها.

- مش عاوز أشوفه علشان ده ظلم.

- هتشوف صح لما غشاوة الحب تروح من على عينيك.

- إنتي بتظلميني يا أمي.

- ما عشت يوم ما أظلمك، أنا مليش غيرك، دايما عاوزالك الأحسن، نفسي أشوفك في بيت يليق بيك أنا مش هعيشلك طول العمر.

- غادة هي الأحسن ليا.

- اللي متباقش كلها ليك وتكون أول حلمها عمرها ما هتبقى الأحسن.

- ده آخر كلامك يا أمي؟

- تصبح على خير يا يوسف.

تركته يكمل سهرتَه.. يشرد أكثرَ حتى يصلَ إلى قرار، أوعلى الأقلِّ يفكر فيما قلتُه له، لم أشأ أنْ أُخبرَه بأنَّ هذا آخرُ كلامي.. إنني فكَّرت كثيرًا وكثيرًا في أمرِه.. حاولت تصوُّرَه مع "غادة" في البيت حولي.. قدرتي على حُبِّها كزوجةٍ لابني.. لن أكذبَ عليه.. لن أتقبَّلَ الأمرَ يا يوسف.. لن أُحبَّها..! ليس لذاتها ولا لكونها غادة، ولكن لأنها أطفأت نورَ قلبي، أفقدتني فرحةَ العمرِ التي أنتظرها.. لن أُوافق على زواجك منها، وأنا لم أظلمْك فليست هناك أُمٌّ ظالمةً ابدًا .

❋ ❋ ❋

"إنهم يحسون أنك تتألم، ولكنهم لا يعرفون كم تتألم. . !"

غسان كنفاني

(هل تُدركَ كلَّ هذا . . !)

حبيبتي، لم أستطِع أن أنتظرَ حتى الخميسِ المقبلِ لكي آراكِ، مازلنا في بدايةِ الأسبوع، أكتب إليكِ هذا الجوابَ من مكتبي، تركني العمالُ وبقيت فيه كعادتي منذ أن تركتُكِ، بداخلي الكثيرُ من الحديثِ الذي أودُّ قولَه أو بمعنىً أصحَّ إفراغَه، جاثمٌ هو كحجرٍ ثقيلٍ على قلبي الذي ينبضُ باسمِك كلَّ لحظة، أردت الهروبَ فقيَّدني، أبحث عن ملجأٍ لكن لا ملجأً إلا حضنك، يداك التي تُطمئِنُني كطفلٍ صغيرٍ عاد إلى أُمِّه بعد أن فقدها فشعر بوحشةِ الغربة، عيناكِ القادرةُ على منحى الأمان .

اليومَ صعبٌ، ذهبت إلى المكتب، لم أُطق الجلوسَ ساعةً واحدةً ، وفجأةً وجدتُني أتركه وأسير في الشوارع، لا أريد الذهابَ للبيت، للكنيسة، للمقهى، للجلوس حتى منفردًا، بعد منتصفِ النهارِ عدتُ للمكتبِ مرةً أخرى، هرولت إلى الورقةِ لأكتبَ لك، أُحدِّثُك، أتخيَّل صوتَكِ، لم أُرد أن أهاتفَك، أضغط على زرٍّ فيأتيني صوتُك، يفقد المحبُّ شوقَه حينَ يكونُ الأمرُ بتلك السهولة .

أعرف أنكِ ستسألين عن سببِ هذا الهروب، الضيقةُ التي أمرُّ بها، سأقول لك وأستحلفكِ بالله أن لَّا تحزني، يكفي أنَّ أحدَنا حزينٌ، نعم تحدَّثتُ مع أُمي بالأمس، هي من بدأتِ الكلامَ، جاءتني وأنا أُفكر فيكِ، أول مرة أشوفك، أفكاري قبل دخولِ كنيسةِ الدوبارة في ذلك اليوم، خروجي منها حاملًا صورتَك بداخلي، جاءتني وأنتِ معي تسمعين كلَّ ما يجري؛ لذلك لم أشأ أن أنفعلَ فتغضبَ أُمي وتقولَ كلامًا أمامكِ لا يجب سماعُه..!حدثتني هادئةً تلك المرةَ، سمعتني وعرفتَ من أنتِ..؟ أظهرتُمدَى حبِّي لكِ أمامها دون خجل، رددتُ كم أنتِ عظيمةٌ وأنَّ حياتي مرتبطةٌ بك في رباطٍ مُقدَّسٍ، هي لم ترفضْكِ أنتِ.. نعم هي فقط لا تتقبل فكرةَ زواجي من أرملة..! ثقافاتٌ وعاداتٌ مترسِّخةٌ لا أكثر، شعرت حين عرفتُ ذلك أنَّ الأمرَ سيُحلُّ ولكنَّه سيستغرق وقتًا.

غادة لا تحزني.. الأمر سيُحَلُّ.. سيكون هناك مخرجٌ ولا شكَّ، واللهِ سيُحلُّ وستوافق أمي، تلك المرةَ جاءت لي تتحدث، وفي المرةِ المقبلةِ ستوافق وتقول لي تزوجها، بل ستحبُّك كثيرًا لأنك مني، أيضًا عدمُ تحركي دونَ إذنِها سيكون له تأثيرٌ، فقط ضيقي بما حدثَ لأني أطمح أن أُنهيَ الأمرَ أفضلَ من ذلك...!

حدثتُكِ بالأمس عن مناقصةٍ دخلتُها مع المحافظةِ لوضعِ التصميمات الإنشائيةِ لمجمعٍ سكنيٍّ جديدٍ، وفزت بها.. اسمُ صادق باشا جواز مروري، لا أعرف أأفرحُ أم أبكي..؟ولكنَّ الأمرَ برُمَّتِه لم يضايقني على الإطلاقِ، وسأجيء الخميسَ لأنظرَ إليك وأروي بعضَ عطشي..وحشتيني يا غادة ووحشتني قصر الدوبارة كثيرًا .

المفترض بي ألَّا أفرحَ بهذا الحديثِ.. أمُّه لاتزال ترفض.. حديثُه عن المستقبلِ متناقضٌ لا يوجد في حديثِ أُمِّه ما يجعلُه يُقسِم أنَّ الأمرَ سَيُحَلُّ..! هل كان يُطمئِنُ نفسَه أم يُطمئِنُني..؟ أم أنَّ يقينَه بالرفضِ جعله يُهلوس..!

الغريبُ هو أني فرحت بكلِّ حرف، قرأتُ كلماتِه أكثرَ من مرةٍ، شممت رائحةَ الورقِ كثيرًا منذ أن جاءني به مندوبُ البريدِ قبلَ أن أستقلَّ"تاكسي" لأعودَ للبلدِ وكأولِ جوابٍ قرأتُه في القطارِ،ولكنَّ تلك المرةَ لم يكن الفضولُ هودافعي؛ بل أعلم أنَّ"يوسف" حبيبي هو من يكتب..!

جوابُه يعني لي الكثيرَ، لا أكترث للمكالماتِ الهاتفيةِ المعتادة، أشعر معها بفتورٍ، هي فقط لمعرفةِ يومِه، رغم أني حدثته منذ ساعةٍ،ولكنَّ الورقَ يعني أنه يحدثني أنا، الحروفُ هي همزةُ الوصلِ بيننا، يتكلم من قلبه فأستمع له، هذا الجوابُ حمل لي أكثرَ من ذلك منذ أن استلمته، الطمأنينة..فمنذ أسبوعين وأنا لم أرَه، شعرت بالفزعِ والخوفِ والوحدةِ بدونه، حاولت أن أعودَ كما كنت قبل أن ألتقيَه، لكن من يُخرجُه من قلبي الذي سكنه، عقلي الذي سيطر عليه، من يُخلِّصُني من لمسةِ يدِه التي صِرتُ أتحسَّسُها في غيابه، بدت الحياةُ بدونِه أمرًا مستحيلًا، وظهرلي سخافةُ ما أحاول القيامَ به، غيابُه بسببِ العملِ أمرٌلم أغفره، المكتب لا يأخذك مني، أنت مسئولٌ عن روحٍ أخرى تهواك الآن، كلُّ شيءٍ يذهب إلا وجهَك..!

هل تُدرك أُمه كلَّ هذا، هل تفكرفي اشتياقي لولدِها، ولدُها الذي أنجبتُه كي يمتلك قلبي، هل تعلم أنها لاتتحكم في زواجِه بل في روحي، أنَّ الأمرَأعمقُ من فرحٍ وأفكارٍوبيتٍ وعائلةٍ، أنَّ هناك نفسًا تسعدُ بلقاءِ"يوسف" وتشقى بدونِه، ماذا سأفعل لو رفض وأصرَّت على ذلك..؟ فكرتُ في لحظةٍ أن أظلَّ بجوارِه هكذا دونَ زواجٍ، يكفي حبُّنا لنكونَ سعداء، ولكن عدلت عن هذا، كان مُمكنًا لو كنتُ بنتًا.. فكانوا سيقولون: علاقة طيش بين اثنين أو حبَّ مراهقة أو حتى حب أفلاطوني في كل الأحوال..!

أما وجودي كأرملةٍ يعني شيئًا واحدًا أن ما يجمعُنا الجنسُ فقط ، نعم الأرملة ممنوعةٌ من الحبِّ والزواجِ في آنٍ واحد، ماذا لو يقترحون أنْ يتخلَّصوا منَّا، هؤلاء الذين برَّرُوا النصوصَ الدينيةَ وَفْقَ أهوائهم لن يغلبوا، فليبحثوا عن نصٍّ يُأوِّلوه لقتلِ الزوجةِ إذا مات زوجُها، آااه يا الله أين رحمتُك، سأحيا بالأملِ لأنَّه عندك لا تموت الآمال .

صافرةُ القطارِ أنهتِ الأفكارَ في داخلي.."يوسف" معي.. يكتب لي وهو في بيته، لهبُ حروفِه لم يَخْمُد بعدُ، ورائحةُ الحبِّ تملؤها حتى لو كان الكلامُ حزينًا..!

أمام القطارِ وقف "عبد اللاه" كعادته مبتسمًا، أنيقًا كأنه على موعدٍ غراميٍّ، أخبرني قبل ذلك أنه يرتدي أحسنَ ثيابِه حين يستقبلُني كي يكونَ جديرًا بي.. أنا..؟! آآآه ليته يعلم أنه جديرٌ بكلِّ شيءٍ عظيم...!

- حمد الله على السلامة.

- الله يسلمك يا بابا.

- كويس إنك مغيبتيش المرة دي.

- إيه أمي قلقانه برضه.

- لا بس وحشتيني.

- وأنت كمان أوي.

قبّلتُ يده، وحمل الحقيبةَ وسرنا معًا، ذلك المشوارَالذي لا نركب له أيَّ شيء، أستمتع أنا بالسيرِ بين الزرعِ ويفخر وهو يسير بجواري، الأمرُ بالنسبةِ له أشبهَ بلحظاتِ استعراضٍ..! يريد الجميعُ أن يرى ابنتَه التي تتعلم وتكتبُ في الصحافةِ والسياسةِ كما يُردِّد.. ضحكتُه لا تفارقُه معي، يتعمد السلامَ على البعض، يقف أحيانًا يصافح صديقًا..

- دي بقى يا سيدي غادة اللي مصيتاني في كلّ جورنال وخلّت اسمي في الجرايد..

كلماتٌ يقولُها بين الحين والآخرِ..يجيئه الردُّ على شاكلةِ: صبرت ونلت، أو ربنا يفرحك بيها،؛حتى شعرت في بعضِ الأوقاتِ أنه يريد أن يُثبت للجميعِ أنَّ ابنتَه ليست مكسورةَ الجناح.. صحيح هي أرملة لكن علمها معها..

"إيش تفهم انت في الكلام ده" قالها بلهجةٍ عفويةٍ لعاملِ المطعمِ الذي أصرَّعلى أن يرى ما أكتبُه فأخرجتُ من حقيبتي آخرَ الدورياتِ السياسيةِ التي أشترك فيها .

وفي وسطِ هذا الصخبِ لم أتحدث عن شيءٍ، وتلك هي المرةُ الأولى التي أصمتُ في حضرته، ففي المرةِ الماضيةِ أردت أن أتكلَّمَ فكان جاهزًا للإنصاتِ، تلك المرةُ لا أريد الحديثَ فأسرعنا إلى البيتِ، نعم لا أريد الحديثَ، بالتحديدِ عن يوسف، لا أعلم لماذا جئت إلى البلدِ، غيبتي لم تَطُل، باستطاعتي أن أجلس في القاهرةِ أكثر، الأسئلةُ هنا جاهزة، عملتي إيه، يوسف هيجي إمتى، في حاجة حصلت، خِلي بيكي، هل أُواجهُهم بالحقيقة..؟ ولما أمه رفضاكي هتعيشي معاها إزاي..؟إجابةٌ منتظرة، وأسئلةٌ كلُّ كلمةٍ منها تجلدني، تخترق قلبي، تُصيبُني بصداع، نظراتُ أُمِّي، قلق أبي، حيرةُ أخي، لم يكن لديَّ أيُّ جوابٍ لكلّ ذلك،ولكني أردت الذهابَ إليهم، الاحتماءَ بهم، بعضَ الطمأنينةِ في ظلّ الخوفِ الذي يتملكني، أردت أن أشعر أنَّ لي أحدًا غيرَيوسف، رغم عبثِ المحاولةِ لكن ثمَّةَ شيءٌ في داخلي دفعني إلى ذلك، إلى القدومِ لِ"أبي قرقاص" إحساسٌ قادني إلى هنا، حجرتي..دولابي.. السلمة المكسورة، ربما أردت التأكُّدَ أنَّ لي ملجأً أخيرًا، أن أجلسَ مع نفسي كثيرًا، أنعزل حتى أُلْمِمَ شتاتَ روحي .

وصلت البيت، أُمي تغيرت كثيرًا خلال الفترةِ الماضية، بالتحديدِ منذ أن قرأتِ اسمي في أولِ بحثٍ أنجزتُه في الأهرامِ ونُشر في جريدةِ السياسةِ الدولية، رغم عملي في بعضِ المواقعِ الالكترونيةِ لكنها لم تقتنع إلا بالورقِ، وقتها شعرت أنه يمكن أن يكونَ لي فائدةٌ، أقدرها على كلّ الألسنةِ التي انتقدت وجودي في مصر: شغالة دكتورة قد الدنيا وبتكتب في المجلات، الأمرُ قد يبدوا في القاهرةِ عاديًا لكن في "أبي قرقاص" حيث البيئةُ الصعيديةُ يصبح له قيمته .

منذ أشهرلم تعد تغضب مني بسبب إقامتي في القاهرة..وها قد عاد لها القلقُ فقط منذ أنْ أخبرتُها بيوسف، ولم يكن هذا القلقُ الذي اعتادت أن تُخرِجَه في صورةِ صرخاتٍ في وجهي، بل قلقٌ أكبرُ جعلها تصمت طوالَ الفترةِ الماضيةِ وإن كانت عيناها تقولانِ الكثير.

استقبلتني هادئةً بحضنٍ لم يستغرق بضعَ ثوانٍ، نظرتُ إلى وجهِها وحضنتُها مرةً أخرى قبل أن تقول حمدًا لله على السلامة .

"سالي" ضاحكةً أقبلت تحتضنني ..و"مالك"احتضنني هو الآخر وقد اشتدَّ ساعدُه كثيرًا، يكبر كلَّ شهرٍ تقريبًا، أحسست برجولتِه تحتويني، ساعداه اللذانِ ظهرت فيهما العروقُ أوحت لي بالأمان، هناك ظِلٌّ لعبد اللاه، رجلٌ يحمل اسمَه حتى لو لم يكتب على صفحاتِ الجرائد .

كلُّ شيءٍ بدا عاديًا، فقط أُمي التي جاءتني بعد ساعتين تسألُني عن أحوالي مرةً أخرى، فهمتُ ماذا تريد منذ أن طرقتُ البابَ، منذ أن جاء صوتُها بعيدًا حاملًا اسمي، استجمعت قواي وحاولتُ أن أُفكرَ في شيءٍ غيرِ أمّ"يوسف" التي أضحت كابوسًا يطاردني حتى خُيِّل لي أنني أكرهُها رغم عدمِ معرفتي بها، جاءتني أُمِّي تسأل عن أحوالي لتتولَّى عيناها الأسئلةَ التي أنتظرها، واريتُ عيني عنها ففهمت أني لا أريد الحديثَ عمَّا تنتوي قولَه، زاد قلقُها أكثرَ وإن آثرتِ الصمتَ بقولِها: طيب انا تحت لو عاوزة حاجة، صحيح ربيع هيجي يتعشى معانا أنا عزمته عريس بقى ولازم نعمل معاه الواجب .

حمدت الله أنها آثرت الصمتَ، فلم أكُ مستعدةً لشيءٍ، أنا هنا أساسًا للهروبِ من الأسئلةِ .

على طبليةٍ صغيرةٍ جلسنا جميعًا يتوسطُنا "عبداللاه" وعن يميني "ربيع" تحولت الجلسةُ كلُّها إلى أسئلةٍ عن موعدِ زواجِه..الشقةِ..الفرحِ.. أُمي تتنهد: بقالنا كتير مفرحناش..ثمَّ تنظر إليَّ فتقفُ اللقمةُ في حلقي، أحاول جاهدةً أن أبتلعَها مع الحفاظِ على هدوئي، واندمجت في الحديثِ مع "ربيع" للهروبِ من تلك الأمورِ رغم أنني أعرف كلَّ شيءٍ عنه منذ أن ذهب إلى بيتِ"نورهان" يطلب يدها، أخبرني أنها زغردت قبلَ أن ينطقَ أبوها لتقطعَ خطَّ الرجعةِ، فرِحَتْ كثيرًا بذلك الخبرِ، هذا الأمرُ أعادَ"ربيع" إلى الحياةِ، وأنهى سنواتٍ انتظرها وأنهينا نحن طعامَنا وغادرَنَا الجميعُ فخرجنا حيث الشجرةُ..

- برضه مقلتلهمش؟

- لا طبعا..دنا ما صدقت وافقوا.

- وآخرتها؟

- يمكن تتحل لوحدها.

- علشان كده خالتي كانت شغالة تلقيح؟

- تخيل بقى لو قلتلها، وكمان المشكلة هتكبر ممكن يرفضوا حتى لو أم يوسف وافقت..!

- إنتي فعلا مش عاوزة تشركيهم علشان مش عاوزاها تكبر، ولا عارفة إنها مش هتتحل فبالمرة تقوليلهم مرة واحدة.

- مش عارفة يا ربيع ، بس خايفة، جيت هنا هربانة، لأول مرة أهرب ليهم وأحس إنهم السند وفي نفس الوقت مش عاوزة أقولهم حاجة، ولا عاوزة أسئلة، نفسي أفضل كده على الأقل في الوقت ده

- لازم تقوليلهم دول أهلك.

- عارفة، وحاسه بتأنيب ضمير، أسئلة أمي اللي ملهاش عندي جواب، قلق عبداللاه اللى مخبيه وراه ابتسامته، لأول مرة يحس أن بنته مخبية عليه حاجة، قلقه عامل إزاي دلوقتي، قبل ما نخرج من البيت كان بيتابعنا بعنيه، عارف أن خروجنا للمكان ده وراه سر كبير، بنته مش هتقولهوله، بس صدقني أنا أضعف من إني أواجه أي حد وأعجز عن الإجابة على أي سؤال.

- ويوسف؟

- لسه باعتلي جواب، أمه رافضة بس هو مصمم على موقفه.

- أنا قلتلك رأي وياريت متسيبهمش في حيرتهم كده.

- ربنا يحلّها من عنده.

- هتسافري امتى؟

- بعد بكره.

- يا بنتي إنتي لحقتي؟

- كفاية يومين.

- وهتشوفي نورهان؟

- إيه محتاج تعرفني عليها، يا بني دنا وهي كنا بنم عليك بالساعات.

- بس مجيتيش فرحي.

- عندك حق تزعل بس نت عارف كنت في مؤتمر في الإسكندرية وكمان محدش يعزم حد قبلها بيوم مع إني بنرغي يوميًا.

- حبيت أعملهالك مفاجئة.

- فالح.

- يا ستي تتعوض في الفرح.

❊ ❊ ❊

"وكنتُ أعرف في أعماقي أني لا أستحقكِ ليس لأنني لا أستطيعُ أن أعطيكِ حبات عيني ولكن لأنني لن أستطيعَ الاحتفاظ بكِ إلى الأبد"

غسان كنفاني

(خسارة مش تضحية)

- لما قالولي حد صاحبك من الإمارات أول واحد جِه في بالي أنت.
- يعني ليك صحاب غيري؟
- نادر، بالحضن يا صاحبي، واحشني جدا ووحشتني أيامك.
- وأنت كمان.
- أخبارك إيه؟، وأخبار الإمارات والشغل ونزلت امتى وعرفت العنوان إزاي؟
- تمام والحمد لله، أما الإمارات زي ما هي يا سيدي وإن كان الحال ملطش شوية هناك مع المصريين وبدئوا يرحلوا ناس حاجة تقطع القلب، ونزلت من أسبوع.
- ألف حمد الله على السلامة.
- الله يسلمك، هكتب كتابي الأسبوع الجاي وقلت مينفعش متكونش حاضر.
- بجد، يا ألف نهار أبيض ونويت تقعد في البلد ولا في القاهرة؟
- لا دي ولا دي.
- أمال إيه؟
- هاخدها وأسافر الإمارات، ظبط كل حاجة هناك.
- وبلدك؟
- بلدي اللي فيها أكل عيشي يا صاحبي.
- ربنا يتمملك بخير.
- بس أنت طلعت ابن باشا بصحيح.
- لا هو أنت كنت شاكك؟
- قلت غني وأبوه معاه قرشين لكن باشا دي مدخلتش دماغي بصراحة.
- ههههه لا يا سيدي هو كده، وقبل بقى ما نتكلم تيجي تاكل معايا لقمة في البيت والله العظيم ما هتجادل حتى.

- لا مش هجادل وحشني آكل معاك، من يوم ما سافرت وأنا عايش لوحدي.

- أهي بكره تيجي فاطمة وتملهالك نور.

سرنًا معًا من المكتبِ حتى البيتِ.. احتضنته كثيرًا طوالَ الطريق، كلَّما نظرت في وجهِه وتذكرت شيئًا قديمًا بيننا، يفهم ما أقصده، عشرة الرجال غالية، ونادر قدَّمَ لي أكثرَ من ذلك، تحمَّل كوابيسي وقلقي وغضبي، شطحاتي، احتواني ، واحتواءُ الرجلِ لرجلٍ شيءٌ نادرُ الحدوثِ عظيمُ الأجرِ..!

ثمَّةَ شيءٌ قفز إلى ذهني فجأةً بمجرد أن رأيتُه يقبل عليَّ في المكتب، هو صديقي الأولُ والوحيدُ، هل يُعقل هذا..؟! طوالَ حياتي فشلت في أنْ يكونَ لي صديقٌ، رجلٌ أُكلِّمه فيفهمُ شعوري، يُدرك أني أريد البكاءَ لولا الإحساسُ بأني أقوى من ذلك بكثير.

الله يرحمه صادق باشا لم يمنعني من مصاحبةِ أحدٍ، لكن وجودُ اسمِه وراءَ اسمي كفيلٌ بوضعِ حواجزَ كثيرةٍ، فالأطفالُ في المدرسةِ يبعدون واحدًا تلوَ الآخرِ، أنا الآخرُ لا أكترثُ بذلك، وكنتُ أتعجل انتهاءَ الحصصِ من أجلِ العودةِ إلى أمي، الوجهِ الذي أشتاقُ إليه، حتى حين وصلتُ للجامعةِ وسافرتُ للخارجِ لم تكن الصداقةُ تعني لي شيئًا، لم أُفكِّر بها من قبل، ولم يكن لديَّ ما أُريد قولَه.

الآن أحتاج لِ"نادر" أحكي له مشكلتي، ينصحُني وهو يعرفُني كما يعرف أصابعَ يديه، ماذا أفعل مع غادة، فأنا رجلٌ بين نارين - نارِ حبيبتِه التي وجدها بمحضِ الصدفةِ، ونارِ أُمِّه التي تعرف ويعرف هو أنه لا سبيلَ لمعارضتِها حتى لو سلبته حياتَه - خوفِه من رحيلِ"غادة" وعودةِ الكوابيس، وفزعِه من فكرةِ التصرفِ ضد إرادةِ"فردوس"..!

شعر بي والأفكارُ تدور داخلي:

- مسألتنيش عن تمارا يعني..؟

- وهسألك ليه يعني؟

- ماشي يا عم، عمومًا هي كويسة أوي وصاحبت نص شباب الشارقة بعدك.

- هههههه..مش دي الي أنت قلتلي متجرحهاش.

- ما أنت مكنتش مرسيني على حاجة.

- يلا أهي أيام.

- بس أنت متغير، في حاجة شغلاك، إيه اللي خلاك تعمل مكتبك في بلدك مش دي البلد اللي مكنتش بتطيق تقعد فيها ودايمًا مقيم في القاهرة ، ولا الحاجة بقى.

- لا غادة.

- غادة مين؟

- هقولك بعد العشا.

- بتاعت الكنيسة؟!

- آه هي.

- كان قلبي حاسس مش هتهدي إلا لما تعرفها.

- الموضوع أكبر من كده.

- إيه؟

- جواز.

- جواز..؟! باين الموضوع كبير فعلًا.

انتهينا من الغداءِ وجلسنا لأحكيَ له كلَّ شيءٍ، بدايةً من أولِ جوابٍ سلمنيه القسُّ"بولس" وصولًا إلى رفضِ"فردوس" أخبرته كيف اخترقتني "غادة"..! مدى حبي لها.. تسكُّعُنا في شوارعِ وسطِ البلد، الأوبرا، برج القاهرة، الأهرامات ، حاولت أن أصفَ له كيف يكون شكلُها في حضرةِ المزمورِ الخمسين.. لكنني فشلت؛فَ"نادر" مسلمٌ اصلًا ولا يعرف ما المزمورُ الخمسين.

هي يا صديقي من رفضني الموتُ لأجلِها، ولكنَّ أُمِّي ترفضُ، وأَصدُقُكَ القولَ: لن توافقَ.. أعرفُها جيدًا ما كانت لترفضَ لي طلبًا،ولكن إن فعلتْ فلا تتراجع، أقسى من "صادق باشا" الذي كان يتراجع دومًا أمام دموعي، لو أعرف أنَّ دموعي ستحرِّكُها لبكيتُ كثيرًا، أُمسك يدَها كطفلٍ صغيرٍ وأطلبُ أن تُلبِّي رغبتي لكنَّ هذا لن يحدث .

- وأنت هتعمل إيه..؟

- لا أدرى..أنا لن أستطيع عصيانَها، رغم كلِّ شيءٍ،ولن أتزوَّجَ من "غادة" دون موافقتِها المستحيلةِ، هي لا تدرك ذلك، تتوقع رحيلي عنها وإن كان ذلك لا يثنِها عن موقفِها لكني لا أريد خسارتَها، من قبلُ

مات أبي دون أن أسامحَه أو حتى يطلب مني ذلك، ورغم كلِّ ما فعله فقد سامحتُه وترحمتُ عليه بعدها في سرِّي، زرتُه حيثُ يرقد وأشهدتُ اللّهَ إني سامحته، هذا أبي الذي فعل كلَّما فعلَ، فكيف لي بخسارةِ"فردوس"..؟! أحتاجها.. أريد الاحتماءَ بها ولا أحتمل أن أعيشَ هادئًا بدونها، من سيدخل بيتي، يداعبُ أولادي، ينصحني إن أغضبتُ زوجتي ويُعلِّمُني كيف أحتوى امرأتي..؟! أنا أيضًا أشتاق لفرحةٍ لا لعذاب،يكفيني ما عانيته طوالَ سنواتي الحزينةِ؛فلن أعيشَ يتيمًا وأنا أعرف أنَّ لي أُمًّاً على قيدِ الحياةِ، لستُ قدرِ احتمالِ هذا النوعِ من العذابِ اليوميِّ، ولستُ على قدرِ احتمالِ تركِ"غادة" التي أحبتني وأحببتها، أعطيتها كلمتي كرجل.. نعم: لأولِ مرةٍ أعدُ ولا بدَّ أن أفيَ بالوعد.

أفرغتُ كلَّ ما في صدري.. الكلامَ الذي لم أقُلْه لأحدٍ..

(السكوتُ سيدُ الموقفِ ربما يحاول "نادر" إيجادَ مخرجٍ، أو أنه يحوال أن ينتقيَ كلماتِه، ولكنَّ تلك المواقفَ ليس لها مخرجٌمن غيرِ التعمُّقِ في التفكيرِ)

- الوقت هيحلها وجايز كل حاجة تتغير

عبثًا يحاول أن يقنعني بجوازِ تغييرِ رأيِ"فردوس"ولكنني أبحثُ عن إجابةٍ، عن دليلٍ يمكن أنْ أهتديَ إليه، رجلٍ يُحدِّثُني بأنَّه لو كانَ في موضعي فماذا كان ليفعل..؟

- ولو متحلتش يا صاحبي؟

....

- مش قلتلك مسدودة.

- اللي فيها طريقين عمرها ما تبقى مسدودة، هناخد طريق ونسيب التاني.

- قصدك هخسر التاني.

- بدل وقفتك ديه اللي هتخسرك الأتنين.

- ومين اللي هخسره؟

- غادة.

- نعم؟

- اللي سمعته.

- أنت اللي بتقول كده، دنا لسه فاكر كلمتك المهم لما يجي الحب تعرف تضحي علشان حبيبتك.

- أمك مش تضحية.

- ولا غادة تضحية.

- مش قصدي، بس صدقني امك مش تضحية، مش حاجة هتتخلي عنها بسهولة، أنت نفسك لسه قايل إنك محتاجها ولو مش محتاجها لنفسك صونها علشان خاطر ربنا ده موصينا عليهم ومتجرحش قلبها.

- وأجرح قلب غادة صح؟

- مش بمزاجك أنت كمان هتتعذب زيها وأكتر لكن ده جزء من عذابك لو سبت أمك، بص حواليك تعرف مين غيرك تتسند عليه، يصونها في أيامها الأخيرة ربنا يديها طولة العمر، شقى عمرها هيسيبها في الوقت اللي محتجاله فيه، البطن اللي شالت وربت متستاهلش كده، أنت ابن أصول وأمك بنت أصول مينفعش يا صاحبي وإن كان على الحب يا سيدي ياما في الحب مظاليم

- مش هقدر أبان صغير في عينها.

- أحسن ما أمك تتقهر، ثم أنت فكرت في كده بس محتاج تعرف أنت صح ولا غلط لكن في حاجات مفهاش صح وغلط في هتكسب مين وتخسر مين.

- أنت لو مكاني؟

- مقاطعًا :هختار أمي يا يوسف.

أنهينا النقاشَ، تركني "نادر" أُفكر في اقتراحِه، لا لم أُفكر.. في الحقيقةِ لم أستطع أن أفعلَها، فكرتُ في "فردوس" وهي تجيءُ وتذهب أمامي، ذكرياتي معها وأنا صغيرٌ، شغفي برؤيةِ وجهِها الضحوكِ، صدرِها الذي ضمَّني كثيرًا وهدَّأَ من روعي وأنا في أشدِّ حالاتِ غضبي، موافقتها على كلِّ ما أريد، ابتسامتها التي ترتسم على وجهها، أشياءَ كثيرةٍ وكثيرةٍ تطعنُني في القلبِ كلَّما فكرت في هجرانها، هل ثمَّةَ أُمٌّ مثلها، غيرها على هذا الكوكبِ، يا عدرا ما قدرةٌ لي على هذا العذابِ، لماذا لا تُقنعها بالموافقةِ رحمةً بي ، ثمَّةَ أشياءُ كثيرةٌ بداخلي أفقدتني القدرةَ على الحركةِ والثباتِ في آنٍ واحدٍ..!

"إنَّ شراستَك كلها إنما هي لإخفاءِ قلبٍ هشٍّ"

غسان كنفاني

(لعنة الـ"أنا" . .)

أحكمتُ حقيبتي.. هادئةٌ تلك المرةَ بل ولن أقبلَ بالمواجهةِ، ساعتين وأُصبح في القاهرةِ ومنها إلى "فرنسا" حيث أريد، تبقَّى مبلغٌ لا بأسَ به من المالِ حتى يُرسلوا لي نصيبي أو على الأقلِّ ما يكفيني كمليونيرة لسنواتٍ مقبلةٍ، ما أملكه أكبرُ من ذلك بكثيرٍ، تركةُ "صادق باشا تعدت الـ ٥٠ مليون دولار غير الأراضي والقصر، السرقةُ تجارةٌ مثمرةٌ طوال حياتِه القذرة.

دقائقُ وسأفتح البابَ..في الخارجِ "فردوس" تجلس في الحديقةِ مكانَها المفضَّلَ في ذلك الوقتِ أما "يوسف" فهناك في الركنِ بعيدًا عن الصالةِ يُفكِّرُ ماذا سيفعلُ مع "غادة" التي أحبَّته لكنه أجبنُ من أن يكونَ عاشقًا، سيجتمعون ولا شكَّ، نظراتُهم ستسبق ألسنتَهم، تعبِّرُ "فردوس" عن غضبِها المعتادِ، يستخدم "يوسف" حيلتَه الهادئةَ في إقناعي بالمكوثِ، عبثًا كلُّ محاولاتهم..سبق السيفُ العزل، كلُّ شيءٍ تمَّ وهناك طائرةٌ ستُخرِجني من كلِّ هذا، تنقذني من هذا البيتِ الأنانيِّ بامتياز، قرأت كثيرًا عن أبٍ أنانيٍّ..وأُمٍّ ترى نفسَها..وأخٍ مزهوٍّ بنفسِه، لكني ما قرأت عن عائلةٍ كاملةٍ تتخذ من هذا الطريقِ دينًا، صادق باشا الذي جمع تلك الأموالَ لا يفكر إلا في نفسِه حتى تاجر بابنِه، فردوس هي الأخرى لا تكترث إلا بذاتِها، في الحقيقة هي تليقُ بصادق باشا لولا أنه أصدق فعرف قدرَه، أما هي فعاشت دورَ القديسةِ، لا ملائكةَ في هذا القصر، فرحتُها أهمُّ بكثيرٍ من تحقيقِ حلمِ ابنِها الساذجِ الذي لن يتزوجَ من وعدَها بعظمةِ لسانِه بأنه سيفعل، جميعُهم ينكرون ذلك، يتذرعون بالحبِّ لأخفاءِ خطاياهم، يُدنِّسون أطهرَ المعاني كالتضحيةِ والحنينِ والخوفِ عليك لتبرير رغباتِهم في امتلاكك، هذا بيتٌ تسكنُه لعنةُ الـ"أنا" حتى أنا لم أَسلم من ذلك، وأصبحت لا أُفكِّرُ إلا في نفسي.. وأخشى أن أقولَ إنهم من دفعوني لذلك فأكرر تبريراتِهم لذلك سأغادر..أبحث عمَّن أرتمي في أحضانِهم حتى ولو كانت أحضانًا موحشةً، يكفيني أن يقولوا ما يضمرونه فقط أريد أناسًا واضحين يعترفون بأنهم بشرٌ يخطئون، يدركون أنه لا ملائكةَ على تلك الأرضِ، لا يحاولون تجميلَ واقعِهم القبيحِ؛ فهؤلا أكثرُ نقاءً من غيرِهم، بقائي هنا هو الموتُ ذاتُه، كلَّ يومٍ أشعر أنَّ هناك ما أفقده، أنظر إلى وجوهِهم فأتقيَّأ، أسمع أحاديثَهم التي لا أشترك فيها فأصابَ بخيبةِ أمل، سجينةُ جدرانٍ أربعٍ وعائلةٍ لا ترى في سجنِها إلا حياة، لن أكترثَ

بما سيقولونه حتى لو علا صراخُهم، لو فكَّر أحدُهم باستخدامِ قوتِه سأكون الأقوى، أنا أشرفُ منهم..فعلى الأقلِّ أحاول أن أنجُوَ من تلك اللعنةِ التي سكنتهم وأصبحوا أسراها .

بهدوءٍ وثباتٍ أدرت المفتاحَ ليُعلَنَ عن فتحِ البابِ وبدءِ المواجهةِ في آنٍ واحد، هادئةً أخطو متَّزنةً.. أبتلع ريقي بكلِّ أريحيةٍ وأعصابُ يدي لا تنتفض، كيف وصلت إلى كلِّ هذا لا أعرف..؟!

أولُ من لاحظني بمجردِ اقترابي من سلالمِ القصرِ الكبيرِ يوسف، انتبه من شرودِه ناظرًا إليَّ.. لم تكن قد اكتملت الصورةُ بعد.. ثوانٍ حتى ظهرت حقيبتي فقام من مقعدِه مقبلًا، أوقفتْه نظراتي الحادَّةُ التي يتطاير منها الشررُ، كلُّ هذا الثباتِ لم يكن إلا مقدمةً لم أعرف نتيجتَها إلى الآن..تسمَّر مكانه لثوانٍ وأنا أجيب كلَّ تساؤلاته دونَ أن أنبِس ببنتِ شفةٍ، الأكبرُ من ذلك إنه أدرك أني لن أتراجع عمَّا انتويته، لم يثبت أمام ذلك كله، غيَّرَ مسارَ نظرِه ربما لأنه بات يدرك ضعفَه أولأنه رأى فيَّ"غادة" التي ستقف يومًا ما تنظر له بعينين يسكنهما الخيبةُ والخذلانُ

حاول أن يتخطَّى كلَّ ذلك، بخطواتٍ متباطئةٍ وصوتٍ هادئٍ

- انت رايحة فين؟

- مسافرة.

- فين؟

- فرنسا.

- كده منك لنفسك من غير ما تقولي لحد؟

- قلتلك قبل كده.

- أيوا بس اتفقنا انك تقعدي هنا وكل حاجة ممكن تعمليها.

- مش عاوزة اقعد هنا..انا بموت في البيت ده.

كلُّ كلمةٍ يتمنَّى هو قولَها..الصراخَ بها..لو يملك أن يصعدَ إلى غرفتِه ليحملَ حقيبته ويلحقَ بي لفعلَ، وتقف "فردوس" مذهولةً تراقب الحوارَ عن بُعدِ خطوتين، بالطبعِ لم تكن تتخيل أنَّ هُنا من يقدرُ على أن يأخذَ قرارًادون الرجوعِ لأحدٍ في هذا البيت، حالتي أفضلُ بكثيرٍ؛وهي لا تملك حُجَّةَ الحبِّ التي تطوّقُ بها يوسف، تعرف أني لن أصدِّقَها وأعرف أنها لن تقولَ ذلك..

- هتقعدي فين ومعاكي فلوس؟

- معايا مبلغ وهستني تحولي نصيبي.

- نصيبك..؟!

- ايوه نصيبي في تركة بابا أو على الاقل مبلغ اقدر أعيش بيه حياتي مليونيرة.

قلتُها بنبرةٍ تشير إلى أنَّ الأمرَ ليس له علاقةٌ بالدراسةِ أو السفرِ، وإنما فراقٌ لهم..للبيتِ..لعائلةِ..لعزبة صادق باشا..فراقُ نهال لنهال..!

- وأمك هتسيبها لوحدها..؟

- أمي تقدر تعيش من غير أي حد إلا أنت وانت موجود.

"فردوس" تتابع الحوارَ..تسمع ما أقول..لم تتدخل ولم ألتفت إليها، ثمّةَ شيءٌ بيننا يجعلُنا نحترمُ لحظةَ القرارِ، قد تكون فوجئت من أسئلة "يوسف" العاجزةِ عن منعي، هدوئِه غيرِ المبررِ في موقفٍ مثل هذا، قوتي أمام ضعفِه؛ما يعني أنَّ هناك اختلالًا، هي تظن ذلك خداعًا، لكنها الحقيقة..ابنُها لا يستطيع أن يقررَ شيئًا.. لا يمتلك زمامَ أمرِه، في الماضي كنتُ أعذرُه، طفلٌ مدللٌ وشابٌّ ثريٌّ ولكن بعد حادثتِه، مصارعتِه للموتِ، تغرُّبِه في البلادِ، حبِّه لامرأةٍ ووعدِه لها، ظننتُه بات رجلًا..

- ياريت انت كمان تفكر في نفسك وف غادة، أصعب حاجة توعد ست وتخلف وعدك.. حاول مرة واحدة تمشي ورا اللى انت عاوزه.

- خرجت كلماتي وأنا أُفسح الطريقَ لنفسي ناحيةَ البابِ، وفردوسُ مازلت تراقب، تنظر إليَّ بعينٍ غاضبةٍ ربما بسببِ رحيلي أو ما قلتُه عن غادة،فقد طعنتُها في الخلف: مالي ومال غادة.. لعلها قالت ذلك لنفسِها، أو خشيت أن يقولَ أحدٌ لابنِها ما يعرفُه الجميع.. تلتفت إلى"يوسف" بعينٍ متسائلةٍ ومتجاهلةٍ ما قلته عن "غادة" خشيةَ أن يُقِرَّ ابنُها ذلك، هل ينتهي الأمرُ هكذا، أتجعلها تفعلُ ما تريد بتلك البساطةِ، تترك أُختَك..؟ لو كان "صادق باشا" لما أمكنَها الحديث، هي لا تعرف ماذا يعتري هذا الشابَّ الواقفَ أمامها، ماذا يتمناه، سرَّ صمتِه في اللحظةِ التي يفترض أن تظهر فيها قوتُه، لم تدرك أنَّ مُدلَّلَها أصبح بناءً هشًّا لا يُخفي وراءه سوى شروخٍ قابلةٍ للانهيارِ في أيِّ لحظةٍ .

لم أكن أقصد بكلماتي إهانتَه، فقط أريدُه أنْ ينتبه إلى حالِه، ربما كلماتي في مثلِ هذا الموقفِ تجعله ينظر إلى نفسِه جيدًا.. إلى حبيبتِه التي تنتظره رجلًا، لا يعرف هو معني أن تنتظرَك امرأةٌ وعدتَها بأنك لها، احتماءها بك وايمانَها أنك الأفضل، يقينَها أنك القادمُ لانتشالِها من وحدتها، لم أتدخل طوالَ الفترةِ الماضيةِ، لكني عرفت أكثرَ مما ينبغي، راقبتُ الأمرَ عن بُعدٍ، دعوتُ اللهَ أن تأتيَ تلك اللحظةُ التي يغادر فيها البيتَ ليلحقَ بغادة رجلًا في كاملِ رجولتِه..! لكنَّه لم يفعل، خذلها وخذلني قبلها، أنا أولُ من تلقَّيْتُ تلك الضربةَ، طعنتني في قلبي الذي رأى ضوءاً في آخرِ النفقِ، طوالَ عمري أعرف أنَّ لي أخًا يكبرني ويحميني تحت أيّ ظرفٍ، مهما كانت العلاقاتُ، رغم تمرُّدي الظاهرِ دومًا لكني أدرك أنه السندُ، ضعفُه أمام أبيه وأُمه شيءٌ يُحترَمُ عليه، لكن الآن عرفت أنَّ ذلك ليسَ احترامًا بل ضعف .

في المرةِ الأولى طلب مني البقاءَ فبقيت، أنا خائفةٌ من السفرِ.. من العيشِ وحدي في بلادٍ أجهلُها..من الأكلِ وحدي..والنومِ وحدي..ومشاهدةِ التلفازِ وحدي..حتى لو كنت أجلس في هذا القصرِ وحدي..! ولكنني أعلم أنهم بجواري وسينقذونني من أيِّ خطرٍ، ولكن حين فقدت إيماني به قررتُ الرحيلَ، هل يعلم ذلك..هل يعرفُ أنَّ تركي للبيت بسببِه هو..؟! لخوفي من يومٍ أحتاجه فيه فيستأذن "فردوس" أولًا، يتردد في إنقادي حتى توافقَ أُمُّه، لو يدرك الرجلُ معنى أنْ تحتاجَه امرأةٌ تراه سندَها، تحلم به ومعه أبًا وزوجًا، رجلًا رحيمًا عليها رؤوفًا بها غضبُه من أجلِها أو حتى عليها..! لو عرف لَمَا تجرَّأوا أن يتخلَّوا عنا، لافرق بين الأختِ والحبيبةِ والزوجةِ حتى "فردوس" لم يكن وفاؤه لها حُبَّاً قدرَما هو عجزٌ.

كلماتي كانت ليعيدَ حساباته للمرةِ الأخيرةِ قبل أن يترك حبيبتَه.. هو سيفعل ذلك، لن يستطعَ عصيانَ أُمِّه، فخروجُه من عالمِها يعني ضياعَه.. هو لا يفكر فيها كأُمٍّ، علاقتُهما أكبرُ بكثيرٍ، هي كلُّ حياتِه رغم أنَّه سافر وأصبح صاحبَ مكتبٍ لكنه ليس من هذا النوعِ المدللِ إلى درجةٍ تجعلُه لا يتحمَّلُ مصاعبَ الحياةِ لكنَّه لا يتحمَّل غضبَ أُمِّه التي ترفض "غادة" لأنها فقيرةٌ، وسببٌ آخرُ لا يعرفه هو، ولن تبوحَ به "فردوس" لكنِّي أعرف هذا، سمعتُها تتحدَّثُ لعمِّي "صابر" وتقول له: "دي حتى مش من مقامنا عاوز يدخلها تلهف كل فلوسه" أخي مظلومٌ وظالمٌ في نفسِ الوقتِ، تركني أرحل بهدوءٍو"فردوس" تتابعه حتى أغلقت بابَ القصرِ الملعونِ، لم أنظر خلفي، لم أُودِّعْه بنظراتٍ أخيرةٍ، لا أحدَ يُودِّع سجنَه، نظرت للأمام قدرَ استطاعتي، هناك حياةٌ جديدةٌ ستبدأ .

"لم يعد الفراقُ مخيفًا يومَ صار اللقاءُ موجعًا هكذا"

غادة السمان

(حروفُه ملقاةٌ وأنا مثلُها)

حبيبتي غادة

حين يصلُك جوابي هذا بعد ساعتين على الأكثرِ سأكونُ في المكتبِ أتابع عملي، لم أستطع الردَّ عليك بالأمس رغم أني اشتقت لصوتِكِ كثيرًا، وفي الصباحِ لم أستطع أن أُهاتفَكِ، شعرتُ أني أريد التحدثَ معك، تعلمين أنَّ ذلك لن يكونَ إلا من خلال الورقِ، أحضرتُ كلَّ شيءٍ وأجلستُك أمامي، وجهُك يضحك وعيناكِ حزينتان.. أُدرك ذلك.. أنا أيضًا حزينٌ، ولكنَّ الفرقَ في أنَّ وجهي لا يضحك، كلُّ ما فيَّ حزينٌ عدا تلك اللحظةَ التي أنظر فيها إلى وجهِك، تفاعلتِ مع كلِّ كلمةٍ أكتبُها، أنهيت جوابي وأرسلتُه مع "مصطفى الذي أصبح يعرف الكثيرَ عني وعنك، هو مرسالُ الغرام.

لا تحتاجين إلى أن تذكريني بموعدِ زفافِ"أحمد وندى" الأسبوعَ المقبل.. طبعًا سأحضر، اشتريت بدلةً جديدةً لأكونَ جديرًا بِ"غادة" التي سأقف بجوارِها وهي تُودِّع صديقتَها التي ستنتقل إلى بيتِ زوجِها.. يااااه.. أذكر أوَّلَ مرةٍ التقيتُ فيها "ندي" قلِقًا.. مضطربًا.. أعرف تأثيرَها عليك، هي لن تراني بعينيك الحنونةِ.. لن تفهم سرَّ ارتباكي ولن تشعرَ بخفقانِ قلبي.. لا.. ستتفحَّصُني بعينيها..تسجل تفاصيلي ثم تعطيك رأيَها، أخبرتني قبل ذلك اللقاءِ أنها حقوقيةٌ وتهتمُّ بالشأنِ العام.. يا فضيحتي..!! ستعرف صادق باشا بالتأكيد..! ستقول لك الكثيرَ عن الشخص الذي تربَّيتُ في كنفِه وأحملُ اسمَه، ربما ما قالته لك يكفي.

كلُّ تلك الأوهامِ تبددت حين رأيتُها ولمحتُ نظرتَها لكِ التي تبدو كنظرةِ أُمٍّ لا تملك في الدنيا إلا بنتًا هي أنت، أنا الآخرُ ارتحت لها كثيرًا حتى إذا تعرَّفت على "أحمد" في المرةِ الوحيدةِ التي رأيته ازداد حبي لهما .

غدًا سأذهب إلى فرحِ"نادر" أخبرتك عن حضورِه الأسبوعَ الماضي، سيتزوج من"فاطمة" في الشارقةِ.. حين أخبرني لأولِ مرةٍ أنه هنا للزواجِ فوجئتُ، المرةُ الأولى التي أرى فيها من يتغرَّب لأجلِ امرأةٍ، ظننتُهم فقط يسافرون من أجلِ لقمةِ العيشِ،سأحضر فرحَ"نادر" غدًا وأجيء إلى القاهرةِ قبل فرحِ"ندى" بيومين لأراك.

بالأمسِ غادرتْ"نهال" لعلَّه السببُ الأساسيُّ الذي منعني من الردِّ عليكِ، كنت تتصلين في الوقتِ الذي تهمُّ فيه بالرحيلِ، جاءتنا بعينين مصممتين على المغادرةِ..ومن الثانيةِ الأولى أيقنتُ أنها لن تتراجع، وفي اللحظةِ ذاتها قررتُ ألَّا أمنعَها، ففي المرةِ السابقةِ أدركتُ أنَّ هذا اليومَ آت، لماذا..؟ لا أعرف ولماذا بقيَتْ هي ثم رحلتْ لا أعرف أيضًا..! ثمَّةَ شيءٌ غامضٌ فيها.. لو أعرف أنها ستتكلم لعزمتُ عليها في ذلك،ولكنني في النهايةِ لم أستطِع إلا أنْ أُوافقَها، لا أنكر أني فرحتُ قليلًا لأنها ستفعلُ ما تريد .

شيءٌ واحدٌ فقط آلمني، وجعلني أقضي الليلَ أفكرُ حينًا وأبكي آخر، هو "فردوس" يا "غادة" آه لو رأيتِها بالأمس، وجهُها شاحبٌ..عيناها دامعتان..ترتعش فراصُها خوفًا..وتضطرب أصابعُها قلقًا..هل رأيتِ أحدًا في سكراتِ الموتِ..؟ كانت كذلك..! تنظر إليَّ متلهفةً متسائلةً متأكدةً من الإجابةِ في آنٍ واحد، هل ستتركها ترحل، لماذا تبدو عاجزًا.. نهال ستغادر البيتَ بعد أن غادر أبوها يا يوسف، وأنت ماذا ستفعل، هل ستتركني أيضًا أموت وحيدةً بين جدران ذلك القصر..!

أسئلةٌ كثيرةٌ وأنا عاجز عن كلِّ شيءٍ، أيُّ حملٍ تركه صادق باشا، اقتربت منها فارتمت على صدري، هي من ارتمت تلك المرة..! لأنَّ عظامَها لانت وخارت قواها كطيرٍ يستعدُّ للسقوط بعد إصابتِه من صيادٍ ماهر.. ارتمت تحتمي بي ونحن من قضينا عمرنا نحتمي في صدرِها، حتى "نهال" بقوتِها الظاهرةِ كانت ترتمي في ذلك الحضنِ بعضَ الأوقات، لم أعرف هل عليَّ أن ألعنَ اختي أم أُطيِّبَ جراحَ أُمي، لو أنَّ رجلًا غيري في موقفي هذا فكيف يتصرف..؟! مسحت دموعَها بيدي.. قطراتُها سالت على فراقِ ابنةٍ تمنت أن تُزوِّجَها.. تفرحَ بها.. تذكرها بواجبتها نحوَ زوجِها، تنصحَها كيف يمكن أن تنشِئَ بيتًا، فجأةً ذهب كلُّ هذا أمام عينها وأمام ولدِها الذي لم يتحرك.

أيُّ ألمٍ يسكن تلك المرأةَ التي تخطَّت الستين، رحيلُ زوجِها، ضياعُ ابنِها الأكبرِ لأكثرَ من ثلاثِ سنوات، وأخيرًا هجرانُ ابنتِها لها.."فردوس" لا تستحقُّ ذلك، هي طيبةٌ، حنونة، تسعُك حين تضيقُ الدنيا، وتطمئنُك ولو كنتَ مطاردًا من العالمِ أجمع، ربتُّ على كتفِها، فنظرَتْ إليَّ تتساءل: متي سترحل أنت الآخر..؟ عيناها تُحملقُ في عينيَّ، لم أستطع ذلك فخفضتُ عيني فبكت كثيرًا، هل جرحتُها بصمتي..؟! خذلتُها، تُرى أيُّ كلمةٍ تستحقُّها مني في ذلك الوقتِ..؟ لا أدري ولا أعرف لذلك لم أتكلم، رانَ صمتٌ غريبٌ على كلينا، أوصلتها إلى حجرتها ممسكًا بيديها قبل أن أتركَها وشددت عليهما، فابتسمت

ابتسامةً شاحبةً كمن يعرف أنه لا فرحَ يلوحُ في الأفق سيراه.."أطلت عليكِ.. لكن ذلك ما حدث، ما جعلني حزينٌ بالأمسِ واليومَ وربما غدًا طالما بقيتْ"فردوس" هكذا، صحيحٌ أنها اليومَ أفضلُ،ولكنَّ حالةَ الأمسِ لا يمكن أن تكونَ إلا بدايةً..

انتظريني يومَ الثلاثاءِ ولا تذهبي للعملِ، اشتقت لك كثيرًا وأُحبك أكثر..

لم أغلق جوابَ "يوسف" كعادتي.. لم أحتضنِ الورقَ تلك المرةَ، تركته بجواري وأسندت ظهري على الوسادةِ، حروفُه ملقاةٌ، هي جثةٌ وأنا مثلُها، يحدثني عن أُمِّه التي تخشى الوحدةَ وأناديه ليشعرَ بامرأةٍ تنتظر الموتَ، يخبرني كيف أصبحت "فردوس" ضعيفةً، امرأةً ترفض سعادةَ ابنِها، تخشى الموتَ وحيدةً، أرعبته دموعُها، أحزنته اسئلتُها الحائرةُ، لم يصمد أمامها لدقائقَ حتى انهار، بالطبع عيناها سألت: هل سيتركها ليتزوجَني..؟ يبدو من كلامِه أنه لم يقل: نعم.. سكت ووارى عينيه، عجز أن يقولَ: نعم.. إني سأفعل، فاطمأنَّتْ بالطبع وهو يربت على يدِها، يؤكد لها أنه باقٍ.. كيف أصبح بتلك القسوةِ التي يكتب فيها كلماتٍ كتلك، ألم يتصوَّر ما وقْعُها عليَّ وأنا أراه أمامي في تلك الهيئةِ، يروي لي كيف أنَّ صديقَ عمرِه أوفى بوعدِه وتزوجَ من "فاطمة" التي تغرَّب من أجلِها، رجلٌ صدقَ وأوفى وعدَه..! أم يُحدِّثُني كيف أنَّ"ندى" ستتزوج وتتركني وحيدًا، الجميعُ يفرح وأنا فقط أتجرَّع كأسَ أحزاني، ماذا فكَّر وهو يمسك القلم، يفضفض، يحدثني عن مأساتِه بعد رحيلِ نهال، يقول ذلك ليستريحَ هو وتشتعل النيرانُ بداخلي، هل ثمَّةَ عدلٌ في هذا..؟! لماذا لا يفكر فيَّ.. أنا التي أنتظره منذ عام.. أواجه كلَّ شيءٍ بصبرٍ كاد أن ينفدَ، عيناي قد بدأتا تفضحاني وتضعُفانِ حين يسألَني عليه أحدٌ، كم مرةٍ أمسكتُ دموعي وهي على الحافةِ حتى لا تنفرطَ كالنهر وهي تحمل قهرَ امرأةٍ انتظرت رجلًا فغاب عن عينِها..؟! متى سيأتي، هل تم حلُّ المشكلةِ، أسئلة كثيرةٌ في أعينهم وأنا صامتةٌ، أستقبل الطعناتِ دون أن أهتزَّ، أخشى أن أتحركَ فيكبرَ الجرحُ ولا أستطيع السيطرةَ عليه، أموت وليس من حقي قولةُ آه.. كلماتُه جاءت مؤلمةً، تنكأُ كلَّ مساماتِ جلدي الجريحةِ، يذكرني أني دومًا بعد أُمِّه، إنه لا يستطيع التحرك دون أمرِها..فهل أراد من وراءِ كلماتِه شيئًا، هل يقصد أن يمهِّدَ الطريقَ لقرارٍ ما.. لا.. ليس يوسف، أعرفه يكتب لأنه أراد أن يخبرَني، متى يعلم أنَّ مثل تلك الكلماتِ تقتلني حروفُها .لم أُرد العودةَ إلى البيتِ تلك المرةَ، لم أعُد قادرةً على التزامِ الصمتِ في حضرةِ"عبداللاه" والذي زادَ على الرغمِ من

ابتسامِه الدائمِ اضطرابُه مع الأيام، كما أني لم أعُد أُطيقَ تذمُّرَ أمي الذي بدا واضحًا وتوشك على الانفجار، ما يقتلني أني لا أستطيع الحديث، أنا من دافعت عنه وأجبرتهم على الموافقة، أمرٌ آخرٌ دفعني لذلك، لا أريد أن يقولَ لي أحدٌ اتركيه، ما قد يُهيئُني للبعد عنه، ويشد من أزري للفراقِ المحتملِ، يؤكد لي أنَّ الزواجَ مستحيلٌ، لا أريد من أحدٍ أن يشجِّعَني على تحمُّلِ رحيلِه، غريقٌ مستسلمٌ لأمواجِ الموتِ التي يراها أفضلَ من برٍّ لا حياةَ فيه .

مكثتُ في القاهرةِ قرابةَ الشهرين، طالبوني بالعودةِ قليلًا وتحججت بالعملِ كثيرًا، لم أرَ "يوسف" إلا ثلاثَ مراتٍ، في الماضي كنت أراه أسبوعيًا، منذ بدأ الحديثَ عن زواجِنا ورفضِ أمِّه لا أراه كثيرًا وأعلم أنه بعيدٌ عن الدنيا بأجمعِها،يجلس بمفردِه بالساعاتِ يكتب لي كثيرًا، هو كذلك يكتب حين يحزن..بعكسي أنا أرفض تخليدَ الحزن، في النهايةِ عدت حتى أمكثَ يومين قبل زفافِ "ندى" التي سأكونُ برفقتها بمجرد أن أصل إلى القاهرةِ وحتى يومِ الفرحِ الخميسَ المقبل .

❋ ❋ ❋

كنتُ أعيش لحظاتِ حبّكَ الأخيرةَ ولم يكن يهمني شيءٌ في
تلك اللحظةِ سوى أنْ أراكَ وأن أنتهي منك في الوقت نفسِه

(الفرح)

احتجتُها بالأمس، أردتُ أن أضع رأسي على صدرِها وأتكلّم دون أن تنبسَ هي ببنتِ شفةٍ، كعادتها تلمس على شعري، تضغط قليلا حين أقول ما يُحزن وتسرح معي حين يكون الحديثُ حلوًا.

أردت أن أخبرَها إني لأوّلِ مرةٍ أخاف من "يوسف" لا عليه، لم يكن جوابُه الأخيرُ هو فقط القاسي، بالأمس كان قاسيًا، بكلِّ ما فيه..عيناه التي هربت من عينيَّ المتساءلةِ عن مصيرنا..لسانُه رفض أن ينطق ليبلَّ ريقي..صوتُه خلا من نبرةِ الضعفِ التي أخبرني دومًا أنها كذلك لإنني مصدرُ قوتِه، تحدث عن كلِّ شيءٍ ماعدا ما أريد، في آخر الحديثِ ذكر أنَّ"فردوس" أصبحت أفضلَ وأنه سعيدٌ بذلك – فلتذهب أُمُّه إلى الجحيم – كما تحدث بمرحٍ عن حضورِ فرحِ"نادر" وفرحتِه بمشاركةِ زفافِه، نعم يا "ندى" تحدث في كلِّ هذا ماعدا أنا، كأنني لا أعنيه، لا يشعر بثقلِ كلِّ دقيقةٍ تمرُّ ونحن على هذا الوضع، أنتظر، وهو يعلم ولكنه لم ينطق، تُرى هل تلك البدايةُ..؟ رأيته بالأمسِ يرحل أمام عينيَّ، يغيب وهو حاضرٌ أمامي، أنا في وادٍ وهو في آخرَ، أيكون فراقُنا من هذا النوعِ، أمام بعضِنا البعض، عينانا تلتقيان وقلبان غائبان، ذلك أصعبُ أنواعِ الفراقِ، الراحلون يرحموننا كثيرًا، لا نلقاهم ولا نسمع صوتَهم، يقولون كلمتَهم ويذهبوا، هو لم يفعل ذلك .

بالأمسِ فقط شعرت بفداحةِ فراقِها، وحشةِ الغربةِ، ضيقِ النفسِ، وجدرانُ الشقةِ التي احتوتنا نحن الاثنتين أصبحت غريبةً، صمتُها أضحى مرعبًا أكثرَ من اللازم، حتى الهواءُ بات أكثرَ عُنفًا يضرب الشباك طوالَ الليل .

غادرت "ندى" منذ أسبوعٍ استعدادًا للمحطةِ الجديدةِ مع أحمد، رغم ذلك لم أشعر بغيابِها سوى أمس حين تركتها وأنا أعلم أنها لن تعودَ إلى البيتِ الذي اختارته هي في مكانٍ مزدحمٍ لكنَّه قريبٌ من أعمالنا، ندى لها كلُّ شيءٍ هنا هي من سكنته قبلي، وضعت لمستها علي، اختارت مكانه حتى إيجارُ الشقةِ هي من تدفعه بعد أن أدفع نصيبي، لم يكن هذا بيتي، لم أشعر أنَّ هناك بيتًا جمعنى سوى بيتِ عبداللاه، حتى يوسف من الأمس وأنا لم أعد مطمئنةً له.

هذا الصباحُ مفترضٌ أن يكونَ جميلًا، لكنه باهتٌ، لا هو جيدٌ ولا قبيحٌ؛ بل هو بينَ بينَ، رائحتُه لا تشبه شيئًا.. داخلي شعوران يتصارعان، الخيبةُ بمقابلةِ الأمسِ وفرحةُ زفافِ"ندي" أشعر بعجزي عن الحركة، طُفتُ الشقةَ الصغيرةَ، حجرتُها كما هي.. مُرتَّبةٌ إلى أقصى درجةٍ، صوتُها لا زال يسكن هنا، بعضُ حاجتِها باقيةٌ، آه يا رفيقةَ الدربِ، ثلاثُ سنواتٍ حتى الآن ونحن هنا معًا.. كلُّ شيءٍ منك بقى، غضبك، صوتك، حزنك، محادثاتك مع أحمد .

غادرتني وفتحتِ بابَ الغربةِ والوحشة والدموع، لأول مرةٍ أشعر أني وحيدةً هنا.. لا شيءَ حولي سوى الفراغ. أمسكت الهاتفَ واتَّصلت بِيوسف رغم كلِّ شيءٍ، هو الوحيدُ القادرُ على انتشالي من دوامةِ تلك الأفكار، لم يردَّ، كررتُ المحاولةَ وتكررت النتيجةُ.. أعلمُ أنَّ التاسعةَ صباحًا موعدٌ مبكِّرٌ لا يستيقظ فيه ولكني أحتاجه..ألا يكفي ذلك لأن يكسرَ روتين يومِه ولو مرة، حبيبتُه تريد أن تحكي له.. تُعبِّرُ عن غضبِها وخوفِها وحنينِها، ربما أردت أن أقول له أحبك فيرد: وأنا كمان، تلك كلمةٌ كافيةٌ لأن تهدِّأني في ذلك الوقتِ، ربما كان سيضيف عليها كلامًا آخرَ أعرفه كريمًا في تلك الأوقات، لكنه لم يفعل،فزادت خيبةُ أملي.. ماذا يمكن أن يكون أبشعَ من احتياجي له فلم أجده..؟! ولم ينتشلني من تلك الأفكار سوى رنةِ الهاتف من"ندي" ، بالطبعِ تطلب مني ألَّا أتاخَّر، المفترض أن أذهب لها بعد ساعتين إلى الفندقِ حيث حفلُ الزفاف، بالأمس أخبرتني أنها أدركت معني أن يكونَ هناك أختٌ في وقتٍ كهذا، شكرتني فتعجَّبت أكثرَ، فمَن منَّا المفترضُ عليه شكرُ الآخرِ..؟! حاولت أن أُظهرَ صوتي طبيعيًا وانا اخبرها إني استيقظت وخلال ساعة سأكون بجوارها

- مالك؟

- ولا حاجة لسه صاحية من النوم بس.

- طب متتأخريش مستنياكي.

أغلقت الهاتفَ، لأولِ مرةٍ.. لم تشعر إني حزينةٌ، لم تدرك أنَّ كلمة: ولا حاجة.. تعني الكثير، هل أظلمُها..؟! اليوم به الكثيرُ الذي يشغل بالَها، أدرك إحساسَ أيِّ فتاةٍ وهي تعلم أنَّ في الليلِ لن تعودَ إلى بيت أبيها، إلى حجرتِها، ألعابِها، لن تغلقَ بابَ الحجرةِ لتكونَ على راحتِها، لن تصبح آنسةً بعد اليوم،

والأهمُّ أنَّ هناك رجلًا ستشاركه الرحلةَ الطويلة، لو لم يكن أحدٌ غير أحمد لأسديت لها النصائحَ، ولكن أن يغلق عليك البابُ مع من تحبُّ فهو كفيلٌ لتبديدِ أحاسيسِ القلقِ والخوفِ إلى فرح..!

حين تزوجت "راضي"لم أشعر بسعادة، لكني لم أكن خائفةً منه، كان ودودأ وأستريح معه، لذلك ذهبت بخطىً ثابتةٍ وإن كنتُ لا أعرف حتى الآن كيف تعرَّيت أمامه بين عشيةٍ وضحاها، كيف تركتُه يقبّلُ شفتيَّ ، يتفحَّص جسدي، يترك أناملَه تعبث بي لتشعلَ جسدي في لحظاتٍ..!لم أتناول إفطاري، غادرت المنزل في اتجاهِ الفندقِ بعد أن قررتُ نفضَ تلك الأفكارِ، أن أفرحَ لأنَّ"ندي" تستحقُّ ذلك، لإنها أكثرُمن ذلك لا تريدني سوى سعيدة.

طوال الطريقِ وأنا أفكر: كيف سيكون شكلُها داخل الفستانِ الأبيض.. ابتسامةٌ تلقائيةٌ ارتسمت على وجهي وأنا أُفكر فيها.. يااااه "ندى" التي كانت بالأمس معي ستكون اليومَ في حضرةِ رجلٍ..!طرقت البابَ ففتحت لي والدتُها، طنط "ناهد" لم أكن رأيتُها سوى مرتين.. امرأةٌ شارفت على الخمسين لكنَّها مختلفةٌ عن أُمِّي أو أيِّ أُمٍّ في الصعيد، عندنا في "المنيا" أيّ امرأةٍ في سنّها تصبح جدةً وترتدي الجلبابَ الأسودَ الواسع وتقول حسن الختام.. هي لم تكن كذلك.. ليس لكونها إسكندرانيةً فحسب ولكن لأنها "ناهد" التي حكت لي "ندى" عنها كثيرًا وعن حريتها وانطلاقِها وجنونها في بعضِ الأوقاتِ، عاشت حياتها كما تحبُّ لا كما ينبغي، طالعتني بفستان سواريه أسود يكشف كتفيها، لفتَ انتباهي أنَّ جلدَها ناعمٌ جدًا، لا زال ينبضُ بالحياة، أبيضُ يسرُّ الناظرين، نهداها لا يزالان منتفضان لم يهدَّهما الزمانُ بعد ، أما وجهُها فلم تكن فيه أيُّ تجعيدةٍ، عيونُها مرسومةٌ مع كحلٍ أضفى عليها سحرًا خاصًّاً.

استقبلتني بضحكةٍ ثم ترحيبٍ أما "ندى" فهرولت إليَّ

- أنتي فين؟

- إيه يا بنتي لسه الساعة ١٢ الضهر.

- لسه في ١٠٠ حاجة هنعملها؟

- كل حاجة هتتعمل أهدى انتي بس وكله هيبقى تمام.

- قلقانه.

- ليه بس يا مزة؟ دي شكة دبوس.

- هههه أنتي بتتريقي آه ما انتي خبرة.

- شوفتي بقى غادة اللي كنتي بتقولي عليها بنتك فاهمة أكتر منك إزاي.

- لا بجد أنا خايفة.

- ولا تخافي ولا حاجة، سيبك من كل الكلام اللي سمعتيه كله كذب، فكري إنك مع أحمد اللى حبتيه من سنين، ذكرياتكم، وعودكم، حياتكم اللي لسه هتبدأ وأحلامكم اللي عاوزين تحققوها، أحضنيه على قد اشتياقك أنك تحضنيه وانتي مخطوبة متحضنهوش لأنك مراته، ضميه لأنك حبتيه، أوعي تحولي كل حاجة حلوة لعادة أو علشان انتوا متجوزين، النهاردة هيتقفل عليكم باب لانكوا عشقتوا بعض.

- يااااه يا غادة ريحتيني أوي بكلامك ده.

- دي الحقيقة.

ملامحُ القلقِ تحولت إلى ابتسامةٍ هادئةٍ، قبَّلتُها واحتضنتها كثيرًا، لا تسعفني الكلماتُ لوصف ذلك الشعورِ في تلك اللحظةِ، فرحي لها وحزني على انقضاءِ أيامنا الخوالي، نظرتْ إليَّ بعينَي طفلةٍ بريئةٍ تتحسَّس ملامحي بيديها، فبكيت وانهمرت دموعي على خدي فسالت دموعُها هي الأخرى..!

- تعرفي إني لما دورت ملقتش غيرك يقف معايا، انا مصاحبتش حد غيرك.

- يعني أنا اللي ليا غيرك، يلا قومي علشان الكوافير على وصول.

تحول الوضع في ثواني، ندى مصدر أماني تحولت لطفلة وأنا القلقة تحولت لمنبع الطمأنينة، ساعات اليوم أنا وهي فقط في الحجرة، اكتشفت إنها لا تمتلك اصدقاء غيري ولا حتى زملاء يشاركنها ذلك الأمر، اكتشفت ايضا أن ندي خجولة جدا.

لم تكن تلك آخرَ اكتشافاتِ ذلك اليومِ الذي بدأ بدون شعورٍ واضح، أنا ولأولِ مرةٍ في حياتي أرتدي فستان سواريه، هكذا عرفت حين ارتديت ذلك الفستان الأسودَ أمام المرآةِ.. معقولة.. جاهدتُ نفسي على أن أتذكَّر لكنها الحقيقةُ رغم عشقي للفساتين لكني لم أرتدِ سوى فستانِ الفرحِ بعدها فساتين عادية، أنا و"راضي" لم نكن نحضر أفراح تستحقُّ ذلك.."أبو قرقاص" ذاتُها ستتعجب إذا رأتِ امرأةً ترتدي فستانًا كذلك، في القاهرةِ لم أعرف سوى "ندي" التي يمكن أن أرتديه أمامها الآن .

أتأمَّل نفسي جيدًا، امتلأْتُ قليلا. الفستانُ ضيّقٌ من الأسفل يبرز كلَّ شيءٍ تقريبًا، بالأمس كان ذلك يُخجلني، أما اليومَ فقد تغيَّر الكثير.. فرحت به وبشكلي فيه،عيوني ابتسمت، نهداي انتفضا، يوسف قادمٌ، أول مرة سيقابلني هكذا، ما ردةُ فعلِه، أيُّ كلمةٍ سينطقُها، أو تعبيرٍ سيظهر عليه، الأنثى تحبُّ أن تكونَ جميلةً لذاتِها، لكنها تعشق أنْ يُفتَنَ بجمالِها رجلٌ..يوسف مرةً أخرى: ألم أكن حزينةً بسببِه منذ ساعاتٍ..!

انتهى كلُّ شيءٍ، دقائقُ قليلةٌ ويأتي "أحمد" ويبدأُ الفرحُ..وسط الزحامِ والأفكارِ نسيت هاتفي.. ٥ مكالماتٍ جاءت من "يوسف" ولم أسمعها، فاتَّصلت به معتذرةً وشارحةً سببَ انشغالي، لم يغضب كثيرًا، أخبرني في كلماتٍ مقتضبةٍ أنه في الطريق..الطريق..نظرت إلى الساعةِ، إنها السابعةُ، كيف مرَّ كلُّ ذلك الوقتِ دون أن أشعر به.. اللحظةُ التي أنهيت فيها مكالمتي هي التي طرقَ فيها أحمدُ الباب فارتعشت ندى.. اضطربت، ضحكت، قلقت، خجلت، توارت، احتارت، نظرت إليَّ، إلى الكوافير، إلى المرايا، إلى جسدِها، ثم البابِ، كلُّ ذلك حدث في بضعِ ثوانٍ، في الوقتِ الذي استغرقه أحمدُ للدخول .

"ندى" تنظر إلى الأرضِ، تفرك يديها، تهزّ قدميها، وأحمد يقترب بهدوءٍ، وسيمًا كما لم أرَه من قبل، يرتدي بدلةً سوداءَ وببيونة، اقترب أكثرَ "بسم الله ماشاء الله" أولى الكلماتِ التي نطقَها، ابتعدت الكوافيرةُ وحبستُ أنفاسي لأتيحَ لهما تلك الفرصةَ، دقيقةً أو أقلَّ تعني الكثير، عيونهم قالت وقالت وقالت، نبضات قلوبهم تعلن عمَّا يحدث بقوةٍ، وهو يقترب وهي تزداد قلقًا فيمسك بيديها، فترفض الكلماتُ أن تخرجَ منها، وترفع وجهَها قليلًا وتبدأُ في النهوضِ، يهمس بكلمةٍ لم أسمعها تضحك..! يُمسك ذراعَها وينطلق صوتُ الموسيقى معلنةً بدءَ الفرحِ .

خارجَ الحجرةِ أناسٌ جاءوا لزفةِ العروسةِ، أهالي العريس، زملاؤنا في العمل، أبانوب، خالد، صدقي، وآخرون.

وبمجردِ نزولِنا إلى القاعةِ ظهر طيفُه من بعيدٍ، والأنوارُ تحيط به فتمنحُه ضوءًا مميَّزا بين الجميع، أصواتُ الموسيقى تتعالى، الجميعُ على كراسيِّهم لم يتحركوا بعدُ، وآخرون يتوافدون إلى القاعةِ، وقفتُ أنظر إليه.. هو يوسف، أجملُ بكثيرٍ مما أتوقَّع، بل أجملُ من أحمد نفسِه، يرتدي بدلةً بُنيَّةَ اللون..

ترك الجاكت مفتوحًا لكنه أغلق زراير القميصِ كلَّها.. شعرُه مُنمَّقٌ مصفَّفٌ إلى الوراءِ، ينظر يمينًا ويسارًا، يبحث عني.. اختفيت لأُتابعَه أكثرَ كطفلةٍ تلاعب أباها.

في منتصفِ القاعةِ وقفت "ندى" في حضنِ زوجِها ترقص، القلقةُ منذ قليلٍ أراها الآن تختبيءُ في صدرِهِ أمام الجميع-الحلال حلو- الفرحُ جميلٌ، الشجاعة مُطمئنةٌ، الأمان يُهدّيءُ النفوسَ المضطربةَ ويجعلها تضحك.. لماذا لا أذهب إلى يوسف.. أحتضنه وأرقصُ معه.. ماذا ينقصني كي يحدث ذلك..؟ لماذا لا أستطيع ضمَّه على مرأىً ومسمعٍ من الجميع، فهو يحبني وأنا كذلك..؟! طال بحثُه عني وطال تفكيري حتى تحوَّل إحساسي مرةً أخرى من الفرحِ إلى الحزن، نسيت وعدي صباحَ اليومِ بأنْ أفرحَ لأنَّ"ندى" تستحق، ما الذي يجعلنا ننتظر، وإلى أين ننتهي، ماخطوتُنا المقبلةُ..؟ أسئلةٌ لم أطرحها عليه طوالَ الأشهرِ الماضية، ستةُ أشهرٍ والحالُ كما هو..! راودني شعورٌللحظةٍ أن أعيشَ معه هكذا ولكنَّ صورةَ"ندى" أمامي جعلتني أعيد التفكير.. أنا أستحق أيضًا الحبَّ في النور .اقتربتُ منه فجأةً ولم يكن يلتفتُ إلى الناحيةِ التي جئت منها، فوقف يتأمَّلُني وينظر إليَّ وعيناه تتَّسعانِ فرحًا، ابتسامتُه الخجلةُ عادت ترتسم على شفتيه مرةً أخرى.. طالت نظراتُه فابتسمتُ، ولكن لأولِ مرةٍ لا أفرح كُليًا، فقلبي تغطِّيه العتمةُ، الأسئلةُ الحائرةُ لازالت حائرةً..!

جلسنا بجوارِ"الكوشة" ندى تنظر إليَّ وتغمز، أردُّ عليها بضحكةٍ باهتةٍ وأتأمَّلُها وهي بجوارِ"أحمد" وأنا بجوارِ يوسف، شتَّان ما بيننا.. هي فرِحَةٌ وأنا حزينةٌ، الأضواءُ تغمِّي عيني وتزيدني ألمًا، على المقاعدِ أناسٌ يتحدثون وتعلو وجوهَهم الفرحةُ.. هل تلك فرحةً حقيقيةً.. هل يعانون مثلي ويكذبون على أنفسِهم..؟ قد يكون الأمرُ كذلك لكنْ جلستْ كلُّ امرأةٍ بجوارِ زوجِها وهي مطمئنةٌ أمرٌ يعذبني، كنت في السابقِ مثلهم، أجلس مع "راضي" مطمئنةٌ، أسير معه بين الناسِ ورأسي مرفوعةٌ لا شيءَ يؤرِّقني، اليومَ تغيَّر الحالُ، أذلني الحبُّ بكلِّ اختصار، يجلس هو بجواري لا يدري شيئًا، يضحك ويجامل وينبِّهني أنَّ أغنيةً ما يحبُّها، لم يخبرني أننا سنرقص عليها في فرحِنا، أو في شقتنا إن لم يكن هناك حفلُ زفافٍ من الأساس، أيُّ شيءٍ، أيُّ شيءٍ يا يوسف يخبرني أنك تشعر بي، أنَّ قلبَك يحترق وأنت ترى ذلك المشهدَ وتفكر بي..؟! لكنه سكت يتابع الفرح ويشتكي من ارتفاعِ حرارةِ القاعةِ وأنا يتسلل الجليدُ إلى مساماتِ جلدي، كلُّ شيءٍ روتينيٌّ في الفرح، غبت في دوامتي فنسيت "ندى" التي لم تهدأ منذ بدأ الفرح، رقصَتْ

حتى كأنها ستودِّعُ الدنيا الآن، طنط "ناهد" تمرُّ عليَّ وتربتُ على كتفي وتطلب مني الرقصَ لكني لا أعرف..! حقيقة أخرى تبدَّت لي وأنا جالسةٌ، كم من الأشياءِ تطلبُها ذلك اليوم لاكتشافِها، الفستان، برود يوسف، فرحة ندى، حقيقة موقفي، إحساسي لأول مرة أنَّ هناك خطأ، أنَّ من بجواري بكلِّ بساطةٍ رجلٌ جبانٌ..!

قبل انتهاءِ الفرحِ بدقائقَ انتابني إحساسُ الخوف، لا أريد لهذا الفرحِ أن ينتهي، أن تسكت الأغاني، تذهب غادة، يودعني يوسف، يغادرَ الحاضرون..فجميعهم سيذهبون وأنا سأبقى وحيدةً بين جدراني الأربعةِ في بولاقٍ، يا الله ما أبعد السماءَ وما أقربك، أنا خائفةٌ وحزينةٌ، قلبي مكلومٌ وأريد أن أستريح..!يوسف ينبهني فألتفت، ندى غادرت الكوشة، والجميعُ وراءها، القاعةُ تهدأ رويدًا رويدًا، أنظر حولي..لا مفرَّ، بخطواتٍ متثاقلةٍ أسير وراءها حتى بابِ القاعة، تنظر إليَّ فأقترب منها، أحتضنُها قليلًا ثم يطول احتضاني، في البدءِ كانت دموعَ الفرحِ ولكن خانتني عيناي، الأسئلةُ الحائرةُ تحوَّلت لقطراتِ دمعٍ تسيل، الخوفُ من الفراقِ ورفضِ الأمرِ الواقع صار نحيبًا، لاحظت ذلك فربتتْ على كتفي بعد أن نظرت ليوسفَ نظرةً أربكته، ففهِمَ أنَّ الأمرَ يعنيه، أنَّ الكثيرَ سكننى ولم أستطع إلا إخراجَه هكذا، توتر هو والجميعُ حوله، كفكفت دموعي بيدي، حاولت أن أقف مرةً أخرى، ودعت "ندى" ورثيتُ نفسي معها، ثوانٍ مرت قبل أن تصعدَ إلى حجرتِها في نفسِ الفندق، وفجأةً وجدتُني بجوارِه، الهواءُ قويٌّ تلك الليلةَ، سرنا صامتَيْن أنا حزينةٌ وهو خائف، يتحاشي النظرَ إليَّ، وأنا لم أعد أطيقُ ذلك فاستوقفْتُه

- وبعدين..؟

- الصبر.

- لحد إمتى؟

- لحد ما أمي توافق.

- ولو موافقتش؟

- هتوافق.

- ولو موافقتش؟

- مش هعرف أجوزك من غير موافقتها.

- ليه؟

- عمرك ما هتفهمي موقفي.

كلمته كافية للانهيار، حقًّا لا أفهمه، ولا أتفهم موقفه..لم ابتلع مرارتي تلك المرة..انطلقت افرغ صدري من كل همومي.

- ده حقيقي، عمره ما هفهم يعني إيه راجل قال وكذب، وعد وخلف، يعني إيه تقولي بحبك لكن مش هقدر اتجوزك غير لما توافق أمي، أمك اللى عمرها ما قابلتني لكن رفضتني من الباب للطاق، أفهم ! أفهم إيه أنك مستعد تسيبني أضيع من إيدك بعد كل اللى عملته، بعد ما اتحايلت على اهلي علشان يوافقوا، استحملت غضب أمي وقلق أبويا وعينيهم اللى نفسها ترتاح بإجابة هتيجي امتى ، ست شهور بيسألوا في صمت وأنا بعذبهم بسكوتي علشان خايفة لوعرفوا إنهم يصمموا على رأيهم .

أكيد يا يوسف مش هفهم يعني إيه بعد كل جواباتك وحبك اللي بان في عينيك أنك تتخلى عني كده، انت مكنتش بتكذب أنا متأكدة، لكن إنك تكون بالضعف ده متخيلتش، ايوه الضعف اللي خلاك تسيب اختك تسافر وأبوك يعمل فيك كل ده، في الأول قلت عليك طيب لكن بعد كده في حاجات تاني اكتشفتها إنك ضعيف، أنا آخر حاجة عاوزاها حد ضعيف، أنا رفضت ابانوب لما حسيت إنه ضعيف، لكن أنت اللى اتهدلت وسافرت وشوفت الموت قلت أكيد مختلف، أنا حبيتك لما كتبتلي جوابات، لما لقيت فيك الجرأة انك تكلم حد متعرفوش وتكتبله، لما لفيت معاك وسط البلد وأنا حاسه أنك أعظم راجل في الدنيا، لما قلتلي نتجوز قبل ما تقولي بحبك، علشان كل ده حبيتك وحسيت معاك بالأمان، الأمان اللي فضلت سنين بدور عليه لكن ملقتهوش، أفهم إيه وازاي..!

- غادة أهدي أنا مقصدش ده كله.

- ولا أنا اقصد يا يوسف، مقصدتش إنك تحبني، أو إن أسببلك مشاكل مع أمك، كان نفسي في يوم تقولي نهرب حتى من باب المجاملة، تحسسني إنك متمسك بيا لآخر لحظة، لكن مقلتهاش، كل اللي في دماغك فردوس اللي بتتعذب أو بتحزن، في عز ما محتاجاك تطمني، بتكتبلي هي قد إيه مبسوطة إنك جنبها، سكاكين بتقطعني مع كل كلمة وأنا شايفاك بتبعد، إيدك اللي عروقها بترتخي ناحيتي وبتتمد ليها، وداعك اللي بين السطور، مكنتش حاسس بده وده اللي قهرني، كأني آخر حاجة بتفكر فيها،

واحدة جنبك مستنياك وبتحبك ومش أي حاجة تاني، يااااااه لو تعرف قد إيه كنت مترددة اكتبلك، قد إيه رفضت كلام ندى إني أخوض تجربة الحب اللي مخضتهاش قبل كده، لكن مش عارفة بس يمكن علشان الراجل الوحيد اللى قابلته ووعدنى وفى بوعده لحد ما مات على إيدي افتكرت الناس كلها كده زيه بتوفي لكن ده محصلش

- إيه اللى بتقوليه ده يا غادة؟

- اللى حاسه بيه من شهور ورفضت أكلم فيه، بس النهاردة اتوجعت أوي، حسيت بخذلانك، وندمت على كل يوم معاك وأنا شايفه ندى وأحمد اتجوزوا، حضنوا بعض قدام الناس، أهاليهم فرحانة، أوعى تفكر أن ده جيه بالساهل أو إن مفيش مشاكل حصلت، لكن أحمد كان مصمم، مكنش معاه فلوس كتير لكن حرم نفسه علشان يجهز شقته ويضم اللى بيحبها، وأنا ! تقدر تقولي فين دلوقتي هستناك لحد امتى، أمك مش هتوافق أنا متأكدة وعارفة سبب رفضها.

- أنا خسرت ابويا ومش عاوز أخسرها، ملهاش حد غيري في الدنيا يا غادة، مهما قلتلك مش هتفهمي أي حاجة.

- اللى فهماه دلوقتي أن الموضوع انتهى، إن وهم الحب اللي جريت وراه طلع سراب، أن الأمان مش موجود، وإن جواز الصالونات مش وحش زي ما بيقولوا بالعكس ده بيحمينا من حاجات كتير اوي، من الغدر والخيانة والخوف ..الخوف اللى بقى معشش جوايا وأنا بفتكر أنك في لحظة ممكن تغيب، فهمت أن راضي كان أحسن بكتير من أي راجل حلمت بيه ، هو اللى مقدرش يزعلني في يوم، جايز أكون ظالمة في حسبتي لكن ده اللى شوفته، إحنا وصلنا للنهاية يا يوسف أقعد جنب أمك وأنا سيبني ، الرب رحيم، وقادر يخفف على قلوبنا..!..

لم أعطِه فرصةَ الحديثِ، وأدرت ظهري وجاء جوابُه كما توقعت.. صمت.. وقف يبكي لكنَّه لم ينادنِي، فأكملت طريقي دون أن أنظرَ له، فجأةً اشتقتُ إلى حجرتي وأنْ أجلس فيها وحيدةً، لم أشعر أني خائفةٌ .

❋ ❋ ❋